

رَفَعُ

مجمع الترجمة والتحرير
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

د. محمد إبراهيم حور



الطفل والتراث

مداخل للدراسة والبحث في التراث والبيئة القروية

المؤلف :

- محمد إبراهيم جور (فلسطين) - ١٩٤٦.
- حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة «عين شمس» عام (١٩٧٧).
- عمل مدرساً وأستاذاً مساعداً وأستاذاً في جامعات الجزائر - ليبيا - الإمارات العربية المتحدة.
- عمل في جامعة الإمارات العربية المتحدة رئيساً لقسم اللغة العربية ثم وكيلاً لكلية الآداب وقائماً بأعمال العميد ثم عميداً لكلية ذاتها.
- له العديد من الدراسات والبحوث والتحقيقات المنشورة في الأدب العربي قديماً وحديثاً، كما له في نقد بعض الكتب الأدبية مساهمات وراء.
- ترأس عدداً من لجان الإعداد والتنظيم لندوات علمية وثقافية.
- يتمتع بعضوية عدد من اللجان الثقافية والعلمية بالدولة.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية والتي عقدت في بعض أقطار الدول العربية كبحاوت ومعقب.
- عمل أميناً لتحرير مجلة كلية الآداب بجامعة الإمارات ثم رئيساً لتحريرها، كما أنه مستشار لمجلة «شؤون إجتماعية» (جمعية الاجتماعيين) ومجلتي دراسات وشؤون أدبية (اتحاد كتاب وأدباء الإمارات).

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الطفل والتراث

رَفَعُ
عبد الرَّحْمَنِ النَّجْدِيُّ
أُسْتَاذُ الدِّينِ الْفَرُوقِيُّ
www.moswarat.com

د. محمد إبراهيم حور

الطفل والتراث

الطبعة الأولى

١٩٩٣

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الثقافة والاعلام

حكومة الشارقة

إهداء

إلى فلذة كبدي ..

يوسف ، وعمر ، ويـزن

وقرة عيني ..

أسماء ، وهيفاء

أنسُ الحاضر ،

وأملُ المستقبل

رَفَع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقديم

هذه أربع دراسات تدور حول محور واحد هو الطفل . وهي تتدرج تدرجاً منطقياً في التناول والمعالجة . فالأولى تعنى بالبواكير الأولى لأدب الأطفال في الأدب العربي القديم . والثانية تعالج موضوع تربية الأبناء في الفترة ذاتها . والثالثة تعرض للرؤية الثقافية للطفل العربي ومكوناتها . أما الرابعة فكان موضوعها رثاء الأبناء في الشعر العربي القديم .

وإن المادة في مجملها يغلب عليها الطابع التراثي المتصل بالطفل . وهو أمر مقصود لذاته ، إذ إنني عنيت بهذا الجانب منذ زمن ، وكان يحدوني الأمل في الكشف عن جانبين مهمين : أولهما : لفت النظر لجوانب في تراثنا الأدبي والفكري ، لم تحظ بالدرس والبحث الكافين ، وفي مقدمة هذه الجوانب الأدب المتصل بالطفل ، وثانيهما : التنبيه إلى أن هناك مناهج ، وأساليب في تراثنا عني بها الآباء والأجداد كرسوا للطفل . وإن في التعريف بها ، فائدة غير قليلة في تنشئة الطفل العربي المعاصر ، بعد أن تنازعت الثقافات ، وتاهت به السبل ، بأجهزة الإعلام المعاصرة . وبعد أن حار المربون ، في مواجهة هذا السيل الجارف في الثقافات الوافدة ، والتي بات من الصعب الفرز والتصنيف فيها ، للأخذ بالمفيد ، والابتعاد عن غير المفيد .

أقول: كان الأمل يحدوني أن يتحقق لي شيء من هذين الأمرين. وإنني أشعر بارتياح تام للمادة التي توافرت لدي، وللموضوعات التي عالجتها بها. ولي أمل ورجاء أن يجد الدارسون ما وجدته فيها، وأن يتجهوا لاستكمال الدرس، أو معالجة النقص، واستقصاء المادة في عصور الأدب العربي المختلفة، لتأصيل أدب عربي معني بالطفل في القديم والحديث. وما هذه الدراسات إلا مدخل لذلك، ولبنة على طريق بناء الطفل العربي المتمكن من عقيدته، المعترف بعروبه، المنفتح على الفكر الإنساني بعقل واع، وأساس متين. وبالله التوفيق.

محمد إبراهيم حور

العين في أول رمضان المبارك ١٤١٢هـ
الموافق الثالث من مارس (آذار) ١٩٩٢م

الطفل والتراث

مدخل لدراسة أدب الأطفال
في الأدب العربي القديم

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كان الأدب، وما زال، ابن بيئته، يصور واقعها، ويعكس خصائصها التي تميزها عن غيرها من البيئات، ويخاطب وجدان مجتمعتها. وقد جسد الأدب العربي هذه الحقيقة عبر عصوره المختلفة، بل كان في مرحلة ما يشكل فنّه الرئيس، ديوان هذه الأمة، يحفظ تاريخها، ويشهد على قيمها ومثلها وعلى أصالة أهلها. وفي كل عصر تتطور فنون، ويأفل نجم أخرى وتستحدث فنون تبعاً لطبيعة التطور في المجتمعات، ولحاجاتها الملحة. وفي عصرنا الحديث، طرأ على أدبنا العربي تطور وتطوير: تطور الأدب بأن تخلص من كثير من الآفات التي كانت عالقة به، كالتكسب، واللهو، والتقليد البعيد عن الأصالة وعدم تمتع الأديب باحترام النفس الذي يدعو الآخرين لاحترامه. . . . وتطور الأدب العربي بالفنون الجديدة التي لم يكن له نصيب يذكر منها بخصائصها الفنية المتعارف عليها في وقتنا الحاضر، كالقصة والرواية والمقالة والمسرحية.

وأصاب أدبنا العربي تطوير في مضامينه وقضاياها، إذ باتت متصلة بالمجموع، بعد أن كان يغلب عليها الاقتصار على الفرد. وأصبح الأديب في عصرنا - على الأغلب - ذا موقف وقضية، بعد أن كان - في الأغلب أيضاً - يتهم بالتكسب، ويتحلل من المواقف الحادة. وطرأ تطوير على فن العربية الأول الشعر في الشكل والمضمون.

وشغلت العصر وأدباءه قضايا مهمة، كرس لها جانب من الدراسات والبحوث، وترددت الدعوات إلى المبدعين للمشاركة في هذه القضايا بمعالجتها.

ووقف في مقدمتها الطفل بوصفه أمل المستقبل، وهو الذي يعول عليه في تحقيق ما عجز الجيل الحالي عن الوصول إليه. وكان لا بد أن يهيا لهذا الطفل كل الظروف التي تساعد على أن يكون ابن عصره، وأن يقدم له - أول ما يقدم - الأدب الذي يخاطب وجدانه وعقله، يتناسب معها في سني عمره المختلفة. وترددت أقوال وآراء حول هذا الأدب العربي المتصل بالطفل. هل هو فن جديد منبت الصلة بالتراث، أم أن له جذوراً قديمة، ومقدمات مهمة، يمكن أن تستلهم أو أن يستفاد منها لاثرائه وتطويره؟

إن هذه الورقة، تحاول لفت النظر إلى جوانب في التراث غنية، تتصل بالطفل بصفة مباشرة وغير مباشرة. وإن كاتبها أميل للأخذ بالرأي الذي يؤكد وجود مثل هذا الأدب في تراثنا الأدبي مع ملاحظة أنه أدب له ظروفه وطبيعته التي تتصل ببيئته وعصوره. وإن مادته تصلح أن يستفاد منها في أدب الأطفال الذي يعد في وقتنا الحاضر، بما اشتملت عليه من قيم سامية، وقصص طريفة.

وقد جاءت الورقة في ست فقرات وملحقين: تحدثت في الفقرة الأولى عن مفهوم الطفولة في أدبنا العربي، وعن متطلباتها عند العرب. وكانت الفقرة الثانية حول اهتمام العربي بالطفل وتربيته وتنشئته. وكانت الفقرة الثالثة حول مفهومي الأدب: ما أعد للطفل وهو أدب أطفال، وما تحدث عن الطفل، وهو غير ذلك. أما الفقرة الرابعة، فتحدثت عن فهم العرب لأدب الأطفال وخصوصيته، وأنه مختلف عن أدب الكبار. أما الفقرتان الخامسة والسادسة فتحدثتا عن جانب من الأدب العربي الذي أعد للطفل في تراثنا. واشتمل الملحق الأول على نماذج من النصوص التي يمكن الاستئناس بها في التراث الأدبي عند العرب، وهي ألصق بالأطفال منها

بغيرهم . أما الملحق الثاني فذكرت فيه عدداً من المصادر التي عنيت بأدب الأطفال في تراثنا، وقد حرصت على ذكر الكتاب ومؤلفه وسنة وفاته، ومكان نشره وتاريخه ليسهل الرجوع إليها.

ولا يفوتني أن أشير إلى أنني عنيت في هذه الدراسة بالأدب العربي الخالص، ولم أستعن بالأدب المترجم، لأننا في مرحلة التأصيل والتأسيس، ولذلك فإن العناية بالجانب الآخر تأتي في مرحلة تالية . وبالله التوفيق .

(١)

إن من يستعرض الصفات التي أطلقت على الإنسان في مراحل حياته المختلفة في اللغة العربية يجدها كثيرة كثرة تلفت النظر، وتدعو للتأمل في تلك الدقة التي فرقت بين مرحلة من العمر وأخرى، وجعلت لكل مرحلة أحكاماً تجاه المرء مغايرة لما يختلف عنها.

فعندهم الصبي، والطفل، والغلام، والفتى، والشاب، والشيخ، والكهل. وقد ترسخ في أذهان القوم دلالات لكل تسمية منها: فالكهولة تشي بالهرم، والشيخوخة ارتبطت بالوقار، والشباب اتصل بالقوة، والفتوة أوحى بالطيش، والغلام نم على بداية معايشة الرجال. واحتال القوم في تحديد السن التي تفرق بين صفة وأخرى إلا أنه كلما تقدمت السن بالمرء زاد التباين في تقديرهم.

أما الطفل والصبي، فهما مترادفان تقريباً في اللغة، جاء في لسان العرب: يقال رأيت في صباه أي في صغره. والصبي، من لدن يولد إلى أن يفطم (١).

والطفل والطفلة: الصغيران. والطفل: الصغير من كل شيء. والصبي يدعى طفلاً حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم (٢).

(١) لسان العرب، مادة (صبا).

(٢) المصدر السابق، مادة (طفل).

ويؤكد هذا التقارب في مفهومي الطفل والصبي عند العرب ما جاء في القرآن الكريم حولهما، إذ المعنى هو هو. قال تعالى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبياً﴾(١).

وقال جل شأنه في سورة مريم عن عيسى عليه السلام: «فأشارت إليه، قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً»(٢).

ومفهوم الطفل في القرآن الكريم مذ يولد إلى أن يحتلم قال تعالى: ﴿ونُقِرْ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً﴾(٣). وقال سبحانه ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً﴾(٤) وقال جلَّ شأنه ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا﴾(٥).

لقد اتفق المعنى المعجمي مع المعنى القرآني لمفهوم الطفل فهو مذ يولد إلى أن يبلغ الحلم. ولا يكاد الحديث النبوي الشريف يند عن هذه الدائرة حين وجه النبي الكريم ﷺ في رعاية الابن وتربيته فقال: «إذا بلغ أولادكم سبع سنين فمروهم بالطهارة والصلاة، وإذا بلغوا عشرًا فاضربوهم عليها، وإذا بلغوا ثلاثة عشر ففرقوا بينهم في المضاجع»(٦).

والجدید في الأمر أن النبي ﷺ عدَّ السنين السبعة الأولى من حياة الطفل للتكوين والرعاية التي لا يتحمل فيها الطفل مسؤولية، أو يؤاخذ على تربية أو تعليم. أما

(١) سورة مريم، الآية ١٢.

(٢) الآية ٢٩.

(٣) سورة الحج، الآية ٥.

(٤) سورة غافر. الآية ٦٧.

(٥) سورة النور، الآية ٥٩.

(٦) محاضرات الادباء ١: ٣٢٧.

وقد بلغ سبع سنين فهو جدير بالتعليم والتوجيه .

وقد سار العرب الأوائل على هذا النهج، وأثرت عنهم أقوال تؤكد هذا وتأخذ به، فقالوا: «لاعب ابنك سبعاً، وعلمه سبعاً، وجالس به إخوانك سبعاً، يتبين لك أخلفٌ هو بعدك أم خلَّف» (١).

وقالوا: «ابنك ريجانك سبعاً، وخادمك سبعاً، ووزيرك سبعاً، ثم هو صديق أثير أو عدو كبير» (٢). ويؤخذ من هذين النصين ما يتفق مع الحديث النبوي الشريف، إذ نصا على أن السنين السبع الأولى هي للمتعة والملاعبة، ويكفي أن تنظر إلى ما تشبه لفظة «ريجانك» لتتعرف على شعور الآباء تجاه أبنائهم في هذه السن، وأما السبع الثانية فهي للتعليم والتكوين، وواضح التقارب بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، كما جاءت الأولى عند النبي ﷺ والثانية كما هي بعد ذلك.

وقد كانت السنين المبكرة في عمر الطفل مصدر عطف ورعاية على الأطفال من قبل العرب القدماء، وذلك لما أدركوه من قصور في تكوينهم وفي قدرتهم على التمييز بين الصواب والخطأ، أو الحق والباطل، أو ما يجوز اقترافه من أعمال، وعدم اقترافه، وأكثروا من الأمثال والقصص التي تصور هذه القناعة.

فالأطفال مصدر ضعف لأبائهم، يضطرونهم إلى أن يقفوا مواقف يأنفون منها لولاهم، ويجعلونهم في حالة من القلق والخوف عليهم، ولذلك رأينا شاعرنا يقول:

يقر بعيني وهو ينقص مدتي
مرور الليالي كي يشب حكيم

(١) محاضرات الادباء. ١: ٣٢٨.

(٢) التمثيل والمحاضرة ٤٥٩.

مخافة أن يغتالني الموت قبله فينشو مع الصبيان وهو يتيم (١)

فمصدر خوف الشاعر أن يغتاله الموت وابنه ما زال طفلاً صغيراً لا يقوى على الاعتماد على النفس ومواجهة الحياة، وما يصاحب هذا من يتم وكفى به مذلة وضعفاً.

ولا يختلف الشعراء كثيراً في المحصلة النهائية عن شاعرنا السابق، حين يضطربهم أولادهم وهم صبية صغار إلى أن يكسبوا بشعرهم، ويريقوا ماء وجوههم، وهم يمدحون من ليس أهلاً لمدح، بل هم للهجاء أولى وأجدر. ولكن ماذا يفعل هؤلاء الشعراء وهو يرعون ويسهرون على صبية صغار (وجوههم كأنها أقمار) قال شاعرهم:

والله لولا صبية صغار
وجوههم كأنها أقمار
لما رأني ملك جبار
ببايه ما طلع النهار (٢)

وصاحب العطف، ذكرهم في أحاديث كثيرة لهم - شعراً ونثراً - بينت بساطة الطفل في تفكيره، ودعوا إلى ضرورة تحاشيه أو التعامل معه في مواطن الجد، أو المجالس العامة، لأنه لا يدرك عواقب أفعاله أو أقواله، ولذلك رأينا الشاعر يقول في معرض حديثه عن من يفعل فعلاً، لا يدرك نتائجه، وهو الطفل:

كعصفورة في كف طفل يسومها
ورود حياض الموت والطفل يلعب (٣)

(١) محاضرات الأدباء ١: ٣٢١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التمثيل والمحاضرة ٢٢٠.

وقريب من هذا قالوا في أمثالهم، «اتق الصبيان لا تصبك بأعقابها»(١).

وقالوا: «الصبي أعلم بمضغ فيه»(٢) وفي هذا المثل تصوير حقيقي لموقفهم من الطفل ومستواه العقلي، ومدى استيعابه لما يدور حوله، ولذلك كان احترازهم الشديد في التعامل معه خارج محيط الأسرة. فقالوا: «لا تعطين الصبي واحدة فيطلب اثنتين»(٣) وغير ذلك كثير(٤). ولم يتوقف بهم الأمر عند هذا الحد وهم يتكلمون على الأطفال، بل انسحب الحديث على معلمهم، فرأوا أن معلمي الأطفال تغلب عليهم سمة الغفلة والبلادة، وعزوا ذلك إلى معاشر الصبيان. جاء في أخبار الحمقى والمغفلين، باب في ذكر المغفلين من المعلمين، واقتصر فيه الحديث على معلمي الصبيان، والعجيب أن المؤلف رأى أن حالة الغفلة لمعلمي الصبيان حالة مطردة قل أن تخطيء، وما وجد تعليلاً لها «إلا معاشر الصبيان»(٥).

ومع ما في هذا الرأي من إجحاف في حق المعلم، وانسجام في نظرهم للطفل ومستوى تفكيره، إلا أن المعلمين لم يعدموا من ينصفهم إذ انبرى غير واحد من الأدباء والمفكرين مدافعاً عنهم، إدراكاً منهم للدور الذي يقومون به، ولأن معظمهم تعاني هذه المهنة وعرف قدرها من جهة، وما يعانیه صاحبها من جهة ثانية. ويقف في مقدمة هؤلاء الجاحظ الذي صنف المعلمين إلى أضرب اتصلت بأولاد العامة، والخاصة، والملوك المرشحين للخلافة، كما أتى على نماذج من المعلمين الكبار الذين لهم صيت ذائع في العلم والمكانة، واستهجن أن يقال لهم حمقى

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ٢١٩.

(٣) نفسه.

(٤) ينظر في هذا المصدر السابق ٢١٩ - ٢٢٠.

(٥) أخبار الحمقى والمغفلين ١٤٠.

أو مغفلين. ولم ينس الجاحظ أن يشير إلى أن لكل طبقة كرامها وسفلتها. وما المعلمون إلا طبقة من هذه الطبقات، انظره يقول: «والمعلمون عندي على ضربين: منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة. ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة. فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب، وأشباه هؤلاء يقال لهم حقى. ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم. فإن ذهبوا إلى معلمي كتابيب القرى، فإن لكل قوم حاشية وسفلة، فما هم في ذلك إلا كغيرهم. وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء، مثل الكميت بن زيد، وعبد الحميد الكاتب، وقيس بن سعد، وعطاء بن أبي رباح.....» (١).

وإن موقفاً كهذا عند العرب تجاه الطفل، ومستواه الفكري، لا شك منسحب على طبيعة التعامل معه، والاهتمام به، وهو اهتمام متواضع في تقديري لما كان يواجه المجتمع من مهام جسام، وتحديات صعبة كانت تجعل القوم في شغل شاغل عن كل أمر، حين تتعلق القضية بالوجود أو عدمه، وبالمدافع عن الذات أو العرض أو الشرف، أو المطالبة بالثأر، أو البحث عن مورد ماء، أو موطن كلاً. أقول: كانت هذه الأمور هي شغلهم الشاغل، وكانت شؤون حياتهم توظف لها، ولا تتجاوزها إلا قليلاً. ولذلك لا نعجب إذا نظرنا مرة للطفل على أنه عبء عليهم في ضعفه وأنه - من جانب آخر - مصدر أمل وتفاؤل حين ينمو ويكبر ويقوى ساعده فيصبح يداً لأهله وقبيلته، ولذلك رأيناهم يتسابقون مع الزمن، وإذا بهم يعدونه رجلاً مؤهلاً للصعب، وعليه أن يتشرب مهام الرجال. فكانوا في جانب من تنشيتهم لأطفالهم، وتربيتهم لهم يعنون بمتطلباتهم الأساسية في إطارها المادي والمعنوي.

(١) البيان والتبيين ١: ٢٥٠.

فالرجل الكامل عندهم هو الذي يحسن أربعة أمور هي: الكتابة، والرماية، والسباحة وقول الشعر^(١).

وأخذاً بهذا النموذج للرجال كان الآباء وأولو الأمر يتطلعون إلى الأجيال المقبلة وإلى ما يجب أن تتسلح به، فعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يكتب إلى أهل الشام أن «علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليشبوا على الخيل وثباً، ورووهم ما يجمل من الشعر»^(٢).

والحجاج يقول لمؤدب بنيه: «علمهم السباحة قبل الكتابة، فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم»^(٣). وإن في توجيه الحجاج دليلاً حياً على تكيفهم مع متطلبات عصرهم، وأنهم كانوا يعنون بالأوليات فالأهم عندهم أولاً ثم المهم. وكان يمكن للحجاج أن يدعو مؤدب بنيه إلى كل الأمور مجتمعة، وإذا كان لا بد من الترتيب في الأوليات فمن غير المعقول أن تكون السباحة مقدمة على الكتابة. ولكنها سنة القوم وواقعيتهم المفرطة التي تتعامل مع ما هو قائم، أكثر من تعاملهم مع ما يجب أن يكون.

وإذا كان هذا هو حال العرب فيما وصلنا من تراثهم، فهل كانوا على هذه الصورة حسب؟ وهل أهملوا الطفل إهمالاً تاماً، ولم يكن له نصيب فيما أثر عنهم من تراث؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية.

(١) عيون الاخبار ٢: ١٦٨.

(٢) البيان والتبيين ٢: ٩٢.

(٣) عيون الاخبار ٢: ١٦٨.

(٢)

عني فلاسفة المسلمين ومفكروهم بتربية النشء في وقت مبكر من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وترجمت هذه العناية بعدد من الرسائل والكتب التي أفردت لهذا الموضوع. وكانت نظرة هؤلاء الفلاسفة والمفكرين نظرة شمولية اتجهت للتعليم بمقوماته الرئيسة الثلاث: التلميذ والمعلم والكتاب أو المادة العلمية التي يزود بها المتعلم. وإن إلقاء نظرة على عناوين كتبهم ورسائلهم في هذا الباب (١)، توصلنا إلى الصورة الواقعية التي كانوا عليها، وإلى مناهجهم وأساليب تفكيرهم. فقد اهتموا بالمعلمين من حيث أخلاقهم، وأجورهم، وتكوينهم العلمي وأسلوبهم في التربية والتعليم، وعلاقتهم بأولياء أمور التلاميذ، وبالتلاميذ أنفسهم، وبالمناهج التي لا بد

(١) انظر مثال ذلك: كتاب المعلمين للجاحظ (ت ٢٥٠ هـ) ضمن رسائل الجاحظ ٣: ٢٧ - ٥١. ورسالة آداب المعلمين لابن سحنون (ت ٢٥٦ هـ) ضمن كتاب التربية في الاسلام للاهواني ٥٥٣ - ٥٦٨.

ووصايا المعلمين لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ضمن كتاب عيون الأخبار ٢: ١٦٥ - ١٦٨. والرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمعلمين للقاسبي (ت ٤٠٣ هـ) ضمن كتاب التربية في الاسلام للاهواني ٢٦٧ - ٣٤٩. وكتاب السياسة لابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) ضمن كتاب التراث التربوي الاسلامي بتحقيق هشام نشابة ١٩ - ٤٣.

وباب التأديب والتعليم والتثقيف والسياسة وذكر المعلمين والمقومين، للزنجشري (ت ٤٣٨ هـ) ضمن كتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ١: ٥٠١ - ٥٣١. وكتاب منهاج المتعلم، للغزالي (ت ٥٠٥) ضمن كتاب التراث التربوي الاسلامي ٤٩ - ٩٢. وكتاب أيها الولد، له.

وكتاب تذكرة السامع والمتكلم وأدب العالم والمتعلم لابن جماعة (٧٣٣ هـ)، ضمن كتاب التراث التربوي الاسلامي ٩٣ - ١٨٦.

وكتاب اللؤلؤ التنظيم في روم التعلم والتعليم للانصاري (ت ٩٢٥ هـ). المصدر السابق ١٨٧ - ٢١٣. وكتاب تحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدب الاطفال للهيتمي (ت ٩٧٣ هـ). نفسه ٢١٥ - ٢٦٤.

أن يزودوا بها. وعنوا بالتلاميذ فتحدثوا عن السن التي يلتحقون فيها بدور التعليم، ومواصلة نموهم، وحالاتهم النفسية، وما تتطلبه كل مرحلة من مادة علمية، تتفاوت في مضمونها وطبيعتها من سن لأخرى، بالإضافة إلى اهتمامهم بعلاقة التلاميذ بعضهم ببعض وعلاقتهم بأستاذهم الذي يقوم على تعليمهم وتنشئتهم.

واهتموا بالمناهج التربوية وما يتطلبه التلميذ في سنينه الأولى فميزوا بين الحفظ والاستيعاب، وتعرضوا إلى تنوع العلوم والمعارف، وطبيعة كل منها، ونصوا على الأوقات التي تدرس فيها، وميزوا بين العلوم التي تتطلب مزيداً من الجهد والتفرغ، وتلك التي هي أيسر على الدارس ويمكنه استيعابها في كل الظروف.

وتكلموا على المادة التي يدرسها التلميذ، وأجمعوا على أن حفظ كتاب الله وفقهه يعد أول ما يؤخذ به التلميذ، وكان هذا الجانب هو أبرز المقاييس التي يقاس بها نجاح المعلم والمتعلم. ثم اهتموا بالأدب العربي وما فيه من أمثال وحكم، وقصص وحكايات، ووصايا وخطب ورسائل وشعر. والتفتوا إلى التاريخ والأخبار والفلسفة والحساب وغير ذلك. ووصل بهم الأمر إلى أن قسموا العلوم إلى قسمين: إجبارية واختيارية. فالاجبارية هي القرآن الكريم - حفظاً وترتيباً، وفهماً - وما يستلزمه من علوم لا يفقه إلاها، وهي النحو واللغة والهجاء والخط(١).

والاختيارية هي الحساب، والشعر، وأيام العرب، وأخبارهم(٢).

وذهب بعضهم إلى أبعد من هذا إذ دعا القاسبي في القرن الرابع للهجرة، إلى أن

(١) التربية في الاسلام ١٦٩.

(٢) المصدر السابق ١٧٣.

يكون التعليم إلزامياً لكل الصبيان، وأن يتكفل المجتمع - آباء، ومعلمين، وأولي الأمر - بتحقيق ذلك، وتوفير الوسائل الكفيلة بتحقيقه (١).

وما يلفت النظر أن المادة العلمية التي اهتموا بها ودعوا لتعليمها، هي المادة التي يحتاجها المرء في جميع مراحل حياته، ولم يكن هناك تحديد أو تمييز بين مرحلة عمرية وأخرى، اللهم إلا ذلك الطابع الوعظي الإرشادي الذي نبه إليه المعلمون، من قبل أولياء الأمور، وذوي الشأن، حين حددوا لهم طبيعة المادة التي تدرس للأبناء، وهي في مجملها ترسخ القيم الفاضلة: من شجاعة، وأنفة، وكرم، وعفاف، وإيمان، ونصرة للمظلوم، وثورة على الظالم، وحثوا المعلمين على أن يختاروا لأبنائهم نماذج من الشعر العربي والأخبار والأيام التي تجسد هذه القيم وتدعو إليها.

نعم، كانت المادة العلمية التي يزود بها الأطفال هي المادة التي يزود بها الكبار، ولعل ذلك يرجع إلى أن ابتداءهم بكتاب الله - سبحانه - هو الذي أوقعهم في هذا الأمر، ولكنهم - مع ذلك - أدركوا العبء الذي يتحمله الطفل وهو يزود بهذه المادة الصعبة، ولهذا لحظناهم يحنلون لتيسيرها في مناهجهم التربوية، فدعوا إلى التلوين في المادة والانتقال بها من الصعب إلى السهل، ومن الجدد إلى الهزل، ومن كتاب الله إلى الأخبار والقصص كي يخففوا عن الطفل، ويزيلوا الملل من نفسه (٢). ولكن تراثنا الأدبي - مع ذلك - لم يعدم وجود مادة تعليمية ذات صلة مباشرة بالطفل، لا تكاد تصلح إلا له، انبثت في دواوين الشعراء وكتب الأدب، دعت إلى تقويمه وتوجيهه، وهي التي تعنينا في هذه الدراسة، وسنعمل على استقصائها والكشف عنها، ما أمكن ذلك.

(١) نفسه ١٠٣.

(٢) تربية الأبناء في الأدب العربي.

(٣)

إن المتتبع لتراثنا الأدبي والدارس له، يجده اشتمل على مادة جيدة اتصلت بالطفل، وتنوعت هذه المادة بتنوع الهدف الذي أعدت من أجله، فهناك أشعار قيلت في ترقيص الأطفال ومناجاتهم، وأخرى عبرت عن حبهم والتعلق بهم، وثالثة اتصلت بالتمييز بين الولد والبنت، بالحب للولد، والبغض للبنت، ورابعة تحدثت عن الوصايا لهم، وخامسة نقلت مشاعر القوم تجاه الأبناء وهم بعيدون عنهم، فراسلوهم معبرين عن لواعج الشوق إليهم، وعما يتمنون لهم من سعادة وسؤدد، وسادسة تناولت ما يتمنى الأب أن يكون ابنه عليه، فنقل هذا المعلمه، وأوصاه أن ينشئه عليه، ويزوده به(١). وسابعة بثت لوعتهم وحسرتهم عليهم عند فقدهم(٢).

وإن هذه المادة - على تشعبها وتعدد جوانبها - اتصلت بالحديث عن الطفل، ولم تكن - على ما فيها من سهولة في التعبير، وصدق في المشاعر والأحاسيس، وقرب في تناول - أقول: لم تكن موجهة للطفل، تخاطب عقله ووجدانه، وتتفاعل مع مشاعره وأحاسيسه، وتنسجم مع قدراته الذهنية والنفسية، اللهم إلا ما اتصل بجانب من الترقيص، وأقول بجانب من الترقيص، وليس ترقيص الأطفال على إطلاقه، لأنه أخذ بعداً آخر نذ عن الغاية التي قيل من أجلها. فكان الرجال والنساء يتخذون الترقيص وسيلة للتعبير عن قضايا تتصل بالكبار وليس بالصغار.

(١) تربية الأبناء في الأدب العربي.

(٢) رثاء الأبناء في الشعر العربي.

وقد كان الأساس في ذلك سعادة الأب أو الأم بالابن حين يرقصه كل منهما. ونجد مثلاً لذلك قول فاطمة الزهراء، وهي ترقص الحسين بن علي - رضي الله عنه:

إن بني شبه النبي

ليس شبيهاً بعلي

وقول الزبير بن العوام، وهو يرقص ولده عروة - رضي الله عنهما:

أبيض من آل أبي عتيق

مبارك من ولد الصديق

ألذ كما ألتذ ربيقي

وقول أعرابي وهو يرقص ولده:

أحبه حب الشحيح ماله

قد كان ذاق الفقر ثم، ناله

إذا يريد بذله بداله

وقول آخر وهو يرقص ولده:

أعرف منه قلة النعاس

وخففة في رأسه من راسي^(١)

وغير ذلك كثير نجده مبعوثاً في كتب الأدب والأخبار، وهذا اللون، كما هو واضح، لا يدخل ضمن أدب الأطفال، وإنما في باب الحديث عنهم.

وهناك جانب مهم يتصل بالطفل، وقد أولته الدراسات الحديثة عناية خاصة،

(١) العقد الفريد ٢: ٤٣٩

تتفق مع تطور المجتمعات، ورمي المناهج التربوية فيها، أعني به أدب الأطفال، فما نصيب تراثنا الأدبي من هذا الأدب الذي أعد للطفل وليس الذي تحدث عنه.

لقد قمت بدراستين سابقتين^(١) تحدثت فيهما عن أدبنا العربي القديم الذي تكلم على الطفل، وتأتي هذه الدراسة لتنصب على الأدب العربي الذي اتصل بالطفل وقدم له في التراث نفسه.

وإنني أشعر أن هذه الدراسة وإن كانت لا تستوعب تراثنا كله - وأنى لها ذلك - إلا أنها تلج موضوعاً بكرة لا يزال في مرحلة التأسيس والاستكشاف، ويتطلب مزيداً من الدراسات التي تبين دور أدبنا القدامى في هذا الجانب المهم، خاصة وأن هناك عدداً من الباحثين أشاروا إلى افتقار أدبنا العربي القديم لمثل هذه المعالجة^(٢). وحسب هذه الدراسة أنها تنبه إلى مواطن المعالجة لأدب الأطفال، وأنها تثير عدداً من التساؤلات التي ستكون محل نقاش وحوار، قد يوصل إلى نتائج إيجابية، وينبه إلى عناصر جديدة في تراثنا الأدبي تثيره، وتظهر أصالة مبدعية.

(١) هما الدراسة الثانية والرابعة من هذا الكتاب . .

(٢) انظر مثال ذلك: أدب الاطفال للدكتور هادي نعيان الهيتي ١٠٣، وثقافة الاطفال، له، اذ قال في معرض حديثه عن أدب الاطفال في التراث العربي «ليس في تراثنا الادبي العربي - رغم ثرائه - ما يمكن ان نطلق عليه أدب أطفال. وما الف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وغيرهما من الادب الشعبي، الا أقاصيص وحكايات خاصة بالكبار تناقلها الناس لما فيها من أخيلة جامحة».

(٤)

يعد الجاحظ أبرز الأدباء وأقدمهم - فيما أعلم - الذين فصلوا القول في طبيعة الطفل، ومتطلباته، ومستواه الفكري، وما يقدم له من مادة تتناسب مع قدراته. وقد لحظناه يلتفت من بعيد إلى أن مخاطبة الطفل وتحقيق حاجياته تعد من أصعب المهام، ووصف الذين يقومون بهذه المهمة، بأنهم أكفأ الناس، وأبعدهم غوراً في النفس الإنسانية حين قال:

«ألا ترى أن أبلغ الناس لساناً، وأجودهم بياناً، وأدقهم فطنة، وأبعدهم روية، لو ناطق طفلاً، أو ناغى صبيّاً، لتوخي حكاية مقادير عقول الصبيان، والشبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بدأ من أن ينصرف عن كل ما فضله الله به، بالمعرفة الشريفة، والألفاظ الكريمة»^(١). وإن في قول الجاحظ هذا، بياناً واضحاً لطبيعة التقمص لشخصية الطفل من قبل الأديب الذي يخاطبه، وليس سهلاً أن يدرك المرء مقادير عقول الصبيان كما أشار الجاحظ، كما أنه ليس ميسراً أن ينصرف عن ما فضله الله به من المعرفة الشريفة والألفاظ الكريمة، ولكنها حاجة الطفل التي تضطره لكل هذا، وتجبره في الوقت نفسه على أن يستبدل معرفة بمعرفة، وألفاظاً بألفاظ، ذات سهولة وبساطة، وتحمل معاني وقيماً شريفة يدركها الطفل ويستوعبها.

وأدرك الجاحظ العلوم الجافة التي يجد المرء عسراً في فهمها، ويشعر بالضيق عند قراءتها. ويقف في مقدمة هذه العلوم النحو العربي، ولذلك رأيناه يدعو إلى تزويد

(١) رسائل الجاحظ ٣: ٣٧.

الطفل بالضروري منه، والابتعاد به عن خلافات النحوين وتعدد مدارسهم واتجاهاتهم، فقال:

«وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد عن ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ومذهل عما هو أرد عليه منه، من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع» (١).

إن هذه الدعوة كانت منذ عصر الجاحظ حتى يومنا هذا تشغل التربويين والمربين، وتحفزهم إلى أن يحققوا هذا التوازن الدقيق بين تمكن الطفل من النحو الذي يساعده على التعبير السليم، وبين أخذه في منأى عن آراء النحاة وخلافاتهم. وإني أجدها سانحة لأجدد الدعوة للأخذ بها، ومحاولة تحقيقها بعد أن قامت محاولات غير مرة، ولكنها لم تحقق الغرض، وإن كانت قد اقتربت منه في بعض الأحيان.

وأمر ثالث نبه إليه الجاحظ يتصل بالأسلوب الذي يتلاءم مع طبيعة الطفل، فيحبب إليه التعليم ويرغبه في المادة العلمية التي تلقى على مسامعه حين يجد سهولة في فهمها وقدرة على استيعاب مرماها، ولا تعوزه الحاجة إلى التفكير والتدبر في معانيها المستغلقة، أو عباراتها الطويلة التي تشتت ذهنه وتضيع المعنى منه، انظره يقول:

«ثم خذه بتعريف حُجج الكتاب، وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية، وحذره التكلف واستكراه العبارة، فإن أكرم ذلك كله ما كان إلهاماً للسامع، ولا يجوج إلى التأويل والتعقب

(١) رسائل الجاحظ ٣: ٣٨.

ويكون مقصوداً على معناه، ولا مقصراً عنه ولا فاضلاً عليه. فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد، معرفاً في الإكثار والتكلف»(١).

هذه هي خلاصة آراء الجاحظ في المادة التي يجب أن يزود بها الطفل، وهو بهذا كأنه يدعو إلى أن يكون هناك أدب خاص بالأطفال يختلف في مضمونه وأسلوبه وتناوله عن ذلك الأدب الذي يقدم للكبار، فهل تحقق له ذلك، أو بتعبير آخر، هل استطاع الأدباء العرب أن يقدموا مادة أدبية تتصل بالطفل وتقتصر عليه، وتدرج به حسب تدرجه في السن والنمو، ليكون نموه العقلي والذهني متناسباً مع نموه الجسمي والعضلي، أقول: هل استطاع الأدباء العرب أن يحققوا هذا، أو شيئاً منه على الأقل؟.

لقد اتخذت الخصائص التي حددها الجاحظ من قبل هادياً لي لتطبيقها على الأدب العربي القديم، فوجدتها تنطبق على مادة غزيرة جداً في التراث العربي الخالص، منذ العصر الجاهلي، وأعني بها تلك القصص والحكايات التي قيلت على لسان الحيوان في الشعر والنثر.

وقد ساعدني على الاطمئنان لهذا الرأي ما نص عليه عدد من الباحثين والنقاد المحدثين الذين أجمعوا على أن الغرض من هذه القصص كان في أساسه خلقياً تعليمياً عند كل الأمم(٢). وهو كذلك في الأدب العربي القديم، إذ كانت هذه القصص ترمي إلى «إثارة عبرة أخلاقية، أو إعطاء مثال للسلوك. وكان غرض هذا النوع من الخرافات أن يقول: إن ما يجري في عالم الإنسان من تظالم وغضب واستبداد وما إلى ذلك، موجود مثله في عالم الحيوان»(٣) ورأى الدكتور محمد

(١) رسائل الجاحظ ٣: ٣٩.

(٢) الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال ١٧٧. وأدب الأطفال لآيزابيل جان، تعريب ماري سابا ١٩٩.

(٣) ملامح يونانية في الأدب العربي ٧١.

غنيمي هلال أن هذا هو السبب الذي حدا بعبد الله بن المقفع إلى ترجمة كليلة ودمنة(١).

وقد اعتمد أسلوب القص والحوار على لسان الحيوان، مما يساعد على أن يشد المستمع إليه، وما كانت تخلو قصة من هذه القصص من بعد تعليمي أو أخلاقي يتشربه المرء بصورة غير مباشرة، فيترسخ في نفسه، بدلاً من الأسلوب الوعظي الذي ينفر المستمع، ويجعل المادة غير محببة إليه. وما أشك في أن هذه القصص كانت موجهة للطفل دون سواه في المجتمع الجاهلي بداية، والعربي الإسلامي بعد ذلك.

وقد امتدت فوائدها وقيمها لغير الأطفال، من الكبار الراشدين، لما فيها من عبرة وعظة. إلا أن فهمنا لطبيعة الإنسان العربي في الجاهلية خاصة تدعونا إلى أن نرجح أن الأطفال هم المعنيون أولاً بهذه القصص لما فيها من بساطة وتسلية وتوجيه.

ومن بعيد عبر حمزة الأصفهاني عن هذا الذي استنبطناه ووصلنا إليه، حين علل اتجاه العرب لهذا الأسلوب في حديثهم عن الحيوان وقصصه، فقال: «فحين تأملوا (أي العرب) أخلاق تلك البهائم فألفوها متفرقة في أنواعها، ثم رأوها مجتمعة في الإنسان، الذي يجمع إلى حرص الذئب حذر الغراب، وإلى تدبير الذر كسب النمل، وإلى هداية الحمام حزم الخرباء، وإلى حراسة الكراكي ختل الثعلب، إلى غير ذلك من أخلاقها، قالوا عند ضرب الأمثال بأخلاق الإنسان: إن فلاناً له جرأة الأسد، ووثوب النمر، وروغان الثعلب، وختل الفهد...»(٢).

(١) النقد الأدبي الحديث ٥٠.

(٢) الدررة الفاخرة ٦٠. وملامح يونانية في الأدب العربي ٧١.

وإن هذا الأمر لا ينسبنا أن هناك اتجاهات آخر نذبعض هذه القصص «عن دائرة العبرة الأخلاقية، وأصبح جزءاً أساسياً من الفكاهات الشعبية، أو النقد الاجتماعي والفكري والسياسي»^(١).

ولكن هذا الأمر جاء في وقت متأخر من تاريخنا الأدبي والفكري، وهو الصق بالكبار منه بالأطفال، ولذلك فإننا سنخرجه من دائرة اهتمامنا في هذه الدراسة.

وأخذاً بهذه القناعة فإن حديثنا ستركز على قصص الحيوان في الأدب العربي، شعره ونثره، وعلى ما خاطب وجدان الطفل، ورسم له المنهج، وأوحى له به من الوصايا والقصص بوصف هذين الجانبين هما الأدب الأقرب للطفل ووجدانه، وإنني سأحرص على تناول الأدب العربي الخالص غير المعرب، ولذلك لن يكون ما جاء في كتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع للعربية وما شابهه من القصص التي اشتملت على روح غير عربية، محل عنايتها لأنه يمثل أدباً مترجماً لم يكن للقريحة العربية دور فيه غير الترجمة، وان كان قد ترك صدى على القصص العربي فيما تلا عصر ابن المقفع.

(١) ملامح يونانية في الادب العربي ٨٢.

(٥)

سئل الكميت بن زيد الأسدي عن أمية بن أبي الصلت فقال: «أمية أشعر الناس، قال كما قلنا ولم نقل كما قال»^(١). وقال صاحب الأغاني: «كان أمية بن أبي الصلت قد قرأ كتاب الله عز وجل، فكان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب»^(٢).

ويفهم من كلام الكميت أن الذي قاله كما قالت الشعراء، هو السير على طريقتهم في الشعر لغة، وأسلوباً، وبناء، وموضوعاً. أما الذي قاله ولم تقله الشعراء، فيفهم جانب منه من قول أبي الفرج الأصفهاني، ويكمل هذا الجانب نظرة في شعره. ويتمثل هذا في أن شعر الشاعر تفاوت تفاوتاً كبيراً بين السهولة والرقّة، وبين الغرابة والتعقيد. وتميز شعره من الناحية الموضوعية بكثرة الإلحاح والتركيز على الزهد والتزهيد في الحياة الدنيا. وهو أمر كان مثار تساؤل وعجب في العصر الجاهلي وقبل البعثة النبوية الشريفة. كما أن شعره كان من الظواهر البارزة في الشعر الجاهلي، بإكثاره من القصص والحكايات التي تدور أحداثها على السنة العامة، وألسنة الحيوان. وإن هذه الميزة الأخيرة هي التي تعيننا في هذا المقام. ذلك أن أمية أكثر من هذه القصص، وألبسها ثوباً وعظيماً تعليمياً، وهي ألصق بالأطفال منها بغيرهم - فيما أرى.

(١) الاغاني ٤ : ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ٤ : ١٢١ .

ويقف في مقدمة أشعاره قصيدته المنسوبة له في عتاب ولده حين رأى منه ما لا يرضيه، فاهتبل أمية المناسبة، وبث ابنه مشاعر الأب تجاه ابنه مذ رأت عيناه النور، فشمله بعطفه ورعايته وفضله على نفسه في مأكله وملبسه. أما إذا ألم به مرض أو شكا من ألم، فإن الأب يقضي ليله ساهراً يتململ، حذار أن يحيط به الموت، أو تدنو منيته، وهو على يقين، أن المنية إن أقبلت لا تدفع، ولكنها عاطفة الأبوة التي تسيطر على عقله، وتجعله يتحلل من كثير من العقائد والمواقف، التي هي دأبه وديدنه، حين يتعلق الأمر بأحد أبنائه. إن هذه المشاعر والأحاسيس التي ضمنها أمية قصيدته، خير مرشد ومنبه للطفل حين يطلع عليها أو يتعلمها بما تحمله من قيم قال: (١).

غذوتك مولوداً وعلتُك يافعاً
تعلّ بما أحني عليك وتنهلُ
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت
لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأنّي أنا المطروق دونك بالذي
طُرت به دوني فعيناي تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنني
لأعلمُ أن الموت حتمٌ مؤجل
وأن ليس عن ورد المنايا مؤخرٌ
لعزّ ولا عنها لذلٌّ معجلٌ

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد مع الشاعر، وإنما يأتي بالصورة المخالفة التي

(١) أمية بن أبي الصلت - حياته وشعره ٣٥٤.
وعلتُك: انفقت عليك. تعلّ: من علّه أي سقاه ثانية، وتنهل: الشربة الأولى.

يكون عليها الابن حين ينسى عطف والده عليه، ورعايته له، وصبره على تنشئته،
فيقابل البر بالعقوق، والعطف بالجحود، والدلال والمناغاة والحب بالغلظة
والفظاظة، انظره يقول: (١)

فلما بلغت السن والغاية التي
إليها مدى ما كنت فيك أو مل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي
فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن
عليّ بهال دون مالك تبخل
زعمت بأنني قد كبرت وعبتني
ولم يمض لي في السن ستون كمل
وسميتني باسم المفتد رأيه
وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل
وإن كنت شيئاً فالتمس لك والداً
أباً لك تدعوه أباً حين تسأل
تراه معدداً للخلاف كأنه
بردٍ على أهل الصواب موكل

إن هاتين الصورتين المتقابلتين - بر الأب وعقوق الابن - اللتين جاء بهما أمية
تصلحان - في تقديري - أن تكونا مادة أدبية معدة للطفل، أو أن يستلهم منها مادة
جديدة تحمل المضمون نفسه، وتصاغ في قالب معاصر.

(١) المصدر السابق.

ويكثر الشعر الوعظي والتعليمي الذي أعده أقرب للطفل من سواه، في العصر الجاهلي خاصة، ومنه ما عبر عنه أمية بن أبي الصلت، حين صاغ قصة كانت ترددها العرب في الجاهلية حول القنزعة التي على رأس الهدهد، فقالوا: إنها ثواب من الله - سبحانه وتعالى - على ما كان من بر الهدهد بأمه، لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه. وحين أرادوا تعليل رائحة الهدهد المنتنة، قالوا: إن هذا بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونة في رأسه. فالتفت الشاعر إلى هذا، وإلى المرمى الأخلاقي والتربوي الذي تشي به هذه القصة، ورأى أنها بحاجة إلى أن تصب في قالب فني جديد يسهل تناوله، ويقوى تأثيره في النشء خاصة، فجاءنا بهذه الأبيات التي تحكي القصة نفسها، ولكن شتان بين حكايتها نثراً، وبين إنشادها شعراً.

قال:

غيم وظلماء وغيث سحابة
 أزمان كُفُن واسترداد الهدهد
 يبغني القرار لامه ليُجَنِّها
 فبنى عليها في قفاه يُمَهِّد
 مهذاً وطيباً فاستقلَّ بحمله
 في الطير يحملها ولا يتأود
 من أمه يجرى بصالح حملها
 ولدأ وكلف ظهره ما يعقد
 فتراه يدلح ما مشى بجنأزة
 فيها وما اختلف الجديد المسند(١).

وما انفك أمية بن أبي الصلت يتخذ من أمثال هذه القصص على لسان الحيوان

(١) أمية بن أبي الصلت - حياته وشعره ١٩٤.

استراد: رجع الى امر الله ونبيه . يجنها: يخفيها، اي يدفنها . يتأود: يتأيل . ما يعقد: اي ما يجعله معوجاً . يدلح: يعاني من حمله ويتأيل . والجديد او الجديدان: الليل والنهار ولعله يريد ما قدم العهد بالخط المسند الجديد

والطير شواهد على إمكانية صياغتها صياغة شعرية، ليسهل تناولها، ولتكون نماذج للمكافأة على الجهد، والتسلية للنشء خاصة. وها هو يتخذ قصة أخرى وسيلة لنظم قصيدة تتصل بالحمامة، وكيف حصلت على الطوق الذي يزين عنقها. وأن ذلك كان مكافأة لها على بشارتها لنوح - عليه السلام - وهو في سفينته هو ومن معه من المؤمنين، وقد غمر الطوفان اليابسة. وبعد أن غرق الكافرون، بقى الطوفان على حاله. فطاررت الحمامة مستكشفة، حتى إذا ما رأت اليابسة من بعد عادت لتبشر نوح ومن معه بهذا، وكان من حقها أن تجازى نظير ذلك، فطلبت الطوق الذي هو عليها، وكان لها ما أرادت. تنبه أمية إلى هذه القصة، وما تركه من إيجاءات وظلال، تمتع الأطفال، وترسخ في نفوسهم قيماً فاضلة، فقال:

وما كان أصحاب الحمامة خيفة

غداة غدت منهم تضم الخوافيا

رسولاً لهم، والله يحكم سره

يبين لهم هل برنس الترب باديا

فجاءت بقطف آية مستبينة

فأصبح منها موضع الطين جاديا

على خطمها واستوهبت ثم طوقها

وقالت الا لا تجعل الطوق حاليا

ولا ذهباً إني أخاف نبالهم

يخالونه مالي وليس بماليا

وزدني لطرف العين منك بنعمة

وأرث إذا مات طوقي حماميا

وزدني علي طوقي من الحلي زينة

تصيب اذا اتبعت طوقي خضابيا

يكون لأولادي جمالاً وزينة

وعنوان زيني زينة من ترايبيا(١)

ولم يكن أمية بن أبي الصلت بدعاً في هذا الباب، وإنما وجدنا غير واحد من الشعراء العرب يسرون على النهج نفسه، بأن صاغوا القصص والحكايات في أبيات شعرية، فيها عبرة وعظة وقيم يتشربها الطفل، لاتفاقها مع تفكيره ومستواه. ومن هذه النماذج، ما صوره أحد الشعراء على لسان الطير، مجسداً روعة العفو عند المقدرة، وعطف القوي على الضعيف، فحكى قصة صقر انقض على عصفور صغير وأمسك به، فاستعطفه العصفور ليفكه لأنه لن يغنيه شيئاً، وكان له ما أراد، كرمياً من الصقر، وتلبية لاستعطاف العصفور فقال:

زعموا بأن الصقر صادف مرة
عصفور بر ساقه المقدور
فتكلم العصفور تحت جناحه
والصقر منقض عليه يطير
ما كنت خاميزاً لمثلك لقمة
ولئن شويت فإنني لحقير
فتهاون الصقر المدلّ بنفسه
كرمياً، وأفلت ذلك العصفور(١)

ويعد أبو الشمقمق من الشعراء الشعبيين الذين ضمنوا شعرهم كثيراً من النوادر

(١) نفسه ٣١٩.

البرنس: الثوب. استعارة لوجه الارض. القطف: كل ما يقطع من الثمار. الجادي: الزعفران. خطمها: منقارها. خضابها: الخضاب ما يختضب به كالحناء. من ترايبيا: اي من التراب الذي حملته بمنقاري.

(٢) التمثيل والمحاضرة ٣٦٧.

والقصص ذات البعد الاجتماعي، تشخيصاً ونقداً، وحرص على أن ينقل كثيراً من هذه القصص على لسان الحيوان. فساعد هذا على أن يتردد شعره على الألسنة، وأن يكون محبباً لفتتين من المجتمع، أولادهما: فئة العامة من الطبقة البسيطة التي تشكو الفاقة وسوء الحال. وثانيهما: فئة الأطفال، لما لهذا النوع من الشعر من سهولة في اللفظ، وقصر في الوزن وطرافة في تناول، وقد زخر شعر الشاعر بهذه النماذج والقصص، وها نحن نمثل بواحدة منها، وهي تحكي قصة فتران نزلت بيته وهو خلو من الطعام، فباتت تسرح وتمرح فيه، باحثة عما يسد رمقها، والشاعر منصرف عنها لا يطردها أو يلاحقها، لأنه على يقين من أنها لن تجد شيئاً تأكله، أو أمراً تدمره، انظره يقول:

نـزك الفـأرُ ببـيتي
 رفقة من بعد رفقه
 حلقاً بعد قطار
 نزلوا بالبـيت صفقه
 ابن عـرس رأس بيـتي
 صاعداً في رأس نبقه
 سيفه سيف حديد
 شقه من ضلع سلقه
 جاءنا يطرق بالليل
 ل فـدق البـاب دقه
 دخل البـيت جهاراً
 لم يدع في البـيت فلقه (١)

(١) الحيوان ٥ : ٢٦٧.
 حديد: حاد. والسلقة: الاتنى من الذئب. والفلقة: الكسرة من الخبز.

إن هذا اللون من الشعر يجمع بين بعدي التسلية والترويح، والواقع الاجتماعي السيء الذي كان يعانيه أبوالشمقمق وأمثاله من الفئات البائسة في المجتمع، ولذلك فإنه يعد من الأدب الهادف الطريف الذي يزود به الأطفال ليتشربوا قيمه، كما يزود به الكبار ليتحسسوا أهدافه ومراميه.

وأخذت الحكاية على لسان الحيوان، طابع الطرافة المحببة التي تأسر الأطفال، وتشدهم لسماعها وإنشادها، فيما بينهم، وبين يدي أولياء أمورهم. ونجد مصداقاً لهذا، الخبر الذي ذكره الدميري في حياة الحيوان، وهو يتحدث عن طائر الزاغ، وهو حديث خرافي، لكنه صيغ بصورة فنية جميلة، قال: قال «أبو سعيد السيرا في عن بعض الكتاب أنه قال: دخلت على يحيى بن أكثم القاضي وإلى جانبه قمطر فيه طائر على صورة الزاغ برأس كراس الإنسان وعلى صدره وظهره سلعتان. فقلت له: ما هذا أصلحك الله، فقال لي: سله عنه. فقلت: ما أنت؟ فانتفض وأنشد بلسان فصيح وجعل يقول:

أنا الزاغ أبو عجووة
أنا ابن الليث واللبووة
أحب الراح والريحيا
ن والنشووة والقهووة
ولي أشياء تستظـر
ف يوم العرس والدعوة
فمنها سلعة في الظهـ
ر لا تسترها الفرووة
وأما السلعة الأخرى
فلو كانت لها عرووة
لما شك جميع النـا
س فيها أنها ركوة

ثم صاح ومدّ صوته: زاغ زاغ، وانطرح في القمطر. فقلت: أيها القاضي، هو عاشق؟ قال: هذا ما لا علم لي به، حُمل إلى أمير المؤمنين من كتاب مختم فيه ذكر حاله»(١)

إن حديث الزاغ هذا يشي بما يردده الأطفال في كل زمان ومكان من محاكاة للطير، ورغبة في تقليده، الأمر الذي جعل القدماء يلتفتون إلى هذا الجانب، ويحرصون على النظم بأسلوبه.

(١) حياة الحيوان ٢: ٢ - ٣.

القمطر - بكسر القاف وفتح الميم وسكون الطاء: ماتصان فيه الكتب.
والسلعة: ورم غليظ غير ملتزم باللحم، يتحرك عند تحريكه، وله غلاف.
الركوة: اناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٥)

وكان عمرو بن كلثوم - الشاعر الجاهلي المعروف - من المعمرين، إذ قيل إن عمره بلغ خمسين ومائة عام. ولا شك في أن هذه السن أكسبته خبرة ودرية في أمور الحياة، جعلته بصيراً بها، خاصة وهو الرجل المغامر، المعتز بنفسه وقبيلته، إذ رفض الضيم، وتحدى الملك عمرو بن هند وعرض به حينما أراد أن ينال أمه بالأذى والهوان فقال معلقته المشهورة، ومنها بيته الذي لا يزال يتردد على الألسنة:

إذا بلغ الفطام لنا صبي
نخر له الجبابر صاغرينا

شاعرنا هذا جمع بنيه، عندما حضرته الوفاة، وأراد أن يوصيهم بخلاصة تجاربه في هذه الرحلة الطويلة مع الحياة، وإذا بها سبع عنده. أولها أن يكف أبناءه عن تعيير الآخرين، وذلك أنه وجد نفسه لم يعير أحداً بشيء إلا عيّر به، حقاً كان أم باطلاً. وثانيها الإحسان إلى الجار. وثالثها منع ضيم الغريب. ورابعها حسن الاستماع للآخرين والإيجاز. في الكلام معهم. وخامسها الشجاعة والاقدام. وسادسها التروي عند الغضب. وسابعها الزواج من خارج حيهم. انظره يخاطبهم بقوله «يا بني، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي، ولا بد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت. وإني والله، ما عيرت أحداً بشيء إلا عيرت بمثله، إن كان حقاً فحقاً، وإن كان باطلاً فباطلاً، ومن سبَّ سُبِّ، فكفوا عن الشتم، فإنه أسلم لكم. وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم. وامنعوا من ضيم الغريب، فرب رجل خير

من ألف، وردّ خير من خلف، وإذا حُدثتم فعوا، وإذا حُدثتم فأوجزوا، فإن مع الاكثار تكون الأهدار. وأشجع القوم العطوف بعد الكر، كما أن أكرم المنايا القتل. ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا من عوتب لم يعتب. ومن الناس من لا يرجى خيره، ولا يخاف شره. فبكؤه خير من دره. وعقوفه خير من بره، ولا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض»(١).

وكان ذو الإصبع العدواني من سادات العرب في الجاهلية، وكان شاعراً مقدماً، صرف شعره للفخر والحماسة والحكمة. وغلبت على شعره السهولة والرقّة، على الرغم من كونه من قدماء شعراء الجاهلية. وهو من أصحاب الوصايا المشهورة في النثر الجاهلي. وأبرز وصاياه وصيته لابنه أسيد الذي أرادته سيداً من بعده، يسير على خطاه، ويحفظ سيرته التي سارها في قومه: سيادة، وشجاعة، وحلماً. ولذلك لحظناه يقول له: «يا بني إن أباك قدفني وهو حيٌّ، وعاش حتى ستم العيش، وإني موصيك بها إن حفظته، بلغت في قومك ما بلغت. فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يخبوك. وتواضع لهم يرفعوك. وأبسط وجهك لهم يطيعوك. ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك. وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح بها لك. واحم حريمك. واعزز جارك. وأعن من استعان بك. وأكرم ضيفك. وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أجلاً لا يعدوك. وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً. فبذلك يتم سؤددك». هذه هي وصية ذي الإصبع العدواني التي تناقلتها كتب الأدب، وهي وصية لا تختلف في جوهرها عن كثير من الوصايا التي عُني بها سادات العرب لأبنائهم. لكن ذا الإصبع لا يتوقف عند هذا الحد، وكأنه رأى أن هذه الوصية لا يتحقق لها النجاح إلا إذا أعاد

(١) الأغانى ١١: ٥٣ - ٥٤ والاعتاب: رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العاتب. وأصل البكاء: قلة اللبن وانقطاعه، والمعنى المراد، فمنعه خير من عطائه.

صياغتها في قالب فني آخر هو الشعر، وبذلك يتحقق لها أمران: أحدهما سهولة حفظها، و الثاني - وهو مترتب على الأول - أن تكون دستوراً للناشئة في كل زمان ومكان، يقرءونها، ويحفظونها، وتكون هادياً لهم في حياتهم المقبلة. أعاد ذو الإصبع صياغة وصيته لابنه شعراً، وإذا بها لوحة فنية جميلة، محببة للنفس، سهلة، تمتلىء بالقيم والمثل، وتجمع بين المتناقضات التي يظهر بها سمات القيم السامية، وخصائص السلوك المشين. فالأب يدعو ابنه إلى أن ينفق ماله في الطرق الصحيحة التي يجني بها الخير للآخرين والذكر الطيب له، ويدعوه إلى أن يختار صحبه من الكرام ذوي السيرة الحميدة والسلوك الحسن، وأن يبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس حتى وإن أدى ذلك إلى أن يقدم حياته ثمناً لذلك. وبالمقابل فإنه دعاه إلى أن لا يتهاون مع اللثام أو أن يلين جانبه لهم لأنهم لا يستحقون هذا من جهة، ولأنه لن يأمن غدرهم من جهة ثانية. وحثه على أن لا يلتفت للجبناء والبخلاء، الذين تطول حياتهم ويكثر ما لهم، لأنه لا قيمة للحياة بلا كرامة ولا قيمة للمال إن لم يوظف لإنفاقه في طرق الخير، وتقديمه معونة للمحتاج. ولا ينسى ذو الإصبع العدواني أن يوجه ابنه إلى أهله وعشيرته بتقوية روابط المحبة بينه وبينهم، وأن لا ينساهم وإن بعدت المسافات، لأنهم أهله الذين يشدون أزره، ويحفظون وده. هذه هي المعاني التي اشتملت عليها القصيدة، ولا نجد كبير فرق بينها وبين معاني وصيته، ولكن شتان بين الاثنتين من حيث الوقع على النفس، والتأثير في النشء فالوصية تحمل الطابع الوعظي الإرشادي، أما القصيدة فإنها تحمل صورة الفن وإن أثرها يكمن في الاستيعاب والاستزادة في القراءة، لأنها تدعو للتأمل والتفكير من قبل المتلقي، وهذا بدوره يقود إلى تحقيق الغرض الذي أعدت من أجله، ولا أخالني أبعد عن الصواب إن قلت إن هذه القصيدة تعد من صميم أدب الأطفال الذي يقدم لأطفالنا اليوم كما قدمت لأطفال الجاهلية.

قال ذو الإصبع العدواني:

أأسيد إن مالا ملكتَ
فسر به سيراً جميلاً
آخ الكرام إن استطعتَ
ت إلى إخوانهم سبباً
واشرب بكأسهم وإن
شربوا به السم الثملاً
أهن اللئام ولا تكن
لإخوانهم جلاً ذللاً
إن الكرام إذا توا
خيهم وجدت لهم فضلاً
ودع الذي يعد العشب
رة أن يسيل ولن يسبلاً
أبني إن المال لا
يبكي إذا فقد البخيلاً
أأسيد إن أزمعت من
بلد إلى بلد رحبلاً
فاحفظ وإن شحط المزاً
ر أخاك أخيك أو الزمبلاً
واركب بنفسك إن همم
ت بها الحزونة والسهولاً
وصل الكرام وكن لمن
ترجو موذنه وصلوا
ودع التواني في الأمو
ر وكن لها سلساً ذلولاً

وابسط يمينك بالندى
 وامدد لها باعاطويلا
 وابسط يديك بما ملك
 ت وشيد الحسب الدخيلا
 وابذل لضيفك ذات رحا
 لك مكرما حتى يزولا
 واحلل على الإيفاع للعا
 فين واجتنب المسيلا
 واذا القروم تخاططرت
 يوما وأرعدت الخصيلا
 فاهصر كهصر الليث خضاً
 ب من فريسته التليلا
 وانزل إلى الهيججا إذا
 أبطالها كرهوا النزولا
 واذا دعيت إلى المهم
 م فكن لفادحه حمولا(١)

إنها روح دعوة عمر بن كلثوم، يضاف إليها دعوة ذي الاصبع العدواني لابنه، إلى أن يكون سيداً، وما تتطلبه هذه الدعوة من مهام. وأية مهام؟ إنها المهام التي تكلف صاحبها جهداً، وبذلاً لا يتحملة إلا الأقلون، وتتطلب منه جلدًا وحنكة، قلما تمتع بها غيره. وهي مهام السيد الذي يذوب في الذين يسودهم، أو قل يذوب في سبيلهم وينفق ماله لتوفر لهم سبل رخائهم وترفهم. دعوة ليس فيها مكر

(١) الاغاني ٣: ٩٨ - ٩٩

والسم الثميل: المنقع الذي انقع اياما حتى اختمر. والخزونة: غلاظ الارض.
 والقروم: السادة العظام. والخصيل، مفردها الخصيلة: كل لحمة فيها عصب.
 والتليل: المصروع.

ودهاء، بقدر ما فيها من حكمة ووفاء.

وهناك مثال آخر لهذا النهج الذي رسمه الآباء لأبنائهم، من العصر الأموي، جسده عبدالله بن شداد لابنه، ولكل الأطفال، حين حضرته الوفاة. وقد زواج فيه ابن شداد بين الشعر والنثر. بث ابنه خبراته وتجاربه، وترجمها شعراً انتقاه من التراث الشعري الذي يعكس هذه التجارب، وكأنه رأى في النثر قصوراً، بحيث لا يرقى للدرجة التي يتمتع بها الشعر، لسهولة حفظه، ولأن الأمر كان يقتصر على الرواية حسب. حدث ابن شداد ابنه عن الموت، وأنه لا مفر منه. وعن الإيمان بوصفه خير زاد وعتاد يزود المرء به نفسه. ثم تكلم على المعروف وأثره في النفوس. وانتقل إلى الكرم ومميزاته، والبخل وآفاته. وعرج على كرم النفس وصونها عن الدنيا. وأشار إلى الحسد وما يخلفه من حزازات وإحن ووصل به إلى الحديث عن العشرة، والفرق بين الرفيق المخلص والمؤتمن، وبين رفيق السوء. وشخص له الحب وطبيعته وحثه على ضرورة الاقتصاد فيه، والبغض وأثره، ودعاه إلى عدم الإسراف فيه. وختم حديثه بدعوته إلى صحبة الأخيار وصدق الحديث، ونهاه عن صحبة الأشرار لأنها عار.

هذه ثمان قضايا اشتملت عليها وصية عبدالله بن شداد لابنه، وهي منهج كامل للأبناء والناشئة تصلح في كل زمان ومكان. وقد ضمنه ابن شداد ثمانية نصوص شعرية لثمانية من شعراء الجاهلية والإسلام. واللافت للنظر، أن هذه الأشعار اتسمت جميعها بالبرقة والسهولة، وابتعدت عن الحوشي من اللفظ، والمستغلق في التعبير، مما جعلها مناسبة للمقام الذي قيلت فيه، وللمستوى الثقافي للمتلقى الذي تخاطبه، وهو جيل الأطفال الذين لم تكتمل شخصيتهم الثقافية والفكرية، وكانوا بحاجة إلى هذا القدر من التعبير الذي خاطبهم به عبدالله بن شداد، فقال: «يا بني، إني أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه

ينزع، وإني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية في السر والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد، وكن كما قال الخطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً
وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب
ولكن الذي يمضي بعيد

ثم قال: أي بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه، واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن - أي بني - كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة
عليك إذا ما جاء للعرف طالب
وأن أمراً لا يرتجى الخير عنده
يكن هينا ثقلاً على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالباً
فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التوا هذا الزمان بأهله
وبينهم فيه تكون النوائب.

ثم قال: أي بني، كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع

الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاقُ في وجه البّر، وإن أحمد بخل الحرّ، الضنُّ بمكتوم السر، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجود بمكثون التلاد وانني
بسرّك عمّن سالني لضمين
إذا جاوز الإثنين سرفاناه
بنث وتكثير الحديث قمين
وعندي له يوما إذا ما ائتمنتني
مكمان بسوداء الفؤاد مكين

ثم قال: أي بني، وإن غلبت يوما على المال، فلا تدع الحيلة على حال فان الكريم يمتال، والدني عيال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالا، أقل ما تكون في الباطن مالا، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنفاق نعمته، وكن كما قال ابن خذاق العبدي:

وجدت أبي قد أورثه أبوه
خلالا قد تعد من المعالي
فأكرم ما تكون عليّ نفسي
إذا ما قلّ في الأزمات مالي
فتحسن سيرتي وأصون عرضي
ويجمل عند أهل الرأي حالي
وإن نلت الغنى لم أغل فيه
ولم أخصص بجفوتي الموالي

ثم قال: أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشواهد، فإنك إن أمضيتها حياها، رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل،

هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتي شتم ابن عمي
وما أنا مخلف من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جرم
سمعت فقلت مرّي فانفذي
فعابوها عليّ ولم تسؤني
ولم يعرق لها يوماً جبيني
وذو اللونين يلقياني طليقاً
وليس إذا تغيب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحته عنه
محافظة على حسبي وديني

ثم قال: أي بني، لا تواخ امرأ حتى تعاشره وتتفقد موارده ومصادره، فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة، فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة، وكن كما قال المتنعي الكندي:

أبلُّ الرجال إذا أردت إخوانهم
وتوسمن فعالمهم وتفقد
فإذا ظفرت بذئ اللبابة والتقى
فبه اليدين قرير عين فاشدد
وإذا رأيت ولا محالة زلّة
فعل أخيك بفضلك حلمك فاردد

ثم قال: أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان يقال: أحب حبيك هونا ما، عسى أن يكون بغضك يوماً ما، وأبغض بغضك هونا ما، عسى أن يكون حبيك يوماً ما، وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري:

وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا
فإنك راء ما حبيت وسامع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت راجع

وعليك بصحبة الأخيار وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار،
وكن كما قال الشاعر:

اصحب الأخيار وارغب فيهم
رب من صاحبتة مثل الحرب
ودع الناس فلا تشتمهم
وإذا شاتمتم فاشتمم ذا حسب
إن من شاتم وغدا كالذي
يشترى الصفر بأعيان الذهب
واصدق الناس إذا حدثتهم
ودع الناس فمن شاء كذب (١)

إن هذه الوصايا أخذت بعداً شمولياً، وصدرت عن أناس خبروا الحياة،
وحققوا مواقع مرموقة فيها، فكانت جديرة بأن تكون مثالا يحتذى، لما اشتملت
عليه من قيم فاضلة، ومناهج للسلوك، وأسلوب رائع في العرض، صلحت في
عصرها، وتصلح في كل عصر - هي بنصها، أو بمضمونها بعد صياغتها بما يلائم
عصرنا الحاضر، وأي عصر قابل. إنها أدب أطفال، قدم لهم، وخاطب ضمائرهم.

(١) الآمالي ٢: ٢٠٢ - ٢٠٤.

ملحقان

الملحق الأول

نماذج من قصص الحيوان
في كتب التراث قريية
من روح الأطفال

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(في بيته يؤتى الحكم)

قولهم في بيته يؤتى الحكم، هذا شيء يتمثل به العرب على المزح ولا أصل له، زعموا أن الأرنب وجدت ثمرة فاختلسها الثعلب منها فأكلها، فانطلقت به إلى الضب يختصمان إليه. فقالت الأرنب: يا أبا الحسيل. فقال: سمعا دعوت. قالت: أتيناك لنحتكم إليك فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب مني فأكلها. قال: لنفسه بنى الخير. قالت: فلطمته! قال: بحقك أخذت. قالت فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فأقض بيننا. قال: قد حكمت.

الفاخر ٧٦

(الضبع والظبية)

قالوا: رأيت الضبع ظبية على حمار فقالت: أردفني. فأردفتها. فقالت: ما أفره حمارك! ثم سارت يسيرا فقالت: ما أفره حمارنا! فقالت الظبية: انزلي قبل أن تقولي ما أفره حماري!

الأمثال ٤٧

(الأفعى والطائر)

زعموا أن وصعا - طائراً أصغر من العصفور - كان يجاور حية رقشاء، فكان ذلك إذا فرّخ سرت الحية لأكل فراخه في الظلام، في عام بعد عام. والله يجازي على الحيف والأنعام، فقضى - سبحانه - بتلك الحية أن كفت في آخر عمرها، فلزمت الوجار (الجحر) لا تذعر النائي ولا الجار. فقال أجاؤه: ألا تأتي الظالمة مظهراً للشهات؟ قال: لو كنت، وهي المبصرة أقدر على ضمير، لكنك اليها وشيك السير، فأما إذ كفتنيها الاقضية فإن عيني مغضية.

رسالة الصاهل والشاحج ٤٨ - ٤٩

(الأسد الأعمى المتكبر)

عمي أسد من عوام الأسد، فاضرّ ذلك به، فقبل له: لوجئت ملك الأسد فسألته أن يصلك لكان ذلك رأياً لك. فذهب إليه وسرد قصته عليه، فقال لخازنه: يجرى عليه في كل يوم عضوا مؤربا (مقطوعاً). فقال الأسد الذي التمس الجراية: اصلح الله الملك، إني كنت اصطاد الوعل أو البقرة الأهلية فلا أكاد ادرك بها الشبع، فأين مني هذا العضو يقع؟ فقال الملك من اتكل على كسب غيره وجب أن يقتنع بقليل خيره. قال الأسد: صدق الملك، ولا حاجة لي بهذا العضو. فقال الملك: فما تصنع؟ قال: اجتزي بنبت السحاب، ولا افتقر إلى الملك والأصحاب.

رسالة الصاهل والشاحح ٤٩

(الغراب والحمامة)

زعموا أن غراباً ألف مطبخاً لبعض الملوك، فأخذ من أطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئاً. فظنوا أن الغراب أخذه لقلّة وفائه ولؤم جوهره، فطردوه عن مطبخهم. وقالوا: ما نرجو من هذا الغراب، وهو من الطيور التي تعاف ويتطير منها. فأفشى ذلك الغراب أمره إلى حمامة قد كان بينهما معرفة، وفزع إلى رأيها. وأخبرها ما كان فيه من نعيم المأكل والمشرب، فقالت له الحمامة: انطلق بي حتى تريني هذا المطبخ، فانطلق حتى أتى سطح المطبخ. فقالت الحمامة: أرى هذا البيت ليس فيه موضع مدخل، فاحفر لي بمنقارك قدر ما أدخل فيه فان منقاري يضعف عن ذلك. فحفر الغراب في سقف البيت بمنقاره، حتى دخلت فيه الحمامة، وتوسطت في البيت، فأعجبهم حسن خلقها وصفاء لونها. فجعل لها خازن المطبخ موضعاً تأوى إليه فلبثت في ذلك البيت قريرة العين. فناداها الغراب: ما هكذا قدرت فيك! فقالت الحمامة: لو وفيت لك حل بي غدرك، وإن القوم عرفوا وفائي وحسن جواربي وعرفوا غدرك وقلّة وفائك ونكث عهدك!

المحاسن والاضداد ١٦٧

(صائد وعصفور)

كان صائد يصيد العصافير في يوم بارد، فكان يذبحها والدموع تسيل، فقال
عصفور لصاحبه: لا بأس عليك من الرجل، أما تراه يبكي؟ فقال له الآخر: لا
تنظر إلى دموعه، بل إلى ما تصنع يداه..

الحيوان ٥ : ٢٣٨

(الطيور والثعلب)

قالوا: أو لم طائر وليمة، فأرسل يدعو بعض أخوانه، فغلظ بعض رسله، فجاء
إلى الثعلب فقال: أخوك يدعوك. فقال: السمع والطاعة، فلما رجع أخبر الطائر،
فاضطربت الطيور وقالوا: أهلكتنا وعرضتنا للحتف. فقالت القنبرة: أنا أصرفه
عنكم بحيلة. فمضت، فقالت: أخوك يقرأ عليك السلام ويقول لك: الوليمة يوم
الإثنين، فأين تحب أن يكون مجلسك، مع الكلاب السلوقية، أو مع الكلاب
الكردية؟ فتجرعها الثعلب وقال: ابليخي أخي السلام، وقولي له: ابو سرور يقرئك
السلام، ولكن قد تقدم لي نذر منذ دهر بصوم الإثنين والخميس.

البصائر والذخائر ١ : ٢٨٢

(القنبرة والصيد)

قال الشعبي: أخبرت أن رجلا صاد قنبرة فلما صارت في يده قالت: ما تريد أن
تصنع بي؟ قال: أذبحك! وأكلك. قالت: ما أشفي من مرض ولا أشبع من جوع،
ولكن أعلمك ثلاث خصال خير لك من أكلي. أما واحدة: أعلمك وأنا في يدك!
والثانية: على الشجرة. والثالثة على الجبل. فقال: هات الواحدة. قالت لا تتلهفن
على ما فاتك. قال فلما صارت على الشجرة، قال: هات الثانية! قالت له: لا
تصدق بها لا يكون أن يكون، يا شقي لو ذبحتني أخرجت من حوصلتي درتين في
كل واحدة عشرون مثقالاً. قال: فعض على شفتيه وتلهف. فلما صارت على الجبل

قال لها: هات الثالثة. قالت: أنت نسيت اثنتين فيكف أحدثك بالثالثة. ألم أقل لك لا تتلهفن على ما فاتك، ولا تصدق بما لا يكون أن يكون؟ أنا وريشي ولحمي لا أكون عشرين مثقالاً. قال: وطارت فذهبت.

الأذكياء ٢٤١ - ٢٤٢

(الأسد المريض والذئب والثعلب)

قال الشعبي: مرض الأسد فعاده السباع ماخلا الثعلب. فقال الذئب: أيها الملك، مرضت فعادك السباع إلا الثعلب. قال: فاذا حضر فاعلمني. فبلغ ذلك الثعلب، فجاء. فقال له الأسد: يا أبا الحصين مرضت فعادني السباع كلهم ولم تعدي أنت. قال: بلغني مرض الملك فكنت في طلب الدواء له. قال الأسد: فأني شيء أصبت؟ قال: قالوا لي خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تخرج. فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب، فانسل الثعلب وخرج فقعد على الطريق، فمر به الذئب والدم يسيل عليه. فقال له الثعلب: يا صاحب الخف الأحمر! إذا قعدت بعد هذا عند سلطان، فانظر ما يخرج من رأسك!

المستطرف ٢: ١١٩

(الفأرة والقطة)

قال أبو سليمان (المثل) يدك عني وأنا في عافية. وأصل هذا فيما يتكلم به الناس على ألسنة البهائم: أن فأرة سقطت من السقف، فظفرت الهرة بحملها تقول: بسم الله عليك! فقالت الفأرة: يدك عني! وأنا في عافية!

الأذكياء ٢٤٥

(الأسد والذئب والثعلب يخرجون للصيد)

قال: حدثنا المعافى بن زكريا، قال: زعموا أن أسداً وذئباً وثعلباً اصطحبوا فخرجوا يتصيدون، فصادوا حمرا وظبيا وأرنبا. فقال الأسد للذئب: أقسم بيننا صيدنا. قال الأمر أبين من ذلك: الحمار لك، والأرنب لأبي معاوية والظبي لي!

قال: فخبطه الأسد فأندر رأسه. ثم أقبل على الثعلب وقال: قاتله الله ما أجهله بالقسمة. ثم قال: هات أنت. قال الثعلب: يا أبا الحارث الأمر أوضح من ذلك. الحمار لغذائك، والظبي لعشائك، وتخلل الأرنب فيما بين ذلك! قال الأسد: ويحك ما اقضاك من علمك هذه القضية؟ قال: رأس الذئب النادر بين عيني.

الأذكياء ٢٤٣

(الفخ والعصفور)

حدثنا عثمان بن عطاء أن أبيه قال: نصب رجل من بني إسرائيل فخاً من ناحية الطريق، فجاء عصفور فسقط ثم انطلق إلى الفخ. فقال للفخ: مالي أراك متباعداً عن الطريق؟ قال: أعتزل شرور الناس. قال: فما لي أراك ناحل الجسم؟ قال: أنحلتنى العبادة! قال: فما هذا الحبل على عطفك؟ قال: المسوح والشعر، لبس الرهبان والزهاد. قال: فما هذه العصا في يدك؟ قال: أتوكأ عليها. قال: فما هذه الحبة في فيك؟ قال: رصدتها لابن السبيل ومحتاج. قال: فأنا ابن السبيل ومحتاج. قال: فدونك! قال: فوضع العصفور رأسه في الفخ فأخذ بعنقه. فقال العصفور: سيق سيق!! ثم قال: لاغرني بعدك قاريء مرائي مرة أخرى

الأذكياء ٢٤٢

(مثل فأرة البيت وفأرة الصحراء)

قيل إن فأرة البيت رأت فأرة الصحراء في شدة ومحنة فقالت لها: ما تصنعين هنا؟ اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب. فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هياً لها الرصد: لبنة تحتها شحمة. فاقتمحت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها. فهربت الفأرة البرية وهزّت رأسها متعجبة وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً. إن العافية والفقير أحب إليّ من غنى يكون فيه الموت. ثم فرّت إلى البرية.

المستطرف ٢: ٣

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الملحق الثاني

مصادر من التراث الأدبي
عند العرب
ذات صلة بأدب الأطفال

رَفَعُ

جيد الرحمن البخاري
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

- ١ - ألف ليلة وليلة، دار التوفيق، بيروت ١٩٧٨.
- ٢ - الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي (توفي ٣٨٠ هـ)، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ٣ - الامثال، مؤرج بن عمر السدوسي (توفي ١٩٨ هـ)، تحقيق احمد الضبيب الرياض، ١٩٧٠ م.
- ٤ - أمثال العرب، المفضل بن محمد الضبي (توفي ١٦٨ هـ) نشره د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣ م.
- ٥ - البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقيق ابراهيم الكيلاني، دمشق ١٩٦٤.
- ٦ - تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار. محمد بن عبدالله بن محمد ابن بطوطة (توفي ٧٠٣ هـ) المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٨٣ م.
- ٧ - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني (توفي ٤٤٠ هـ)، عالم الكتب، بيروت ١٩٧٧ م.
- ٨ - التمثيل والمحاضرة، أبو منصور عبدالملك بن محمد، أبو اسامعيل الثعالبي (توفي ٤٢٩ هـ)، تحقيق عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.
- ٩ - حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين محمد بن موسى الدميري (توفي ٨٠٨ هـ)، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٦٧ هـ.
- ١٠ - الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (توفي ٢٥٠ هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨ - ١٩٤٥ م.
- ١١ - الدرر الفاخرة في الأمثال السائرة، حمزة بن الحسن الأصفهاني (توفي ٣٥١ هـ)، تحقيق عبدالمجيد قطامش، دار المعارف بمصر ١٩٧١ م.
- ١٢ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، محمود بن عمر الزمخشري (توفي ٥٣٨ هـ)، تحقيق د. سليم النعيمي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٦ م.
- ١٣ - رسالة الصاهل والشاحج، أبو العلاء المعري (توفي ٤٤٩ هـ)، تحقيق د.

- عائشة عبدالرحمن، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م.
- ١٤ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا بن محمد بن محمود القزويني (توفي ٦٨٢ هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨ م.
- ١٥ - العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبدربه (توفي ٣٢٨ هـ)، تحقيق د. احمد أمين وآخرين، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م.
- ١٦ - عيون الأخبار، محمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (توفي ٢٧٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- ١٧ - الفاخر، المفضل بن سلمة بن عاصم (توفي ٢٩٠هـ)، تحقيق عبدالعليم الطحاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤ م.
- ١٨ - كتاب أخبار الحمقى والمغفلين، ابوالفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (توفي ٥٩٧ هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت. د.ت.
- ١٩ - كتاب الأذكىاء، ابوالفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، دار الآفاق الجديدة، بيروت. د.ت.
- ٢٠ - كليلة ودمنة، ترجمة عبدالله بن المقفع (توفي ١٤٢ هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠ م.
- ٢١ - مجمع الأمثال، احمد بن محمد الميداني (توفي ٥١٨ هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥ م.
- ٢٢ - المحاسن والأضداد، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، بيروت ١٩٦٩ م.
- ٢٣ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي (توفي ٣٤٦ هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٤٨.
- ٢٤ - المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (توفي ٨٥٠ هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٧ م.
- ٢٥ - المستقصى في أمثال العرب، محمود بن عمر الزنخشري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٧ م.

- ٢٦ - الموشى، أو الظرف والظرفاء، محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء (توفي ٣٢٥ هـ)، دار صادر، بيروت ١٩٦٥ م.
- ٢٧ - نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، شمس الدين محمد بن أبي طالب الانصاري (توفي ٧٢٧ هـ)، طبعة ميرن، لايبزك، ١٩٢٣، صورة بالافسيت، د.ت.

المصادر والمراجع

- ١ - أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، دار الافاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- ٢ - أدب الأطفال، ايزابيل جان، ترجمة ماري سابا، المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٨٦م.
- ٣ - أدب الأطفال: فلسفته، فنونه، وسائطه، د. هادي نعمان الهيتي، وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٧م.
- ٤ - الأدب المقارن، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٧م.
- ٥ - الأغاني، أبوالفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ٦ - الأمالي، ابوعلي القالي، دار الآفاق الجديد، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- ٧ - أمية بن أبي الصلت - حياته وشعره، د. بهجت الحديثي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٥م.
- ٨ - البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٩ - تربية الأبناء في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، د. محمد ابراهيم حور، مكتبة المكتبة، العين، ١٩٨٠م.
- ١٠ - التربية في الاسلام، د. أحمد فؤاد الاهواني، دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.
- ١١ - التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.
- ١٢ - ثقافة الأطفال، د. هادي نعمان الهيتي، عالم المعرفة رقم ١٢٣، الكويت ١٩٨٨م.

- ١٣ - الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية.
- ١٤ - الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة، حمزة الأصفهاني، تحقيق عبدالمجيد قطامش، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
- ١٥ - رثاء الابناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، د. محمد ابراهيم حور، مكتبة المكتبة، العين ١٩٨١م.
- ١٦ - رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- ١٧ - العقد الفريد، ابن عبدربه، شرح د. أحمد امين وآخرين، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ١٩ - كتاب الأذكياء، ابن الجوزي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- ٢٠ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، الراغب الأصبهاني، بدون تاريخ ومكان نشر.
- ٢١ - ملامح يونانية في الأدب العربي، د. احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٨م.
- ٢٢ - النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت ١٩٨٢م.

تربية الأبناء في الأدب العربي

حتى نهاية العصر الأموي

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

زاد الاهتمام في عصرنا الحديث بالمناهج والدراسات التربوية، وظهرت كتب كثيرة في هذا الباب، تحدثت عن التربية عند المسلمين ومن سبقهم من الأمم القديمة، كما تناولت بالبحث، الاتجاهات التربوية التي شاعت في أوروبا في وقتنا الحاضر. وقد انصبت هذه الدراسات - جميعها تقريباً - على المدرسة وطرق التدريس وعلى المدرسين وأساليبهم وأهملت - أو كادت - المدرسة الأساسية الأولى - التي ينشأ الطفل، وهو يتشرب منها الأسس التربوية، التي تغذيه وترشده، وتولد فيه عناصر العطف والحنان والمحبة، وتجعل منه لبنة صالحة لبناء المجتمع وتماسكه. كل هذا من خلال الخلية الأولى في المجتمع، وهي الأسرة.

وقد زخر الأدب العربي بهذا - تربية الآباء للأبناء، والاهتمام بهم ورسم المنهج الذي لا بد أن يسير الابن عليه... . تحدث الآباء للأبناء شعراً ونثراً، في كل شؤون حياتهم. وبينوا لهم سبل الرشاد، ونهوهم عن طريق التيه والضلال. فكان أن خلفوا رجلاً ميامين، تركوا بصماتهم على كل بيئة عاشوا بين جناباتها، وفي كل عصر تواجدوا فيه.

وبكى الآباء الأبناء بكاء مرأ مؤلماً، صور مدى حبه لهم ولوعتهم عليهم عند موتهم.

من هنا كانت ضرورة هذا البحث، الذي أمل أن يسد، فراغاً في المكتبة العربية، بدراسة مناهج التربية في الأدب العربي - في الأسرة خاصة - لتبين كيف كان نهج العرب في هذا ولنحاول الاستفادة منهم في عصر غلبت عليه روح الإهمال للأسرة - بعد أن شغلت الأم والأب بالعمل اليومي خارج البيت، وبعد أن شاع الاتجاه نحو إرسال الأبناء منذ أيامهم الأولى إلى دور الحضانة - التي ينقصها في مجتمعاتنا من وسائل العناية والرعاية، الصحية والتربوية الشيء الكثير. كما أن المربيات فيها يغلب عليهن الافتقار الى التكوين والاعداد الكافيين لهذه المهمة الخطيرة التي أسندت اليهن، وقمن بتنفيذها. مما جعل دور الحضانة في بلادنا تأتي بمردود عكسي، الأمر الذي يلح في أن تلتفت الأنظار إلى هذا الجانب، وتسعى إلى إصلاحه - أقول يرسلون إلى دور الحضانة فلا يرى الأبوان ابنهما إلا لماماً، ولا يعرفان عن أسلوب تربيته ورعايته إلا القليل ولا يبيثانه من عطفهما وحبهما شيئاً، فينشأ الطفل غريباً عن أهله لا تربطه بهم روابط البنوة مثلما لم تربط أبويه رابطة الأبوة من قبل.

ولذلك فإننا - ان سرنا على هذا الاتجاه - نجدنا أمام خطر محقق يهددنا من أساسنا، في تفكك أسرنا وفي خلق جيل لا يبالي بأهله ومن ثم بمجتمعه وأخيراً بقيمه ووطنه . . .

فهل يكون هذا البحث منبهاً لأمر مهم غفلنا عنه، وطريق سديد حدنا عن نهجه، وذلك باعتناء الأبوين بأطفالهما وتربيتهما لهم تربية خلقية روحية أصيلة مثلما كان سلفنا الصالح يقوم ويسهر على تربية أبنائه، أقول هل يكون هذا البحث كذلك؟ .. هذا ما أرجوه.

وقد حددت الفترة الزمنية التي تناولتها بالدرس بنهاية العصر الأموي، ذلك لأن النصوص التي عثرت عليها في العصر العباسي تكاد تكون مطابقة للنصوص التي جاءت في الفترة التي سبقتة، ولم أجد اختلافاً كبيراً لا في الأسلوب ولا في المنهج مما

دعاني إلى أن أغض النظر عنه، كي لا تطول الفترة الزمنية في الدراسة بدون مبرر. وجاء البحث في تمهيد وفصلين. تكلمت في التمهيد على تربية الأبناء عند غير العرب من الأمم القديمة، ولاحظت فيه أن الأبناء عند تلك الأمم كانت لهم منزلة رفيعة، وكانوا يولونهم رعاية ما بعدها رعاية - الفراعنة، واليونان، والرومان والفرس حتى إذا وصلنا إلى الأمم الأوروبية الحديثة لاحظنا أن الفلاسفة والمربين يقفون في الصف الأول بدعوتهم إلى أن تولى الأسرة - الأب والأم - مزيداً من الوقت والجهد للأبناء كي يتوفر لديها، وفي النتيجة للمجتمع جيل قوي متماسك.

وأما الفصل الأول فكان عن العرب والأبناء، تحدثت فيه عن حب العربي للولد وتفضيله على البنت، وجئت بنصوص تؤيد هذا، وتكلمت على الدوافع التي اضطرتة لهذا. ورأيت دوافع معقولة، ولا تخلو من منطق، وعذر لهم في ذلك الموقف.

ثم انتقلت إلى الحديث عن موقف العرب من البنات. ولاحظت أنه على الرغم مما شاع عنهم في وأدهم للبنات وبغضهم لهن. إلا أنني وجدت حياً جماً لهن. ودفاعاً قوياً عنهن، لا يقلان عن ذلك الموقف المضاد، وقد صادفني نصوص جميلة مؤثرة بينت تعلق العربي بابنته، وحبها لها.

أما الفصل الثاني فكان يمثل صلب البحث، حيث تكلمت فيه على مناهج التربية عند العرب وأساليبها. بينت فيه القيم التي كانوا يؤمنون بها، والتي كانوا يسعون إلى أن يرضعوا أبناءهم إياها. ورأينا أنهم لم يتركوا فرصة إلا وانتهزوها من أجل تقديم التوجيه والإرشاد لأولادهم. وسلكوا أساليب متعددة. فمنها التنشئة، ومنها استدعاء المعلمين، وإرسالهم للكتاب، ومنها الوصية ومنها - أخيراً - المراسلة. وقد توفرت لدينا المادة الغنية بكل أسلوب سلكوه. ومنهج نهجوه.

تمهيد

تربية الأبناء عند غير العرب

حب الأبناء ظاهرة إنسانية عامة، تتخطى حدود الزمان والمكان، ولا تتوقف عند شعب دون آخر، أو أمة دون أخرى، ذلك لأن الأولاد قطعة من الأكباد كما يقولون. وقد عبّر الآباء عن مدى حبهم لأبنائهم بشتى الأساليب، ومختلف الطرق. وبلغ حبهم لهم أن فضلوه على أنفسهم في أحيان كثيرة، وفدوهم بأرواحهم.

ويبدو أن لهذه الظاهرة الإنسانية الفطرية - إن جاز لنا هذا القول - أسباباً كثيرة يصعب على الإنسان حصرها، أو الوقوف على كنهها، وإن كان يمكنه أن يعدد بعضاً منها. فمنها مثلاً عاطفة الوالدية، ومنها العلاقة الوطيدة والعشرة الطويلة، ومنها أيضاً الأمل في أن يكون لهذا الابن شأن يذكر، يرفع به ذكر والديه ويخلدهما ومنها بعد ذلك، اعداد هذا الابن ليقوم برعاية أبويه في مرحلة الشيخوخة والعجز، التي تلاحق كل انسان مهما بلغت عظمته، أو طال عمره. ويمكننا أن نضيف لهذا أسباباً أخرى، تتمثل في القيم والمثل العليا التي يفكر فيها القسم الواعي الناضج من المجتمع - أي مجتمع - كأعداد جيل واع مثقف مسلح بأسلحة العلم والمعرفة لخدمة وطنه ومجتمعه الذي يعيش فيه، وليس أولى من أن يبدأ هذا القسم بأبنائه وهم أقرب الناس اليه، ويمكنه أن يحقق ما يريدته تجاههم من خلال علاقته بهم، وتنشئته لهم.

ومما لا شك فيه، أن هذه الأسباب مجتمعة، تتعلق بالتربية التي يقوم بها الآباء لأبنائهم، بل إنها تلح على الآباء في أن يعدوا أبناءهم كي يتمتعوا بالمكانة التي يطمحون إليها، ويحققوا الأمل الذي يتطلعون إليه. واختلفت طرق التربية وأساليبها من أمة لأخرى، بل من أب لآخر، كل حاول أن يوجه أبناءه الوجهة التي يراها صائبة ناجعة. كما اختلفت طرق المربين وأساليبهم في دعواتهم وآثارهم التي حثوا فيها على تربية الأبناء تربية سليمة سديدة. وأظهروا دور الأسرة البارز في إعداد الأجيال الصالحة للمجتمع والوطن. إلا أنها برغم اختلافها في الأسلوب والوسيلة، اتفقت في الغاية المثلى التي كانت تدعو من أجلها، وهي أن يظهر في الأسرة الضيقة، والمجتمع المحدود، والأمة الكبيرة، أجيال قوية صلبة واعية، فيها تجديد لشباب الآباء والأجيال، وفيها سند وحمى للحضارات المختلفة، وفيها بذل وعطاء وتضحية في سبيل هذا وذاك.

ولو عدنا للأمم القديمة، التي سبقت العرب بتاريخها وحضارتها ونظرنا في أساليب التربية عندها تجاه الأبناء، لوجدناها تدعم ما سبق أن قررناه وتؤيده.

فالفراعنة كان جهم جما للولد، وكانوا يستقبلونه بالزغاريد والتهاليل^(١) وكانوا يعدونه إعداداً علمياً وثقافياً، لأن الثقافة في نظرهم لا يعلو عليها شيء. نلاحظ هذا في وصية أحد حكمائهم لابنه حين قال له «امنح قلبك العلم وأحبه كما تحب أمك، فلا يعلو على الثقافة شيء» ولا يترك هذا الحكيم قوله دون تعليل وتوضيح، بل أنه يغوص إلى أعماق الفكرة، ويحاول أن يدلل على منهجه هذا بسبب منطقي سليم وجيه حين أضاف «اذكر يا بني أن أية مهنة من المهن محكومة بسواها إلا الرجل المثقف فإنه يحكم نفسه بنفسه»^(٢) ألا ترى أن هذا يشي بحرية الفكر والاستقلال

(١) أغاني ترقيص الاطفال عند العرب ٥٥. أحمد ابو سعد. دار العلم للملايين بيروت. الطبعة الاولى ١٩٧٤.

(٢) التربية عبر التاريخ ٤٧. الدكتور عبدالله عبدالدايم. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٣.

فيه، والتمرد على كبح جماحه وإعداد الابن إلى أن يطلق لفكره وعقله العنان، ما دام لا يحكمه إلا نفسه؟.

وقالوا أن كتاب «الأخلاق» - الذي ألفه «فتاح حوتيب» - أعظم كتاب في العالم (١). وقد اشتمل هذا الكتاب على وصايا وحثاً على تربية الأبناء، ودعوتهم إلى طاعة والديهم، فمما جاء فيه قول مؤلفه «يسعد الولد المطيع الخاضع (١) ويجيى حياة طويلة حافلة بالخير والبركة، وإني لم أبلغ هذه السن العالية إلا بفضل طاعة الوالدين، وطاعة المليك، وقيامي بواجبي لهم خير قيام» (٢).

وقد كانت طاعة المليك من الأمور الواجبة في القديم ومن القيم التي يربى الأبناء وهم يتشربونها منذ الصغر لأن نظرهم إليها كان فيها شيء من التقديس عند بعض الأمم، فليس غريباً - أن ذاك - أن يقرن المؤلف طاعة الوالدين بطاعة المليك، ويظهر أن الخير والبركة وسنه العالية لم تكن إلا بفضل طاعة هؤلاء.

ثم يواصل حوتيب نصائحه لابنه في ما يتعلق بالمجتمع وسلوكه فيه ومعاملته مع الآخرين، وسلاحه في العلم وبلاغة القول، وتجنب الطمع، والتواضع، والتلطف مع الزوجة، والاستشارة بالرأي، انظره يوصيه بقوله «إذا أردت حسن الثناء فتجنب الطمع، فإنه داء لا يشفى، ومحال أن تكون معه صداقة. فوجه عنايتك للعلم وبلاغة القول. وفكر قبل أن تأمر، فما أقبح التصرف من غير تفكير. ثم إذا أمرت فلا تتعاطم في أمرك. ولا تحتد في أقوالك، وتحراً أن تكون مطاعاً في أمرك، مسدداً في إجابتك، فالخلم يذلل الصعاب، والغضب ينغص العيش. تحراً بفضلك من صادقك في شدتك، فإنهم أحق بفضلك، ممن لا يعرفونك إلا في رخائك.

(١) تاريخ التربية ١٢. مصطفى امين. مطبعة المعارف بمصر ١٩٥٥.

(٢) المرجع نفسه ١٢.

الرجل الغر ينصح فلا يسمع، ويرى العلم في الجهل، والربح في الخسارة، ويأتي ما يأتي على غير هدى، ويجد في كلام السوء غذاء لنفسه.

تلطف مع زوجك، واقصد أن تجعلها أسعد امرأة في بلدها، وأسلم قيادها يستقيم سيرها، وبشرها ولا تنفرها، وتحبب إليها بموافاتها بما تطلب.

ولا يغرنك علمك ولا تثق به، وشاور الجاهل والعاقل، فالعلم لا حد له، والوصول إلى نهايته لا يستطيعه أحد، وليس هناك عالم بفن يستطيع أن يقول فيه الكلمة الأخيرة، والكلام القيم أخفى من الحجر الكريم الأخضر، ومع هذا فقد تجده في يد أمة تدير الرحي. (١)

ومن المواعظ السياسية موعظة «خيتي الثالث» لابنه «خيتي الرابع». وكانت نصائحه ابان ثورة شعبية على نظام الحكم فمن قوله «كن بليغاً تكن قوياً. فاللسان للملك أصدق سيف في القتال. والملك مدرسة لمن حوله من العظماء. وهو اذا اتسع اطلاعه أمن من أن يُخدع بالكذب، لأن الحقيقة تأتيه خالية من الشوائب. اجعل أساس اختيارك للرجال الكفاية، سواء في ذلك ابن العظيم وابن الحقير. من الخير لك أن تكون رحيماً، واجعل وكذك أن يقيم لك الناس تمثال الحب في قلوبهم، فإن فعلت فسيذكرون لك جميلك، ويدعون لك بالصحة وطول العمر. تمسك بالعدل ما حييت وإياك والإساءة إلى الأيامي، والتعرض لمال أحد في ما يرثه من أبيه، والعقوبة في غير جريرة. ليس لأحد أن يظلم، فسوف يحاسب كل انسان على عمله. ولا تغتر بطول العمر، فما حياة الإنسان في هذه الدنيا إلا لمححة، وسيبعث الإنسان حين وصوله إلى الشاطيء الثاني، وكل نفس بما كسبت رهينة، وهناك الأبدية لا شك فيها، وويل لم يحتقرها، وطوبى لمن أتى إليها وليس له

(١) قصة الادب في العالم ١: ٢٨ - ٢٩. احمد امين وزكي نجيب محمود. مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥.

ذنب، إنه يحى كما تحى الآلهة. إن الناس عبيد الله، وهو يهديهم سواء السبيل، خلقهم منه وعلى صورته، وخلق لهم ما في الأرض جميعاً، وهو يسمع بكاءهم وشكواهم، وقد جعل لهم رؤساء أوصياء عليهم يأخذون بيد الضعفاء منهم. (١)

وكانت التربية عند اليونان في عصر هوميروس تشبه تربية الإنسان في عصوره الأولى. فلا مدارس، ولا معاهد علمية، ولا معلمين يحترفون صناعة التعليم. وكانت التربية عندهم محض أنواع من التمرين على شؤون الحياة العملية. وكان الأطفال يصلون إلى ما يصلون من مراتب التربي بفضل تدخلهم في الحياة العلمية للأسرة والمجتمع. فكان الولد يتعلم من أبويه في المنزل وسائل المحافظة على الحياة فيتعلم منها التماس الأقوات، وبناء المساكن، وحياسة الملابس، وهذه هي التربية الأولى.

أما التربية الراقية فتأتي من محاكاة من يخالطهم ويعاشرهم من الرجال الذين علمتهم التجارب، ودربتهم ظروف الزمان.

وفي العهد الاسبرطي هيمنت الحكومة على تربية الأطفال من يوم ولادتهم، ولم تترك الآباء أحراراً في تربية من يشاؤون من أولادهم، بل كان من واجب الأب إذا ولد له ولد أن يحمله إلى دار الندوة حيث يجتمع رؤساء العشائر وشيوخ المدينة، فيضعه بين أيديهم ليختبروا قوة جسمه ومبلغ تحمله، فإذا وجدوه قوي الجسم، كامل الخلق متناسب الأعضاء، أساغوا له العيش، ثم أمروا بتربيته وعدوه من أبناء الحكومة، وتركوه لأمه تتولى شؤونه إلى السنة السابعة من عمره، وإذا بلغ هذه السن أخذته الحكومة من أبويه وتولت تربيته، فأسلمته إلى مروض غلمانها، وهو

(١) المصدر السابق : ٢٩ - ٣٠.

رجل من أتباعها، له أعوان وأنصار يساعدونه في عمله ويشرفون معه على حياة الغلمان الاسبرطيين، ويتولون جميعاً شؤون تربيتهم. (١).

واهتم فلاسفة اليونان بالتربية، وركزوا على دور الأسرة فيها، لأنها هي التي تغرس البذور الأولى في نفوس النشء، من تقديس للآلهة، وسير الأبطال، على نحو ما دعا افلاطون حين قال «أول واجب علينا أن نختبر ما يؤلف من الحكايات والخرافات اختباراً دقيقاً، ونختار منها الصالح الحسن، وننبذ ما اختير لهن من هذه الخرافات الصالحة فيكثرن من قراءتها على الأطفال، ويقومن بها ما شئن من عقولهم وأخلاقهم» (٢) كل هذا يكون حتى سن السابعة للطفل إذ رأى أفلاطون ضرورة وجود الطفل عند أهله وبين أحضان والديه يرضعانه تلك الأمور، وينشأه عليها، حتى إذا ما انتقل إلى مدارس التعليم الابتدائي، ومدارس المصارعة التي كانت شائعة عندهم، يكون قد توفرت لديه الأرضية الصلبة التي تهيئه لأن يواجه الحياة الجديدة خارج بيت الأبوين.

وأرسطو أعمق نظرة من أستاذه في هذا الجانب وأكثر حرصاً على الأبناء، وأشد تركيزاً على دور الأسرة في تربيتهم. ذلك لأنه عرف حياة الأسرة، وتمتع بالعطف والحنان الذي غمره من أبويه كما شعر بعاطفة الأبوة وصدق المشاعر التي تتمثل في الآباء تجاه أبنائهم ومن هنا أصاب كبد الحقيقة حين عبر عن هذا بقوله «إن الآباء يحبون أبنائهم حبهم لقطعة منهم» (٣). وانطلاقاً من هذا الفهم فقد كان أرسطو من أكثر الفلاسفة والمفكرين القدامى حرصاً على أن ينعم الأبناء بأكبر قسط من حياتهم

(١) تاريخ التربية ٣٣.

(٢) المصدر السابق، ٧٩.

(٣) التربية عبر التاريخ، ٧٩.

في كنف آبائهم، وكان يدعو إلى أن يتولى الآباء فلذات أكبدهم تربية سديدة نموذجية.

أما الرومان فكانت الأسرة أهم وسائلهم وأعظم وسائلهم في تربية الأبناء، ولذلك كان للأسرة المنزلة الرفيعة بين معاهد التعليم الرومانية القديمة. وهم بهذا كانوا على العكس من الاسبرطيين والفلاسفة الأثينيين يرفعون من شأن الأسرة، وينظرون إليها نظرهم إلى الأشياء المقدسة. وكان نفوذ الأب على بنيه وبناته عندهم يمتد إلى بلوغ الولد سن الرشد، وإلى ما بعد ارتباط البنت بعهد الزوجية.

ولم يكن شأن الأم في الأسرة بأقل من شأن الأب فيها، فكانت في أول نشأة أولادها تأخذهم جميعاً بالتربيتين البدنية والخلقية من غير تفرقة في ذلك بين البنين والبنات. ولكن الولد متى ترعرع فارق أمه وصحب أباه في غدواته ورواحه، ولازمه في وحدته، وحين يجتمع بإخوانه وزملائه، فأخذ عنه وعمن يراهم معه من الرجال كثيراً من العادات والأخلاق، واكتسب منهم بالتقليد والمحاكاة ما اتفق له من الأعمال والكفايات(١).

وكان فلوطارخس يرى أنه يجب ألا تكون للدولة سلطة تستغرق كل شيء حتى تشمل تربية الأبناء. «وهو بهذا يوطد أركان الأسرة بعدما تداعت، وإليها يتوجه في تربية الأطفال... فبعد أن يتكون الفتى تحت رعاية مربية، ورقابة أبوية، في وسعه أن يحضر دروس الفلاسفة، وأصحاب الأخلاق، ويدرس الشعر والشعراء»(٢).

وكانت التربية عند الفرس تبدأ في الأسرة. ولأب عندهم سلطة كبيرة، فهو «السيد المطاع المحترم. ومثله الأعلى أن يدرّب أبناءه على الفضيلة، وأن يسهر على

(١) المصدر السابق، ٨٦.

(٢) نفسه، ٩٥.

صحتهم، وأن يجعل منهم خداماً نافعين للدولة».

ويخبرنا هيرودوت أن الفرس كانوا يعلمون أبناءهم أموراً ثلاثة، ركوب الخيل، ورمي السهام، وقول الحق. وكانوا يتعهدون فيهم جملة من الصفات الخلقية الحميدة كالطاعة، ومحبة الآباء، والعدل، والشجاعة، والاعتدال، والتعلق بالشرف، والسعي إلى إرضاء هرمزد^(١).

وأثر عن الفرس وصايا كثيرة لأبنائهم، خاصة وصايا الملوك لولاية عهدهم من أولادهم. فكان الواحد منهم يحاول أن يبت خبرته وتجاربه التي تعلمها في حياته لدى خليفته، كي يستفيد منها ابنه من بعده، فمنهم من أوصى ولده بالعدل، الذي اعتبره حارساً للملك، كما فعل أردشير حينما أوصى ابنه فقال له، يا بني إن الملك والعدل أخوان لا غنى لأحدهما عن صاحبه، فالملك أس^(٢)، والعدل حارس. فما لم يكن له أس^(٣) فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. يا بني اجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وبرك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول. (٣)

وأبرويز يرسم لابنه منهجاً في الحكم تجاه جنده ومعاملته لهم، كما يحثه على أن يكون حذراً في تصرفاته، بعيداً عن اتخاذ القرارات وقت الغضب، دقيقاً في ألفاظه، لأن نفاذ أمره مع ظهور كلامه - على حد تعبيره - انظره يوصي ابنه شيرويه فيقول «لا توسعن على جنديك سعة يستغنون بها عنك فيطغوا ولا تضيق عليهم ضيقاً يضجون به منك، ولكن أعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً، وابسط لهم في

(١) المصدر السابق، ٤٣

(٢) الأس: أصل البناء.

(٣) العقد الفريد، ١ : ٢٧. ابن عبدربه. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٩٤٠.

الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء. وكتب إليه أيضاً من الحبس، اعلم أن كلمة منك تسفك دماً وأخرى تحقن دماً، وإن سخط سيفك مسلول على من سخطت عليه، وأن رضاك بركة مستفادة على من رضيت عنه وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فاحترس في غضبك من قولك أن يخطيء ومن لونك أن يتغير، ومن جسديك أن يخف، فإن الملوك تعاقب حزماً وتعفو حلماً. واعلم أنك تجل عن الغضب، وأن ملكك يصغر عن رضاك، فقددر لسخطك من العقاب كما تقدر لرضاك من الثواب. وكتب إليه من الحبس أيضاً اختر لولايتك أمراً كان في وضيعة فرفعته، وإذا شرف كان مهملاً فاصطنعته، ولا تجعله أمراً أصبته بعقوبة فاتضع لها، ولا أمراً أطاعك بعد ما أذلتته، ولا أحداً مما يقع في خلدك أن إزالة سلطانك أحب إليه من ثبوته، وإياك أن تستعمله ضرعاً غمرأ، كثيراً اعجابه بنفسه، قليلاً تجربته في غيره، ولا كبيراً مدبراً قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت السن من جسمه. (١)

ويكتب سابور اردشير إلى ولده، يوصيه بوزيره لأنه حافظ سره ومصدر معلوماته، فلا يجب أن يشك في قول يقوله، أو خبر ينقله إليه، وألا يلتفت إلى أقوال الوشاة ضده. كما يحثه على ألا يؤنبه أو يصدده إن جاء بها لا يوافق من رأي، لأن ذلك يفت في عضده، ويقبضه عن أثباته كل رأي يلوح صوابه له. ويدعوه إلى ألا يقرب سواه منه قرب وزيره له لأنه لا يؤتمن جانب أولئك. ها هو يقول «ليكن وزيرك مقبول القول عندك، قوي المنزلة لديك، يمنعه مكانه منك، وما يثق به من لطافة منزلته، من الخشوع لأحد، أو الضراعة أو المداهنة لأحد، في شيء مما تحت يده، لتبعثه الثقة بك على محض النصيحة لك، والمنابذة لمن أراد غشك وانتقاصك حقلك. وإن من أورد عليك رأياً يخالفك ولا يوافق الصواب عندك، فلا تجبهه جبه الظنين، ولا ترده عليه بالتجهم، فيفت ذلك في عضده ويقبضه عن إثباتك كل رأي

(١) المصدر السابق ١: ٣٠

يلوح صوابه، بل اقبل ما ارتضيت من قوله، وعرفه ما تحوفت من ضرر الرأي الذي انصرف عنه، ليتنفع بأدبك في ما يستقبل الرأي فيه. واحذر كل الحذر أن تنزل هذه المنزلة سواء ممن يطيف بك من خدمك وخاصتك، وأن تسهل لأحد منهم سبيل الانبساط بالنطق عندك والافاضة في أمور ولايتك ورعيتك فإنه لا يوثق بصحة رأيهم، ولا يؤمل الانتشار في ما أفضي من السر اليهم. (١)

هكذا كان حال ملوك الفرس ورجالاتهم في وصاياهم وتربيتهم لأبنائهم، يرسمون لهم مناهج الحياة وسبل المعاملة مع رعاياهم، والناس الآخرين. وهي مناهج يمكن أن يأخذ بها كل وال، بل كل فرد في معظم العصور، فما فيها من عظة، وحسن معاملة، وقدرة على التصرف في الأمور تجاه الفرد نفسه، وبينه وبين الآخرين ممن يتعامل معهم. إلا أننا في الوقت نفسه لا نغفل ما في بعض هذه الوصايا من اضطهاد للشعوب وإنكار لحقوقها في التعبير عن رأيها ومتطلباتها.

وإذا ما انتقلنا من العصور القديمة من الحضارات التي اندثرت وخلفت تراثاً مهماً للأجيال التالية، كان وما يزال نبراساً تهتدي بهديه الأمم على اختلاف بيئاتها وعصورها، أقول إذا ما انتقلنا من تلك الحقب البعيدة إلى عصور النهضة بمختلف جوانبها العلمية والاجتماعية والاقتصادية... فاننا نلاحظ أن التربية بصفة عامة أخذت قسطاً كبيراً من جهود الباحثين والمفكرين، كما حظي الأبناء باهتمامات بعض أعلام المربين الذين ركزوا على الآباء والأمهات في دورهم في تنشئة ابنائهم.

فهذا رابليه الفرنسي (١٤٩٤ - ١٥٥٣) يهتم بتربية الأب لابنه، ويرى أن هذه التربية يجب أن تكون شاملة، قائمة على المزج بين القراءة والملاحظة المباشرة،

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ٦: ٣٤. شهاب الدين النويري، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥.

ويمكن أن تكون رسالته التي ذكرها عن لسان (غرغونتيا) لولده (بونطاغروبال) خير ممثل لمنهجه في التربية. فهو يبدأها بقوله «انبهك يا بني إلى أن تصرف شبابك في المطالعة والتمرس على الفضائل» ومن ناحية اللغات يدعو ولده إلى أن يتقنها «أولا اليونانية.. ثانيا اللاتينية، ثم العبرية بواسطة الكتابات المقدسة وكذلك الكلدانية والعربية».

ويبين رابليه كيف أن الأب اهتم بولده منذ الصغر. انظره يخاطبه بقوله «لقد أذقتك في صغرك، وأنت في سن الخامسة والسادسة طعم الفنون الشريفة، هندسة، وحساب، وموسيقى، فعليك أن تتابعها.. وفيما يتعلق بمعرفة عوامل الطبيعة، أريدك مندفعاً وراءها بشغف، حتى لا يبقى نهر ولا نبع ولا بحر لم تعرف أسماكه، وحتى تحيط علماً بجميع أطياف الفضاء، وجميع أشجار وشجيرات الغابات... ثم راجع باعتماد كتب الطب اليونانية والعربية واللاتينية... خصص بعض ساعات نهارك لتصفح الكتب المقدسة.. وخلاصة القول يجب أن أراك بحراً من العلوم(١).

ووما لاشك فيه أن في دعوة رابليه غلوا واسرافاً فيما طلبه الأب من ولده، لأن الاحاطة باللغات جميعاً، ومعرفة العلوم كافة، وقراءتها بلغاتها، أمر من العسير تحقيقه، إن لم يكن مستحيلاً، إلا أنها على ما فيها من غلو واسراف، تشي بعاطفة الأبوة، ورغبة الأب الأكيدة، في كل زمان ومكان في أن يكون ولده ملماً بشتى صنوف المعرفة، له سلوك حسن، وسيرة عطرة، وأن يكون حذراً من «سيئات هذا العالم.. لأن هذه الدنيا زائلة، وإنما الله وحده خالد» على حد تعبير رابليه.

وبعد رابليه بقرنين من الزمان تقريباً ظهر في فرنسا جان جاك روسو (١٧١٢ -

(١) التربية من أفواه رجالها ٦٠. أنطوان الخوري. ١٩٦٨، بدون مكان طبع.

١٧٧٨) وثار على عادة شائعة في عصره تتعلق بالتربية، و «هي تسليم الأطفال لمرضعات مرتزقات. ويهيب بالأمهات للقيام بواجبات الأمومة، مبيناً أبلغ بيان أنه إذا لم تكن ثمة أم لم يكن ثمة طفل، أو إذا لم يكن ثمة أم، لم يكن ثمة أسرة.. واما يقوله أيضا «إذا أردتم أن تعيدوا كل انسان لواجباته الأولى، عليكم بالبدء بالأمهات، وستعجبون لما تحدثونه من تغيير». (١)

وقد كان كتاب «إميل أو التربية» لرسو متضمنا آراءه في التربية، ودعوته للأمهات برعاية أبنائهن، وها هو يفتح كتابه بقوله «فاليك أوجه حديثي أيتها الأم الحنون البصيرة، التي تعرف أن تبتعد عن الشارع، وأن تصون الشجيرة الناشئة من صدم الآراء البشرية.

وتعهدي الغرس الحديث، ورويه قبل أن يموت، فستكون ثماره مدار سعادتك ذات يوم. وأقيمي مبكرة نطاقاً حول روح ابنك، أجل يمكن آخر أن يرسم الدائرة، ولكنه يجب عليك وحدك أن تضعي الحاجز». (٢)

ويصيب روسو كبد الحقيقة عندما يصل في حديثه عن تربية الأبناء في الأسرة ومقارنته بين ذلك وبين تربيتهم خارج البيت بأجر فيقول «ولكن ما يصنع هذا الرجل الغني، هذا الرب للأسرة الشغال، المضطر على زعمه إلى إهمال أولاده. هو يؤدي أجراً إلى رجل آخر ليقوم مقامه في هذه العناية الملقاة على عاتقه. فيا أيها الروح المطماع أو تعتقد أنك تنعم على ابنك بأب آخر بالمال؟ لا تخادع نفسك

(١) جان جاك روسو وآراؤه في التربية ٣٨١. محمد عطية الابراشي، دار احياء الكتب العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥١.

(٢) اميل أو التربية ٢٧. جان جاك روسو. ترجمة عادل زعتر. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٩٤٠.

مطلقاً، فليس معلماً ذلك الذي تعطيه اياه، بل أجير لا يلبث جن يجعل منه خادماً مثله. (١)

وما هي النتيجة من وراء ذلك؟ تفكك الأسرة الذي عبر عنه بقوله «ولكن الأشغال أو الوظائف والواجبات. . آه الواجبات، واجب الأب آخر الواجبات لا ريب. لا نعجب من استخفاف زوجته بارضاع هذا الذي هو ثمرة قرانها، لا توجد أدعى إلى الفتون من صورة الأسرة، ولكن خطأ ناقصاً يشوه جميع الخطوط الأخرى. وإذا كانت الأم من قلة الصحة، ما لا تكون معه مرضعاً فإن الأب من كثرة الأعمال ما لا يكون معه معلماً، ويجد الأولاد البعداء الموزعون في المدارس الداخلية والأديار والكليات، حب المنزل الأبوي في مكان آخر، أو بالأحرى أن يقال، انهم يرجعون إلى هذا المنزل حاملين عادة عدم الارتباط في شيء، ولا يكاد الأخوة والأخوات يتعاشرون، ومتى اجتمع هؤلاء كلهم في احتفال أمكن أن يكونوا مهذبين نحو بعضهم بعضاً، متعاملين تعامل الغرباء، ومتى عادوا لا يكون بين الأقرباء الفة، ومتى عاد مجتمع الأسرة لا ينعم بلطف الحياة نشد سيء الأخلاق ليقوم مقام ذلك، وأين الرجل الذي يكون من البلاهة ما لا يرى معه سلسلة جميع هذا؟» (٢).

ولم يقف الأمر عند روسو، بل «نادى بهذه الإرشادات كثير من المربين مثل مولي وبوغون. نادوا بواجب الأمهات نحو تربية الأبناء» (٣).

(١) المصدر السابق، ٥١.

(٢) نفسه، ٥٠.

(٣) جان جاك روسو وآراؤه في التربية والتعليم، ٦٣.

كما أن ارزمس الألماني (١٤٦٧) يرى أن الأم هي المربية الطبيعية للطفل في سنواته الأولى، وكل امرأة لا تشغل نفسها بتربية ابنائها، ولا تعنى بتنشئتهم، فهي نصف امرأة. (١)

وكان جون ايموس كومينوس الانجليزي (١٥٩٢ - ١٦٧١) من أوائل الذين نصحوا باقامة اربعة أنواع من المدارس تلتئم جميعها لتربية النشء وتعليمه «النوع الأول مدارس الأمهات، ويجب أن لا يخلو منها منزل، ويربى فيها الأطفال ذكوراً وإناثاً حتى يبلغوا السادسة من أعمارهم. النوع الثاني مدارس اللغات الوطنية، ويجب أن توجد واحدة منها في كل قرية أو مجتمع صغير، ويدخلها الأحداث ذكوراً وإناثاً في السادسة من أعمارهم ويبقون بها إلى الثانية عشرة، ويعلمون فيها لغة البلاد تعليماً صحيحاً. النوع الثالث المدارس اللاتينية ويجب أن توجد واحدة منها في كل مدينة، ويدخلها التلميذ في الثانية عشرة من عمره، ويبقى بها إلى الثامنة عشرة، ويتعلم بها اللغة اللاتينية والآداب القديمة. النوع الرابع الجامعات ويبقى بها ست سنوات يرحل في أثنائها رحلة طويلة إلى بلد أجنبي يستفيد فيه علماً وتهذيباً» (٢)

ويكاد يكون هذا النظام الذي نصح به كومينوس في القرن السابع عشر هو الذي يأخذ به كثير من الدول إلى يومنا هذا.

وفي كتاب الوالد والولد، لادمون جوس، نلاحظ كيف أن الأب والأم سهرا على تربية المؤلف تربية قوية سديدة، منذ نعومة أظفاره، وما كان من صدى لهذه التربية على حياة الطفل.

(١) تاريخ التربية، ٢١٩.

(٢) المصدر السابق، ٢٦٤.

وقد نقل لنا جوس قصيدة جميلة من نظم أمه، كانت تغنيها له وهو صغير، وهي قصيدة تعليمية، تعبر فيها عن حبها لولدها، وتدعوه فيها إلى تعلم القراءة، انظرها تقول:

ما أبهى ضيائك أيها القمر الجميل
سأمضي لأقريء أمي تحية المساء
ثم أرقد بعدها في فراشي
وأرقبك وأنت تسبح من فوق رأسي
آه، لقد حجبتك عن ناظري سحابة
ولكني أرى نورك منبعثاً من خلالها
إنها تحاول أن تحجبك عني ولكن هيهات
فها أنت تظهر سريعاً من جديد
إني لأعلم أن الله هو الذي يجعلك
تضيء فراشي هذا الصغير بنورك
ولكني سأعلم من أمرك كل شيء
حين أستطيع القراءة وأشبه عن الطوق(١)

ومثلها كانت الأم الإنجليزية تغني لطفلها وتدعوه لتعلم القراءة، كانت الأم الروسية تغني لولدها وتعلمه الحذر والحيلة في حياته، وأن لا يسيء لأحد، فهي تغني له قصة أحد الدببة فتقول:

مرة في صقيع الشتاء
سار الدب إلى بيته

(١) الوالد والولد، ١٥. ادموند جوس. ترجمة فؤاد اندراوس، طبع وزارة الثقافة والارشاد القومي بالاقاهرة، د. ت.

في رداء من الفرو الدافئ
سار هو . . سار إلى بيته
في الطريق الريفى
عابراً الجسر
وطىء ذيل الثعلب
زعقت الثعلبة صارخة
واهتزت الغابة المعتمة
وذعر الدب بسرعة البرق
تسلق شجرة السرو الكبيرة
وعلى شجرة السرو كان الهدهد مسروراً
يصلح بيت السنجاب
يجب أن تفتح عينيك وتنظر أمامك
وعندها قرر الدب
أنه يجب أن ينام في الشتاء
وأن لا يسير في الطرقات
وأن لا يبطأ ذبول الثعالب. (١)

ومن الكتب المهمة في التربية، التي تدعو الآباء والأمهات إلى الاهتمام بأبنائهم إلى أبعد حد كتاب «التربية الاستقلالية أو أميل القرن التاسع عشر» لألفونس اسكيروس. الذي سار في منهجه على أسلوب روسو، وإن كان قد ركز أكثر من روسو على دور الأبوين.

(١) اغاني ترقيص الاطفال، ٣٤.

بدأ المؤلف كتابه بتعريف التربية، حتى يكون على بينة من أمره في منهجه الذي أسنته لنفسه وللآخرين في التربية، فقال «إنها - على ما يؤخذ من معنى لفظ التربية اللغوي - عبارة عن تكميل العقل الناشئ، وتهذيب نفسه، بإظهار جميع ما استكن فيه من ضروب الاستعداد، وأنواع القوى وانهاؤها، لأن ذلك اللفظ مأخوذ من ربي أي زاد ونما. . . وأراد جمهور علماء الأخلاق بالتربية، الوصول إلى ما تصوره في الإنسان من «معنى الكمال» فغرضهم منها إيجاد الإنسان الكامل، وهو غرض يظهر لأول نظرة انه موافق للعقل تمام الموافقة، لكنه مثار لاعتراضات كثيرة. فلقائل أن يقول، إن الإنسان الكامل ليس له إلا صورة خيالية لا تحقق لها في الوجود الخاجي قطعاً فنحن نحلم به كل على حسب تصوره. فايانا والتشبه بهذه الصورة الوهمية التي يريد الخيال أن يتغلب بها على الواقع المحقق، فإنه لا شيء أيسر علينا من تخيل ذات عاقلة، ونعتها بالآلاف من نعوت الكمال الخيالية، حتى تكون نموذجاً لجميع الفضائل، ولكن من لنا بانزال هذه الذات من السماء وإبرازها إلى عالم الظهور.» (١)

والكتاب عبارة عن رسائل بين المؤلف وزوجته، يرسم فيها المنهج القويم الذي سارا عليه في تربية ولدهما إلى أن شب وأصبح رجلاً يعتمد على نفسه، وقادراً على أن يعيش مستقلاً ويبنى حياته من جديد.

والحديث يطول بنا لو أردنا أن نستقصي جميع الآراء في تربية النشء، ويخرج بنا عن الغرض من هذه التوطئة، التي وددنا أن نوضح من خلالها آراء ومذاهب غير العرب قديماً وحديثاً في تربيته لأبنائهم.

وقد لمسنا مما تقدم أن الأبناء والاهتمام بهم من قبل آبائهم وأمهاتهم، والحرص

(١) التربية الاستقلالية أو اميل القرن التاسع عشر. الفونس اسكيروس. ترجمة عبدالعزيز محمد. مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣١.

على تربيتهم على أجل الصور منذ أيامهم الأولى إلى أن يصبحوا قادرين على الاعتدال على الذات وأن واجب الأبوين في هذا أساسي وكبير لا يمكن التغاضي عنه، أو القفز عليه. كان ذلك عند جميع الأمم، في مختلف العصور.

إلا أننا لا نريد أن نترك القلم في هذا المقام دون الإشارة إلى ظاهرة مهمة، وصف بها العرب أكثر من سواهم، أو قل تصوروا البعض أنها تقتصر على العرب، تلك الظاهرة هي الحديث عن البنات ومدى حبهن والعناية بتربيتهن. إن الذي مر بنا من أحاديث هو كلام منصب على الأولاد عند الأمم كافة، ولم يقع بين أيدينا كتاب تحدث عن الأبناء عند هذه الأمم، تعرض للبنات. فهل كانت الأمم غير العربية تقف الموقف ذاته من المرأة، باعتبارها أقل أهمية من الرجل؟ وبالتالي فيجب ألا تحظى بالعناية التي يتمتع بها الرجل، وعليه فهم يفرحون للأولاد ويعنون بهم، وحولم تدور أحاديثهم، ويصيبهم الغم والهلم إذا بشروا بالأنثى، هل كانت على هذا الحال؟ هذا ما يمكن أن نستنتجه مما مر بنا من نصوص، ومما وقعنا عليه من مصادر، ذلك لأنها خلقت خلوا تماماً من الحديث عن البنت وتربيتها.

وقد دعم استنتاجنا هذا ما وجدناه عند العقاد في حديثه عن المرأة غير العربية ومكانتها في مجتمعها فقال «ربما كانت الحضارة المصرية القديمة هي الحضارة الوحيدة التي حولت المرأة مركزاً شرعياً تعترف به الدولة والأمة، وتنال به حقوقاً في الأسرة والمجتمع تشبه حقوق الرجل فيها. . فشرية «أنو» في الهند لم تكن تعرف للمرأة حقاً مستقلاً عن حق أبيها أو زوجها أو ولدها في حالة وفاة الأب والزوج. . . وشرية «حمورابي» التي اشتهرت بها بابل كانت تسحبها «المرأة» في عداد الماشية المملوكة. . . وكانت المرأة عند اليونان الأقدمين مسلوحة الحرية والمكانة في كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية، وكانت تحل في المنازل الكبيرة محلاً منفصلاً عن الطريق، قليل النوافذ محروس الأبواب. . . . وقد كان أرسطو يعيب على أهل

اسبرطة انهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم، ويمنحونهم من حقوق الوراثة والبائنة، وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن، ويعزو سقوط اسبرطة وضمحلها إلى هذه الحرية وهذا الإسراف في الحقوق... ومذهب الرومان الأقدمين كمذهب الهنود الأقدمين في الحكم على المرأة بالقصور حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الأبناء، وشعارهم الذي تداولوه ابان حضارتهم «ان قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع». (١)

ولم يفت العقاد ان يبنه إلى حالات في التاريخ الانساني مرت، وقد نالت المرأة حظا من الاهتمام بها في عصور الترف والبذخ، التي تنتهي اليها الحضارات الكبرى، وعلل ذلك بأنه لم يكن لقيمة المرأة في نظر تلك الحضارات وانما نالت هذا الاهتمام «لأنها - في عصور الترف والبذخ - مطلب من مطالب المتعة والوجاهة الاجتماعية» (٢).

أما المصريون القدماء، فعلى الرغم من تقديرهم للمرأة، إلا انها كانت لا ترقى إلى مكانة الرجل، وقد مر بنا في مفتتح حديثنا انهم كانوا يستقبلون الولد عند ولادته بالزغاريد والافراح.

وبهذا نخلص الى أن البنت لم تكن تتمتع بالتربية التي يتمتع بها الولد في المجتمعات القديمة، الأمر الذي جعل الحديث عن التربية والمحبة محصوراً في الأولاد دون البنات.

(١) المرأة في القرآن، ٧١. عباس محمود العقاد. دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧.

(٢) المصدر السابق، ٧٢.

رَقْع

جهد الشيخ محمد النجدي
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

العرب والأبناء

رَفَعُ

عبد الرحمن العجمي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

- ١ -

حبهم للأولاد

عاش العرب في جاهليتهم في بيئة قاحلة، وظروف صعبة، يغلب عليها طابع الكر والفر، والغزو والسلب والنهب، وقلة الماء والجفاف والجذب، الأمر الذي كان يجتم عليهم ألا يقر لهم قرار، فسرعان ما يقيمون في منطقة حتى تفرض عليهم الطبيعة أو القتال والحرب مبارحتها إلى مكان آخر أكثر خصباً إذا كان السبب هو القحط، أو الأمان إذا كان الحرب.

وكانت هذه الظروف تطبع حياتهم بطابع مميز، ينسجم معها، ويجعلهم قادرين على التكيف مع طبيعتها. منها حاجتهم الملحة إلى الفرسان، ورجال القتال القادرين على الدفاع عن حمى القبيلة وأفرادها. ومنها - أيضاً - رغبتهم في أن يكون لديهم لسان حال يعبر عن أمجادهم ومآثرهم، ويرد على المثالب والمطاعن التي توجه إليهم نتيجة الغزوات والحروب. . . لذلك رأيناهم لا يهتنون إلا بغلام يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينغ (١).

(١) بلوغ الأرب، محمود شكري الألوسي، دار الكتاب العربي بمصر، ط ٣، ٨٢٣

ومما لا شك فيه أن لهذا ما يسوغه عندهم لما لهؤلاء الثلاثة من أهمية كبيرة، يعتمدون على كل منها أشد اعتماد، بل تكاد تكون متكاملة في أهميتها عند قوم طبيعة حياتهم كر وفر، وفخر واعتزاز، فالفرس للغلام الفارس، والشاعر للحديث عنه وعن فروسيته وبطولته. وما أكثر ما جمع الغلمان العرب بين الفروسية والشعر، فكانوا رمز فخر واعتزاز بين قبائلهم، وكثيراً ما باهت بهم قبائلهم القبائل الأخرى، واقرن اسم الشاعر الفارس باسم قبيلته، كعنترة العبيسي، والمهلهل التغلبي، وسلامة بن جندل التميمي، وعامر بن الطفيل فارس بني عامر.

وكان العربي يحب ولده حباً جماً، لأنه يخلد ذكره، ويدفع عنه الضيم، وقد خلف لنا التراث الجاهلي مواقف عديدة عبرت عن حب العرب لأولادهم، وصورت مدى تعلقهم بهم، وقد تجلت عاطفة الأبوة بأسمى معانيها في أحاديثهم، وبينت الضعف الحقيقي للأب أمام ولده، وقد أثر عن العربي القديم الشدة والغلظة، وقوة التحمل للمصاعب والأهوال وشدة بأسه وعزيمته في مواجهة المصائب والنكبات، حتى إذا وصل الأمر إلى فلذة كبده ظهر ضعفه واستسلامه الذي لا يحصى له عنه، ولا مفر له منه، وإذا به يتألم ويتأوه، وهو الذي لا يعرف التألم والتأوه - الظاهران على الأقل - طريقاً إليه. ولم يكن هذا إلا بسبب الابن والتعلق به

(ذكروا أن رجلاً ضرب وطولب بهال فلم يسمح به، فأخذ ابنه وضرب، فجزع. فقيل له في ذلك، فقال ضرب جلدي فصبرت، وضرب كبدي فلم أصبر.) (١) نعم، بهذا كانوا يشعرون - وما يزالون - وأخشى أن أكون مبالغاً أن قلت، بهذا يشعر الأب، أي أب، في كل عصر وأية أمة. وكثيراً ما كان الأبناء هم

(١) محاضرات الأدباء، الراغب الأصبهاني، دارصادر بيروت ١٩٦١، ١: ١٥٥.

عنصر الضغط على الآباء لابتزاز مال منهم أو أخذ اعتراف، أو تسجيل موقف عليهم، وما ذلك إلا لمعرفة نقطة الضعف عند الآباء، بعد أن يتم العجز عن أخذ ما يراد منهم مباشرة.

ويتفاوت أبناء الأب، من حيث الطاعة، والسيرة، والسلوك، والعمر، والفروسية، والذكاء، والفطنة... ولكن إذا سئل أبوهم عن أيهم أحب إليه، لا يجد ما يقول إلا (صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدم) (١) بينما يدرك الأب أن أبناءه يتفاوتون ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يميز بينهم، ذلك لأنه عاجز عن القول بأن أحدهم أحب إليه من الآخر، خاصة وبينهم الصغير، أو المريض، أو الغائب، فهل تراه يقدر على التمييز بينهم، والإفصاح عن إيثاره لأحدهم دون سواه فيما لو انعدمت الأسباب الثلاثة التي أوردتها؟ هذا ما أشك فيه.

وتطالعنا امرأة هذه المرة، هي فاطمة بنت الخشرب، وقد سئلت عن بنيتها وكانوا سبعة، وكانها - في جوابها - تجعل الشك، الذي سبق أن أوردناه، يقيناً، فهي في حيرة من أمرها، لا تقر على قرار، انظرها كيف تحجب (الربيع، لا بل أنس، لا بل قيس، وعيشي ما أدري، أما والله ما حملت واحداً منهم تضعاً، ولا ولدته يتناً، ولا أرضعته غيلاً، ولا منعته قيلاً، ولا أبتة على ماقه) (٢).

ويصل حب فاطمة - هذه - لأولادها، بأن تضحي بحياتها في سبيلهم، خشية أن يلحق بنيتها عار، وذلك عندما أسرها حمل بن بدر الفزازي، فرمت بنفسها على رأسها من البعير الذي كانت تركبه فماتت. روى صاحب الأغاني أنه (أغار حمل بن

(١) عيون الاخبار، ابن قتيبة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣، ٣: ٩٢.
(٢) الأغاني (طبعة دار الثقافة) ١٧: ١١٧. والتضع: الذل. واليتن: ان تخرج رجلا المولود قبل رأسه ويديه في الولادة. والغيل: أرضعته وهي حامل. والقيل: النوم في القائلة وعلى ماقه: على بكاء.

بدر وأخوته، وفاطمة راكبة على جل لها، فقادها بجملها، فقالت له أي رجل ضل حلمك، والله لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك التي أمامنا ورائنا، لا يكون بينك وبين بني زياد صلح أبداً، وحسبك من شر سماعه. قال إني أذهب بك حتى ترعي على إيلي. فلما أيقنت أنه ذاهب بها، رمت بنفسها على رأسها من البعير فماتت خوفاً من أن يلحق بنيتها عار فيها(١). فهذان مثلان تجسدهما بنت الخشرب وتصور فيهما حب المرأة العربية لأولادها ذلك الحب الذي يقتل أهله في بعض الأحيان كما حدث مع صاحبتنا فاطمة.

وروعة حب العربي لولده، حينما يقف أمام خيارين، بين حبه لزوجته وإيثاره لها وبين حبه لولده من زوجة أخرى وتفضيله عليها. وأية زوجة أخرى تلك إنه ابن أمة سوداء. إن موقفاً كهذا يجعل البدوي - يكون خجلاً من ابنه الذي أنجبته أمة، بل يكون خجلاً من نفسه من تلك الغلطة التي ارتكبها، وقبل الزواج من أمة سوداء. ذلك الزواج الذي غالباً ما كان يتم نتيجة نزوة عابرة، من الرجل تجاه أمته، وإذا بها تحمل وتنجب ابناً لا مفر له عندئذ من الالتزام به والمحافظة عليه. أما أمه فسرعان ما تنقطع العلاقة بينه وبينها. لقد نقل إلينا صاحب الأمالي خبراً كهذا، تجسد فيه سمو المحبة الأبوية للإبن، التي تنم على حقيقتها، وترجم أحاسيس ومشاعر قائلها. قال. «كانت لعمرو بن شأس امرأة من رهطه، يقال لها أم حسان بنت الحارث، وكان له ابن يقال له عرار، من أمة له سوداء، فكانت تعيره به، وتؤذي عراراً ويؤذيها، وتشتمه ويشتمها، فلما أعيت عمراً بالأذى والمكروه في ابنه، قال الكلمة التي فيها هذه الأبيات:

(١) المصدر السابق. ١٧ : ١١٩.

أَلَمْ يَسْأَلْنِي صَحَوْتُ وَأُنْسِي
 تحملت حتى ما أعارمُ منَ عرمٍ (١)
 وأطرت أطراق الشجاع ولو رأى
 مساعاً لنايه الشجاع لقد أزم (٢)
 فإن عراراً أن يكن غير واضح
 فأني أحب الجون ذا المنكب العمم (٣)
 وإن عراراً أن يكن ذا شكيمة
 تقاسينها منه فما أملك الشيم
 أردت عراراً بالهوان، ومن يرد
 عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
 فإن كنت مني، أو تريدني صحبتي
 فكوني له كالسمن رب على الأدم
 وإلا فسيري مثل ما سار راكب
 يتم خمساً ليس في سيره يتم (٤)(٥)

وكان عدم إنجاب الأولاد، يترك أماً وحسرة في نفوس الرجال، ويجعلهم يعيشون في حرمان وضعف واستكانة لأن مجتمعهم مجتمع قوة وقهر. وبيئتهم بيئة عنف وقسوة، ولا يقهر هذا إلا العصابة من الرجال الأقوياء القادرين على الوقوف في وجه كل خطر، ورد كل معتد، وحماية الحمى والعرض والمال. من هنا كان

(١) عرم: خرج عن الحد، أصابه بأذى.

(٢) أزم: عض، اشتد

(٣) العمم: الطويل.

(٤) اليتم: البطء.

(٥) الأماي للقالبي (طبعة المكتب التجاري ببيروت). : ١٨٨، ١٨٩.

العربي يعبر عن حاله، إذا كان محروماً من نعمة الأبناء، بأساليب مختلفة، إلا أنها تلتقي في النهاية لتكشف عما يعيشون فيه من ذل، وعن تصويرهم للضعف الذي ألم بهم، ولا حيلة لهم في الخروج منه، أو الخلاص من أمره. وقد صور أبو براء عامر ابن مالك موقفاً من هذه المواقف المحزنة المؤلمة، حينما ضعّفه بنو أخيه وخرّفوه، ولم يكن له ولد يحميه، فأنشأ يقول^(١):

دَفَعْتُكُمْ عَنِّي وَمَا دَفَعُ رَاحَةَ
 بِشَيْءٍ إِذَا لَمْ تَسْتَعْنُ بِالْأَنَامِلِ
 يُضَعِّفُنِي حَلْمِي وَكَثْرَةَ جَهْلِكُمْ
 عَلِيٌّ وَأَنِي لَا أَصُولُ بِجَاهِلِ

أرأيت تشبيهه لنفسه بالراح التي قطعت أناملها، فذهبت قوتها، وأصبح الدفع بها لا يجدي.

وتشبيه الأبناء بالعضد القوية كثير عند الشعراء العرب. لأن الأبناء كانوا يمثلون العضد بحق لدى آبائهم في حمايتهم لهم ولقبيلتهم وعرضهم، وفي حفاظهم على منزلهم ومركزهم بين القبائل العربية الأخرى، ولذلك رأيناهم يعربون عن هذا بوضوح، فهذا أحدهم يقول: (٢)

مَنْ كَانَ ذَا عَضْدٍ يَدْرِكُ ظِلَامَتَهُ
 إِنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ عَضْدُ
 تَنْبُو يَدَاهُ إِذَا مَا قَلَّ نَاصِرُهُ
 وَيَأْنَفُ الضَّمِيمُ إِنْ أَثْرَى لَهُ عَدْدُ

(١) العقد الفريد ٢: ٤٤٠.
 (٢) المصدر السابق ٢: ٤٤١.

فذلك، إذن، في قلة أبنائه، وإدراكه لحاجته لهم.

وهناك من يشبه الأعداء بالذئاب، المفترسة المنقضة على قطعان الغنم لتأخذ منها ما تريد، وأنى تشاء. ويشبه أبناء الكلاب الحامية لهذه القطعان. فإذا ما وجدت تلك الذئاب المجال خالياً من كل حارس، وقطعان الأغنام في الخلاء، سرعان ما تهجم عليها وتفترس منها ما يعجبها، ولكنها أن رأت الحارس القوي الأمين، فإنها (تتقي سورة المستنفر الحامي). انظره يعبر عن هذا فينشد: (١)

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقي سورة المستنفر الحامي

وبظهور الإسلام، ونزول القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ، تم القضاء على الجاهلية الأولى، بكل ما فيها من تعصب وتزمت، وأساليب عند العرب وغيرهم فيها بعد عن الحياة الإنسانية الكريمة. وأصبح الناس في الإسلام سواسية، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. ولا ظلم ولا سلب ولا نهب. ولا استغلال لضعيف، ولا تسلط لظالم. ولا مفاخرة بهال ولا جاه ولا سلطان، ولا عصبية ولا قبلية، إنها أكرمكم عند الله أتقاكم. الأمر الذي خفف من حدة العصبية، وأبطل كثيراً من الدوافع التي كان من بينها يطمح العربي في أن يكون له أبناء. ومع ذلك فقد بقيت عاطفة الأبوة هي هي. وبقيت محبة الأبناء والشغف بهم على حالها. وكان لا بد للقرآن الكريم من أن ينبه إلى عدم الإسراف في تلك العاطفة وذلك الحب للأبناء لما له من مزالق وشطط، فيدعو شغف الأب بأولاده إلى نسيان ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم ومجتمعهم. ونحن لا نغفل أن نذكر بأن القرآن الكريم نص على أمور وأحداث قبل الإسلام، وبالتالي كان مجالها في العصر الجاهلي. إلا أننا

(١) نفسه .

أثبتناها هنا، لأنها تنسجم مع السياق القرآني، والمنهج السماوي الذي كان في هذا العصر، وكان يدعو الناس إلى إتباعه.

من ذلك أن الله سبحانه وتعالى نص في كتابه العزيز في ثلاثة مواضع، على أن الأولاد زينة، مما زين للناس في الحياة الدنيا، وأن الجانبيين الآخرين اللذين رافقا الأولاد فيما زين للناس هما المال والنساء في موضع، والمال فقط في موضعين. ذكر الله جل شأنه بهذا، وبين أن هذه الزينة مؤقتة في الحياة الدنيا، ولكن الله عنده حسن الثواب في الآخرة. فيجب أن لا ينساق الناس في حبههم وشغفهم بأبنائهم إلى الحد الذي ينسيهم الخالق تجلّت قدرته.

قال تعالى: ﴿المالُ والبنونُ زينةُ الحياةِ الدنيا، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً، وخيرٌ أملاً﴾ (١) أرأيت كيف خصّ الله البنين دون البنات بالزينة، وهو يصور مشاعر الناس حينئذ، ويصور مواقفهم من الأولاد وحبههم لهم، وهم الذين مر بنا الحديث عنهم في جاهليتهم. فالقرآن الكريم، وهو يقرر حقيقة واقعة لدى الآباء والأمهات، يذكرهم بأن الباقيات الصالحات عند الله خير من المال والبنين. وفي موضع ثان يفصل القرآن الكريم أسباب ذلك الحب للمال والبنين، فهما ليسا زينة في الحياة الدنيا حسب، بل هما مجال للتكاثر بين الناس. ذلك أن أكثرهم أموالاً وأولاداً هو أكثرهم فخراً واعتزازاً بنفسه، قال تعالى ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد﴾ (٢).

وهنا لا بد أن نلاحظ مرة ثانية أن الله جل وعلا، أكد على الأولاد الذين كانوا يدورون في خلد الناس. وأما البنات فلا مجال للتفاخر والتكاثر بهن عندهم. وفي

(١) سورة الكهف ٤٦.

(٢) سورة الحديد ٢٠.

الموضع الثالث، اقترنت النساء بالمال والبنين، فيما زين للناس، مع شيء من التفصيل في المال، وكان في هذه الزينة إشباع للشهوات. ولنتظر أين جاء ذكر النساء في المواضع الثلاثة، أنه مع (حب الشهوات)، لتمثل البلاغة القرآنية والدقة في التعبير والتصوير. وما الشهوة إلا نزوة عابرة، وكثيراً ما تجر صاحبها إلى المزالق الخطرة من أجل إشباعها، وسرعان ما يعرض صاحبها أصعب الندم على ارتكابها.

قال سبحانه: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمَسُومَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ (١).

وما يزين للانسان يدعوه إلى أن يفتن به. وهكذا كان حال الناس قبل الإسلام، الأمر الذي دعا إلى أن ينتبه المسلمون إليه، ويتعدون عنه. ومن هذه الأمور التي زينت للناس وتحدثنا عنها هي المال والأولاد، فنص الخالق عليهما في موضعين من كتابة الحكيم، فقال في الموضع الأول ﴿واعلموا أنها أموالكم وأولادكم فتنة، وإن الله عنده أجر عظيم﴾ (٢). وأعاد الكلام بنصه تقريباً في سورة ثانية، زيادة في التأكيد والتذكير فقال ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم﴾ (٣).

وقد كانت تصل فتنة الناس بأولادهم وأموالهم إلى إنكار الرسالات، وإعلان الكفر بها، وحثهم في ذلك أنهم أكثر أموالاً وأولاداً، وكان هذين عاصمان لهم من العذاب يوم القيامة، انظرهم كيف يردون على الرسل ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذبين﴾ (١).

(١) سورة آل عمران ١٤ .

(٢) سورة الانفال ٢٨ .

(٣) سورة التغابن ١٥ .

(٤) سورة سبأ ٣٤، ٣٥ .

وكانت الفتنة بالأبناء هي هي في سورة الكهف، في ذلك الحوار الذي دار بين رجلين ضرب الله بهما مثلاً، ففاخر أحدهما الآخر بما أوتيته من جنة وأولاد، «فقال لصاحبه وهو يحاوره، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً» (١) حتى إذا ردَّ صاحبه عليه وقد آمن بالله، وأراد أن يعوضه الله ما هو خير من الجنة. أما الأولاد فلم يرد ذكر لهم على لسانه، وكأنه يتعلق بهم، ويود أن يكون له من الولد ما يسعد به، انظره يجيبه «قال له صاحبه وهو يحاوره... ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله أن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك...» (٢) أما الأولاد، فلم يتحدث عنهم لأنه يتمناهم على ما اعتقد.

وتتجسد عاطفة الأبوة عند الأنبياء والرسل، في حبهم للأبناء في ذلك، شأن كافة البشر في كل زمان ومكان. فزكريا عليه السلام حرم من نعمة الأبناء، وما كان عليه إلا أن يدعو الله أن يرزقه ابناً يرثه، ﴿وزكريا إذ نادى ربه، ربّ لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ (٣).

فكأنه عليه السلام، يشعر بوحشة من قلة الأبناء، ويريد من يؤنسه بهم، فيدعو الله بذلك. ويواصل زكريا دعوته فيقول ﴿واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً، فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيعاً﴾ (٤). وإذا ما كان لأحدهم ولد، فإنه يحرص على أن يكون من المؤمنين، ويشفق عليه من عذاب الله. ويبذل معه جهداً كبيراً من أجل اصلاحه. هكذا كان حال نوح عليه السلام مع ابنه حين عصى الله. وهنا تتجلى عاطفة الأبوة، فنوح

(١) سورة الكهف ٣٤.

(٢) سورة الكهف ٤٠.

(٣) سورة الانبياء ٨٩.

(٤) سورة مريم ٥، ٦.

يركب في سفينة مع من آمن معه، وهو على يقين من نفاذ أمر الله في أن يهلك من ليس معه. إلا أنه لا ييأس من ابنه، فيدعوه لأن يركب معه، وهو في سفينته التي تسير في موج كالجبال، ينادي ابنه، لثلا يكون مع الكافرين الهالكين، انظره وهو في سفينة (وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)(١). إلا أن ابنه يرفض ذلك، ويقول إنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، ويحييه والده بأن لا عاصم اليوم من أمر الله، ويجول بينهما الموج ويكون ابنه من المغرقين. وتبقى عاطفة الأبوة قوية متأججة، ولا ييأس نوح من ربه بعد أن يثس من ابنه، فيتوجه إليه داعياً لابنه بالغفران من عند الله ﴿ونادى نوح ربه، فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾(٢). إنه قلب الأب الذي لا يقسو على ولده مهما ارتكب من ذنب، وإن كان في أمر الله.

وكان فرعون يسلك سبيل قتل الأبناء وهو يعذب قومه، لإدراكه أن أشد عوامل التعذيب العنيف لهؤلاء القوم هو قتل أبنائهم، لذلك نجاهم الله سبحانه وتعالى من هذا البلاء العظيم: ﴿وإذ نجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم، ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾(٣).

وقد حرم النبي محمد ﷺ من الأولاد نتيجة وفاتهم وهم في سن الطفولة. وقد تألم عليه السلام لوفاتهم، وبكى ولده إبراهيم بكاء مرأً. وكان رسول الله ﷺ يجد في حبه ومداعبته لابني فاطمة بنته، الحسن والحسين، ما يعوضه عما فقدته من أبناء. فكان يداعبها ويلاعبها، ويثبها حبه وعطفه وحنانه، حتى أن الأقرع بن حابس

(١) سورة هود ٤٢.

(٢) سورة هود: ٤٥.

(٣) سورة البقرة: ٤٩.

التمييزي شاهده يوماً يلعب الحسن ويقبله فقال له: إن لي عشرة من الأولاد، ما قبلت واحداً منهم. فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه. ما أصنع إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك (١). وروى عنه أنه قال: ربح الولد من ربح الجنة. (٢) وذلك لما يجده الأب في ولده من طمأنينة وأنس، لا يجده في مكان آخر، وأكثر من هذا، إن الأب يشعر أن ولده قطعة منه، ولا غنى له عنه. وكان حب الأبناء متغلغلاً في نفس النبي، وكان عليه السلام مدركاً لأبعاده، عارفاً بتأثيره في الآباء، وانعكاسه على سلوكهم وتصرفاتهم، الأمر الذي جعله يقول لأحد ابني بنته: إنكم لتجبنون، وإنكم لتبخلون وإنكم لمن ريحان الله.

إنها الحقيقة التي يكشف عنها رسولنا الكريم بجلاء ووضوح. فكم بخل الآباء بأموالهم، وحرموا أنفسهم من كثير مما هم في شوق ومحبة له من أجل توفير ما لديهم من مال لأولادهم، كي يكونوا في رخاء من العيش. وكم تردد الأب في الأقدام على المخاطر والمغامرة، وما يمنعه ويجعله يتردد إلا أبنائه الذين يخشى عليهم الذل والعازة بعد وفاته.

وعندما أراد قرة بن حنظلة الخزاعي الهجرة مع المسلمين الأوائل، كان أبوه حنظلة شيخاً عجوزاً، قد أقعده الدهر، وتعاقب السنون، وكان متمسكاً بأهداب الشرك والضلال. فأراد حنظلة رد ابنه عن وجهته، ليرعاه ويخدمه، إذ إنه رباه ورعاه مذ كان طفلاً، غمره بعطفه وحنانه. ويصعب عليه فراقه في هذه السن المتقدمة. ولكن كيف له أن يرد ولده وقد أصبح رجلاً ناضجاً مؤمناً، وهو لا يحاول رده إلا من باب الحب له، وكأنه في دعوته هذه يوجهه نحو الصواب، وهو يدعوه للضلال في الواقع. توجه الأب لابنه بحديثه عن ضعفه وعن رغبته في بقائه

(١) محاضرات الادباء ١: ٥٥٥.

(٢) محاضرات الادباء ٣: ٩٤.

بجانبه، والسبب الحقيقي في هذه الدعوة هو الحب، وليس الضعف الذي صرح به، يدلنا على ذلك تعبيره عن الحزن الذي كان عليه، فهو (بادي الحزن)، وأصبح وحيداً، (والها في الديار) بل إنه (يبكي لوحده ذا شجن)، إنه حب الأب لولده الذي لم يستطع الحديث عنه مباشرة، إلا أن عاطفته غلبته فصرحت به في تضاعيف شعره، انظره يخاطبه فيقول (١)

أقولُ لقرةً إذ سولتُ

له النفس تركَ الكبيرَ اليقنُ
أقرّةً ربّما ليللةً
غبقتكَ فيها صريحَ اللبنِ
أحينَ فشا الشيبُ في لمّتي
وأفنى شبابي مرُّ الرمنِ
تروّحتَ في التّفرّ الرّائحينِ
(م) وخلّيتُ شيخكَ بادي الحزنِ
وأفردتهُ والهاً في الديارِ
(م) بصرفهُ الدهرُ في كلِّ فنٍ
قليلَ الكلامِ بطيءَ القبا
م يبكي لوحدتهِ ذا شجن
أردتُ به الأجرَ فيما زعمتُ
وتتركُكَ شيخكَ عينُ الغبنِ

وأبيات الخطيئة التي استعطف بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذائعة الصيت

(١) الأماي للقالى ٢ : ٣٠٥ . واليقن : الشيخ الكبير، وغبقتك : سقاه الغبوق، أي في العشي . واللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

وقد تمثل فيها تعلق الشاعر بأبنائه، وقلقه عليهم، خشية أن يلحق بهم الضيم في غيبته عنهم، وهم (زغب الحواصل لا ماء ولا شجر): (١).

ماذا تقول لأفراخ بندي مَرخ
زُغَبِ الحَوَاصِلِ لا مَاءً ولا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلَمَةٍ
فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يا عَمْرُ

وقالوا. بكى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو الأب، والخليفة العادل حينما سمع هذه الأبيات وعفا عن الشاعر، أو قل: عفا عن الشاعر ليس من أجله وإنما من أجل صبيته الذين تحدث عنهم الشاعر. وكيف لا يعفو الخليفة العادل عن رجل أب لأطفال هذا حالهم:

فامْنُنْ على صبية بالرَّمْلِ مَسْكَنَهُمْ
بَيْنَ الأَبْطاحِ تَغْشَاهُمْ بها القُرُرُ
أهلي فِداؤك كم بيني وبينهم
من عَرَضِ داويةٍ تَعْمى بها الخُبْرُ

أرأيت الخطيئة - الأب - يختلف كلياً عن الخطيئة الشاعر الهجاء - الذي لم يترك واحداً في عصره إلا وهجاه - حتى إنه هجا نفسه. أرأيت كيف كان مستسلماً ضعيفاً بسبب أولاده.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، يرى أن الأولاد يتركون حسرة وكمداً في النفس بموتهم، ويكونون فتنة لأبائهم في حياتهم، قالوا: نظر مرة إلى رجل يحمل طفلاً على عنقه، فقال له (ما هذا منك؟ قال: ابني يا أمير المؤمنين. قال: أما أنه إن

(١) الاغاني (طبعة دار الكتب) ٢: ١٨٨.

عاش فتنك، وإن مات حزنك(١).

وحديث الآباء، يطول مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلا أنه لا يمكننا التعرض لسيرته دون التعرّيج على قصته المعروفة مع أمية بن الأسكر الكناني، وابنه كلاب، هذه القصة التي تداولتها كتب الأدب وأعجب بها الكتاب والنقاد، وكانت مثلاً حياً صادقاً على حب الآباء للأبناء، قالوا (لما وجه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الجيش إلى اليرموك، قام إليه أمية بن الأسكر الكناني فقال: يا أمير المؤمنين، هذا اليوم من أيامي، لولا كبر سني. فقام عليه ابنه كلاب - وكان عابداً زاهداً - فقال: لكني يا أمير المؤمنين، أبيع الله نفسي، وأبيع دنياي بآخرتي، فتعلق به أبوه، وكان في ظل نخلة له، وقال: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيراً، حتى إذا احتاجا إليك تركتهما. فقال: نعم أتركهما لما هو خير لي، فخرج غازياً بعد أن أرضى أباه فأبطأ. وكان أبوه في ظل نخلة له وإذا حمامة تدعو فرخها، فرآها الشيخ، فبكى، فرأته العجوز يبكي فبكت فأنشأ يقول:

لَمَنْ شَيْخَانٌ قَدْ نَشَدَا كِلَابًا
كِتَابَ اللَّهِ إِنْ ذَكَرَ الْكِتَابَا
أَنَادِيهِ وَيَعْرِضُ لِي حَنِينٌ
فَلَا وَأَبِي كِلَابٌ مَا أَصَابَا
تَرَكْتِ أَبَاكَ مُرْعَشَةً يَدَاهُ
وَأَمَّكَ مَا تَسْبِغُ هَا الشَّرَابَا

(١) العقد الفريد ٢: ٤٣٩.

فلإنَّ أباكَ حينَ تركتَ شيخُ
 يطارِدُ أينقاً شزباً جذاباً (١)
 إذا رفعتَ أرقالاً سراعاً
 أثرنَ بكلِّ رابيةٍ تراباً (٢)
 طويلاً شوقه يبكيك فرداً
 على حزن ولا يرجو الإيابا
 إذا غنت حمامةً بطن وجَّ
 على بيضاتها ذكرت كلابا

فبلغت هذه الأبيات عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأرسل إلى كلاب فوافاه
 فقال: إنه بلغني أن أباك وجد لفراقك وجداً شديداً، فيماذا كنت تبره؟ قال: كنت
 أبره بكل شيء، حتى كنت أحلب له ناقة، فإذا حلبتها عرف حلبتي. فأرسل عمر -
 رحمه الله - إلى الناقة، فجيء بها من حيث لا يعلم الشيخ، فقال له: أحلبها، فقام
 إليها وغسل ضرعها، ثم حلبها في إناء، فأرسل عمر رحمه الله بالإناء إلى أبيه، فلما
 أتى به بكى ثم قال: أي أجد في هذا اللبن ريح كلاب فقلن له نسوة كن عنده:
 كبرت وخرفت، وذهب عقلك. كلاب بظهر الكوفة، وأنت تزعم أنك تجد ريحه،
 فأنشأ يقول.

أعاذل قد عدلت بغير علم
 وهل تدري العواذل ما ألقى
 فأما كنت عاذلتني فردي
 كلاباً إذ توجه للعراق

(١) شزب: ضامرة
 (٢) أرقالاً: طويلة.

ولم أفض اللبانة من كلاب
 غداة غد، وأوذن بالفراق
 فتى الفتيان في عسر ويسر
 شديد الركن في يوم التلاقي
 فلا والله ما باليت وجدي
 ولا شفقي عليك ولا اشتياقي
 فلو فلق الفؤاد حماطاً وجد
 لهم عليك وجهي بانفلاق (١)
 سأستعدي على الفاروق رباً
 له حج الحجيج على اتساق
 وأدعو الله مجتهداً عليه
 ببطن الأخشبين إلى دفاق
 إن الفاروق لم يردد كلاباً
 إلى شيخين ما هما توأقي

فقال له عمر: اذهب إلى أبيك، فقد وضعنا عنك الغزو، وأجرينا لك العطاء (٢).

والقصة - على طولها، وعلى ما فيها من مبالغة، وشيء من الوضع - أثبتناها لما لمسنا فيها من روعة وجمال، وصدق وعاطفة، حتى وإن كان الخيال قد ساهم بقسط منها.

ومن علامات شغف المسلمين الأوائل بأبنائهم ترقيصهم لهم وتعبيرهم عن هذا

(١) حماط القلب: سواده وحبته.
 (٢) عيون الاخبار ٣: ٩٧، الاغانى ١٨: ٢٥٦

الشغف بأشعار رقيقة، قصيرة، تدرج في إطار الأغنية لا القصيدة، من ذلك قول
الزبير بن العوام، وهو يرقص أبنا له: (١)

أبيضُ من آل أبي عتيق
مباركٌ من ولد الصديق
ألذهُ كـها ألذ ريقِي

ومن هذه العلامات، اصطحابهم لأبنائهم في كل مكان يذهبون اليه كما كان
يفعل عبدالله بن عمر بن الخطاب مع ولده سالم، حتى أن الناس لاموه في ذلك،
فأجابهم بقوله (٢):

يلومونني في سالم وألومهمُ
وجلدة بين العين والأنفِ سالمُ

وكانوا يشمون لأبنائهم رائحة طيبة، ونكهة خاصة، تجعلهم يتغنون بها، وكأن
أولادهم يتميزون بتلك الرائحة، كما كان حال الحسن البصري وهو يرقص ابنه
وينشد (٢):

يا حبذا أرواحهُ ونفسُهُ
وحبذا نسيمُهُ وملمسُهُ
والله يبقيه لنا ويجرسُهُ
حتى يجمر ثوبَهُ ويلبسهُ

وحال أعرابية كانت ترقص ولدها وتقول (٣):

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٣٨ هـ - ١٩٦٨ م.
(٢) العقد الفريق ٢: ٤٣٧.
(٣) المصدر السابق: ١: ٢٧٨.

يا حبذا ريحُ الولدِ
ريحُ الخزامى في البلدِ
أمكـذا كلُّ ولدِ
أم لم يلدْ قبلي أحدْ

*** ** **

وإذا وصلنا للعصر الأموي، نلاحظ أن الخلفاء الأمويين يعنون بأبنائهم عناية خاصة ويعربون عن حبهم لهم، ويهتمون بتربيتهم. وقد حفلت كتب الأدب بأخبارهم في هذا الجانب، إذ ترسخ في أذهانهم أن أولادهم لا بد أن يرثوهم في الخلافة، مما يدعوهم إلى رعايتهم وتربيتهم تربية سليمة عمادها، الزعامة والحنكة، وحسن إدارة شؤون الدولة. وبين لنا في النهاية مدى تعلقهم بأبنائهم، وإيثارهم لهم، في تعيينهم من بعدهم وأخذ البيعة لهم قبل وفاتهم.

ويقف في مقدمة هذا الصنف من الأمويين، معاوية بن أبي سفيان مؤسس دولتهم، وأكثرهم ذكاء ودهاء. فقد كان مفتوناً بولده يزيد، مهيباً له: لخلافته بعد وفاته. روى أن الأحنف بن قيس - حليم العرب في عصره - دخل على معاوية ويزيد بين يديه (وهو ينظر إليه إعجاباً به، فقال يا أبا بحر، ما تقول في الولد، فعلم ما أراد، فقال يا أمير المؤمنين، هم عماد ظهورنا، وثمرة قلوبنا، وقرّة عيوننا، بهن نصول على أعدائنا، وهم الخلف منا لمن بعدنا. فكن لهم أرضاً ذليلة، وساء ظليلة. إن سألك فاعطهم، وإن استعتبوك فاعتبهم. لا تمنعهم رفقك، فيملوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطنوا وفاتك.

فقال لله دوك يا أبا بحر، لقد دخلت عليّ وإني لملموء غضباً على يزيد، فسألته

من قلبي . (١)

ومن أخبار خلفاء بني أمية ما أثر عن عبدالمك بن مروان، وحبه لابنه الوليد وتدليله له، حتى أنه قال (أضربنا في الوليد حبنا له، فلم نؤدبه، وكان الوليد أدبنا)(٢)

وتتمثل عظمة حب الولد، عند وفاته، ويرافق هذا الموقف الإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى وبالاستسلام لأمره. يظهر جلال الموقف ورهبته مع الرجال العظماء الأجلاء، في مواجهتهم للصعاب، كما حدث للخليفة التقي السورع عمر بن عبدالعزيز، الذي وقف بجوار ولده عبدالمك، وهو يصارع الموت، ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وإذا به يتمنى أن يكون هو البديل لولده في الوفاة، لأنه يود أن يكون ابنه مبراً من كل أثم، طاهراً من كل سوء، ومن أجل ذلك يفضل أن تحتسب روحه وحسناته لفلذة كبده، على أن يحتسب ولده له عند الله. إنها عاطفة الأب المؤمن العاشق الواله لولده الذي يفديه بروحه، انظره يخاطبه فيقول (كيف تجردك يا بني؟ قال: أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خير لك مني. قال والله يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. قال وأنا والله لأن يكون ما تحب، أحب إلي من أن يكون ما أحب)(٣)

وحب الأولاد يتضح أكثر عند آبائهم، إذا قيس بموتهم، ويكون أكثر وضوحاً ودلالة على مكانتهم في النفس، إذا قيس فقدهم بفقد سواهم من الأهل. إنها مقارنة سليمة أن يسأل الإنسان عن موت الأب والزوج والأخ والابن، لنعرف بعدها مكانة الإبن بين هؤلاء، الذين يقفون في المقام الأول من عواطف الإنسان

(١) الامالي للقالبي ٢ : ٤١ .

(٢) العقد الفريد ٢ : ٤٣٩ .

(٣) نهاية الارب ٥ : ١٦٥ .

بالآخرين وصلته بهم . وهكذا كان حال رجل يسأل رجلاً عارفاً خبيراً بأمور الدنيا والدين ، هو عبدالله بن أبي بكرة عن اولئك الذين ذكرناهم واحداً واحداً ، على هذا النحو (ما تقول في موت الوالد؟ قال : ملك حادث . قال فموت الزوج؟ قال عرس جديد . قال : فموت الأخ؟ قال : قصُّ جناح . قال : فموت الولد؟ قال : صدع في الفؤاد لا يجبر)(١) أرايت موت الولد ماذا يفعل بالوالد؟ إنه حسرة وألم لم يجبر حتى آخر الدهر .

ومن روائع القصص التي وصلتنا عن العربي وحبه لابنه في العصر الأموي ، تلك المشادة التي جرت بين أبي الأسود الدؤلي ، وامرأته ، حول ابن كان لها منه ، وأراد أبو الأسود أخذه منها ، فرفضت ، واحتكما إلى زياد والي البصرة (فقاتل المرأة : أصلح الله الأمير ، هذا ابني ، كان بطني وعاءه ، وحجري فناءه ، وثديي سقاءه . أكلؤه إذا نام ، واحفظه إذا قام . فلم أزل بذلك سبعة أعوام ، حتى إذا استوفى فصاله ، وكملت خصاله ، واستوكت (٢) أوصاله ، وأملت نفعه ، ورجوت دفعه ، أراد أن يأخذه مني كرهاً . فأدني (٣) أيها الأمير ، فقد رام قهري ، وأراد قسري . فقال أبو الأسود : أصلحك الله ، هذا أبني حملته قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وأمنحه علمي ، وألهمه حلمي ، حتى يكمل عقله ، ويستحكم فتله . فقاتل المرأة : صدق أصلحك الله ، حمله خفياً ، وحملته ثقلاً . ووضعته شهوة ، ووضعته كرهاً . فقال له زياد : اردد على المرأة ولدها ، فهي أحق به منك ، ودعني من سجعك (٤) . لقد صدق زياد ، وعدل في حكمه ولكن هيهات أن يقتنع أبو الأسود ويضحى بابنه .

(١) عيون الاخبار ٣ : ٩٢ .

(٢) استوكت : اشتدت

(٣) ادني : قوتي

(٤) الامالي ٢ : ١٢ .

وكثيراً ما أغضب الأبناء آباءهم . وتركوا في نفوس الآباء غيظاً وحنقاً . انعكس على معاملتهم لهم وفي أشعارهم ، وتمنوا موتهم - كل هذا في لحظة الغيظ - ولكن إذا ما تعرض الولد لمكروه، نسي الأب نفسه وسارع إلى إسعاف ولده ونجدته لأن ساعة الغضب لا يعول عليها، ولا تعكس ما في حقيقة النفس . وقد تجسد هذا الموقف مع رجل زمن عبدالملك بن مروان كان له ابن عاق اسمه منازل، فتألم الشيخ من ابنه وعقوقه، وسوء معاملته له، فدعا عليه دعوة، لو دعاها (على جبل الريان لانقض جانبه)، اسمعه ينشد: (١)

جَزَتْ رَحْمٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنَازِلِ
 جِزَاءٌ كَمَا يَسْتَجِزُّ الدِّينُ طَالِبُهُ
 تَرَبَّتْ حَتَّى صَارَ جَعْدًا شَمْرَدَلًا
 إِذَا قَامَ سَاوِي غَارِبِ الْفَحْلِ غَارِبُهُ (٢)
 تَظْلَمُنِي مَالِي، كَذَا، وَلَوْ يَدِي
 لَوْ يَدُ اللَّهِ الَّذِي لَا يَغَالِبُهُ
 وَإِنِّي لِدَاعِ دَعْوَةٍ لَوْ دَعَوْتَهَا
 عَلَى جَبَلِ الرِّيَّانِ لَانْقَضَ جَانِبُهُ

أرأيت الأُم الذي كان يعانیه الأب . وقسوة الابن على أبيه، يبدد ماله، ويلوي يده . ويسمع الأمير بأبيات الشيخ، ويريد عقاب الابن فيرسل في طلبه، ويعلم الشيخ بالخبر . فما تراه يفعل؟ يصحو من غفلته، وينسى ماله، وألم يده، ويهب لنجدة ولده ليفلت من يدي الأمير، ويقول لابنه (أخرج من خلف البيت، واسبق رسل الأمير) هذه هي حقيقة الأب وعاطفته، وليست تلك الأبيات التي قالها ساعة

(١) عيون الاخبار ٣: ٨٦ .
 (٢) تربت: تربي . جمدا شمردلا: فتى قويا .

الانفعال والغضب .

وبلغ من حب الرشيد لأولاده أن فضل أن يكون المعتصم أمياً، على أن يذهب إلى الكتاب على غير رغبته . فقد روي أن الرشيد قال لابنه المعتصم (ما فعل وصيفك فلان؟ قال مات فاستراح من الكتاب . قال أو بلغ منك هذا المبلغ . والله لاحضرتة أبدأ، ووجهه إلى البادية، فتعلم الفصاحة)(١)

ويطالعنا في العصر العباسي رجل يزجر زوجته، وقد كانت تنحي ابنه عنه، ويرفض هذا، لأنه يمثل روحه وحياته، وهو بدونه لا شيء . ولا يتوقف عند الزجر بل يحنوها من هذا الصنيع لأن فيه (زلة ليس بعدها جبور)، وكأنه يوحى بها بفراقها إن ظلت على هذا الحال :

أزحنةً عني تطردينَ تبدلتِ
بلحْمك طيرٌ طرنَ كلَّ مطيرِ
قفي لا تزي زلةً ليسَ بعدها
جبورٌ، وزلاتُ النساءِ كثيرُ
فإني وإياهُ كرجلي نعامة
على كلِّ حالٍ منْ غنيٍّ وفقيرِ

ويعلق أبو علي القالي على هذه الأبيات بقوله: (وليس شيء من البهائم الا وهو إن انكسرت إحدى رجليه انتفع بالأخرى، إلا النعامة)(٢).

ويصل إعجاب الأب بابنه أن يصفه بصفات تتنافى مع حقيقته، الأمر الذي يجعل الإنسان في حيرة من تعليل ذلك . فقد (مر أعرابي ينشد ابنا له عند قوم، فقالوا:

(١) العقد الفريد: ٢: ٤٤٠ .

(٢) الامالي: ٢: ١٨٨ .

صفه، قال: دينير. قالوا: لم نره. فلم يلبث القوم أن جاء على عنقه بجعل(١).
قالوا: ما وجدت ابنك يا أعرابي؟ قال: نعم، هو هذا. قالوا لو سألت عن هذا
لأخبرناك، ما زال منذ اليوم بين أيدينا(٢) عجباً أهو حب الأب لابنه ذلك الذي
جعل صفة العبد الذميم، ديناراً ناصع البياض؟ ريباً. أستغفر الله. أجل، وأكثر من
الدينار بل مثل القمر.

(١) الجعل: الاسود الذميم.
(٢) البيان والتبيين ٢: ١٩٨.

موقفهم من البنات

قال تعالى في محكم كتابه ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ (١). بهذه الآية الكريمة صور الله جلّت قدرته موقف العربي في جاهليته، من البنت، وهو تصوير ينم على بغض شديد لها، من قبل أبيها، ومن قبل المجتمع الذي يحيط بها. ولو أردنا أن نبحث عن مسوغات لهذا البغض، في ذلك العصر، فإننا لن نفلس من الوقوف على عدد منها، على أننا نحترس ونقول، إن هذه المسوغات، وإن كانت لا تتفق مع آرائنا وآراء الكثيرين غيرنا في القديم والحديث، إلا أنها كانت قوية، ولا تخلو من منطق في المجتمع الجاهلي.

من هذه المسوغات، أن البنت، التي هي بعد ذلك المرأة، تمثل عرض الرجل الذي كان يحرص عليه حرصاً شديداً، وكان هذا يكلفه جهداً كبيراً في الحفاظ عليه لئلا يعير به، فيحط من قدره وكرامته في مجتمعه.

(١) سورة النحل، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

ومنها ما سبق أن تحدثنا عنه، من أن الحياة العربية في البيئة الصحراوية كانت حياة قاسية، يتعرض الإنسان فيها إلى الحروب والغارات، مما يدعو إلى توفر الفرسان المغاوير لا النساء القاصرات.

ومنها - بعد ذلك - السبي الذي كانت تتعرض له المرأة، وما يلقيه على أهلها وقومها من تبعات مادية ومعنوية تكون فوق ما يطيقون في كثير من الأحيان.

كل هذه الأمور - وأمور أخرى غيرها - كانت تدعوهم إلى أن يختاروا أقصر الطرق، على ما فيها من ألم، ومنافاة للشعور الإنساني فيكون الواد للبنات والكره لهن.

وعلى ما في كره البنات، ووأدهن، من منافاة للذوق السليم، وخروج على الطبيعة الإنسانية، فقد احتفظت لنا كتب الأدب بشيء من أقوال العرب وأشعارهم في هذا الجانب.

من هذه الأقوال، ما أثر عنهم، من قولهم لمن رزق بأنثى. (آمنكم الله عارها وكفاكم متونتها، وصاهرتم القبر). ومنها قولهم (دفن البنات من المكرمات). وقد قيل لأعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أحبث من بنت(١).

وكثيراً ما أفصحوا عن رغبتهم في أن يكون القبر صهرهم، ورأوا فيه خير الأصهار قال شاعرهم:

لكل أب بنتٌ يُرَجَى بقاؤها
ثلاثة أصهارٍ إذا ذكرَ الصهرُ

(١) المحاسن والمساويء، ٣٥٥.

فبيتٌ يغطيها، وبعلٌ يصونها
وقبرٌ يواريهما، وخيرُهُم القبرُ

وأنشد آخر:

إني وان سبيقَ إلي المهـرُّ
ألفٌ، وعبـدَان، وذودٌ عشرُ
أحب أصهـاري إلي القبرِ (١)

ومع شيوع هذا البغض، والوَاد في العصر الجاهلي، إلا أنه كان (كثير من عقلاء العرب لا يرتضي هذا الفعل (وَأد البنات) وكان جمع منهم يفتدون هذا النوع من الموءودة من أهلها. وكان زيد بن عمرو بن نفيل، يحیی الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته، لا تقتلها، أنا أكفيك مئونها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مئونها) والأحياء هنا مجاز، والمراد بإحيائها إبقائها.

وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق يشتري البنت ممن يريد وأدها خشية الإملاق فأحيا ستاً وتسعين موءودة إلى زمن النبي ﷺ. وفي ذلك يقول الفرزدق مفتخراً:

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالبُ
وعمروٌ ومنا حاجبُ والأقارغُ

..... وقال:

ومنا الذي منعَ الوائدا
ت وأحيا الوئيدَ فلم يـوَادِ (٢)

(١) طبقات الشعراء ٢: ٥٦١. محمد بن سلام الجمحي. دار المعارف بمصر. ١٩٥٢.
(٢) بلوغ الأرب. محمود شكري الأوسي ط. ٣. دار الكتاب العربي بمصر ٣: ٤٥.

هكذا كان يفعل أشراف العرب وكرامهم وكانوا يعتزون بهذا، حتى أن صعصعة ابن ناجية قال في نفسه عندما أحيأ أول موءودة: ان هذه المكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب(١). إلا أننا نلمس من قول صعصعة هذا، أن إحياء الموءودات لم يكن كثيراً في عصره.

وقد استكره معن بن أوس كره البنات، وعجب من أولئك الذين يكرهون البنات، وكأنهم لم يدركوا ما لهن من حسنات، وما فيهن من نساء صالحات، وهن اللواتي لا يملن البكاء والعيول والندب على فقيدهن من الرجال، قال(٢):

رأيتُ أناساً يكرهون بناتهم
وفيهنَّ لا تكذبُ نساءٌ صوالحُ
وفيهنَّ والأيامُ تعثرُ بالفتى
نوادبُ لا يملنَّه ونوائحُ

(١) الاغاني، ١٩ : ٣.
(٢) الاغاني، ١٠ : ١٥٦.

- ٣ - حبهم لهنّ

ولكن هل يعني ما سبق، أن عاطفة الأبوة تجاه البنت قد ماتت عند العرب، وأن البنت بما تتمتع به، من أنوثة ورقة ونعومة، وعطف، وخدمة لأبويها، ورعاية لهما، هل البنت بكل هذه الصفات الجذابة الخلافة التي حباها الله بها، قد وجدت قلباً كالصخر في كل الأحيان ولم تستطع أن تؤثر فيها، وتجعلها ترق وتلين فتلتفت إلى ما فيها من جمال؟ وهل إذا كانت البنت عرضة للسبي، وغير قادرة على خوض غمار المعارك والحروب، تكون عندئذ عالة على أهلها، بحيث يمكن الاستغناء عنها، وقتلها شر قتلة، بدسها في التراب؟ والعربي، بذكائه الفطري، وإحساسه المرهف، هل غاب عنه، أنه لولا البنت لما كان الولد؟ .

إن ما بين أيدينا من مادة تؤكد عكس هذا كله، وتبين لنا أن العربي كان - في أغلب أحيانه - يمتزج حبه لبنته بحرصه وخوفه عليها، لمعرفته بمدى ضعفها وقد صور أعرابي هذا الموقف في أبيات تحدث فيها عن بنات صغار له، قد شلت حركته بسبيهن، ولماذا؟ لأنهن فلذات كبده تمشي على الأرض. أرايت كيف حقيقة الأبوة؟ .

إنها تجاه الولد هي هي تجاه البنت . وإن الريح لو هبت عل بنت من بناته، فإن
عينه لا تنام، وإن باله لا يهدأ، كيف لا؟ وهو لا يملك من رأس مال في حياته إلا
عرضه، ممثلاً في بناته، قال: (١)

لولا بنيات كزغب القطا
حططنَ من بعض إلى بعض
لكان لي مضطربٌ واسعٌ
في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادُنَا بيننَا
أكبادنَا تمشي على الأرض
لو هبت الريحُ على بعضهم
لامتنعت عيني من الغمض
أنزلني الدهرُ على حكمه
من مرقب عالٍ إلى خفض
وابتزني الدهرُ ثيابَ الفتى
فليس لي مالٌ سوى عرضي

وهذا أعراي آخر يطالعنا في موقف إنساني مؤثر، يتعلق بابنة له . يحبها، ويغرم
بحبها، إلا أنه في الوقت نفسه، يتمنى موتها . إنه أمر غريب! وكيف يكون هذا؟
أيجب إنسان إنساناً آخر، ويتمنى موته، أو قل: هل جبه له يدعوه إلى أن يتمنى
موته؟ أجل، هكذا كان حال صاحبنا الذي يعاني الفقر، ويجوب الليالي، في الظلام
الدامس المدلم، يبحث عن العيش الكريم لابنته، التي تغرم بأبيها، وتتمنى أن
يعيش الدهر بينما يتمنى هو أن تموت قبله، ليس كرهاً لها، وإنما شفقة عليها، ورأفة

(١) عيون الاخبار . ٣ : ٩٣ .

بحالها من الفقر، الذي قد يضطرها إلى السؤال الذي يعرضها للذل، وتجلت عاطفة الأب وحنوه على ابنته، في بيته الأخير الرائع:

إذا تذكَّرتُ بنتي حين تندبُني
فاضتْ لرحمةِ بنتي عبرتي بدمٍ

حيث لا قسوة، ولا خشونة في الطبع، إنما الاستسلام والضعف أمام العاطفة القوية الصادقة النابعة من أعماق الأب لتعبر عن دفائن النفس تجاه فلذات الكبد، دون تمييز بين الذكر والأنثى، انظره ينشد(١):

لولا أميمةٌ لم أجزعُ من العدم
ولم أجبُ في الليالي حندسَ الظلمِ(٢)
وزادني رغبةً في العيش معرفتي
ذل اليتيمةِ يجفوها ذوو الرحم
تهوى بقاي وأهوى موتها شفقاً
والموتُ أكرمُ نزال على الحرمِ
أحاذرُ الفقرَ يوماً أن يلمَّ بها
فيهتكُ السترَ عن لحمٍ على وضمِ(٣)
إذا تذكَّرتُ بنتي حين تندبُني
فاضتْ لرحمةِ بنتي عبرتي بدمٍ

ولم يكن هذا الأعرابي وحيداً في شعوره تجاه بنته، وخوفه عليها من الضياع والفقر بعد وفاته، إنما تكرر هذا الموقف عند غيره من الشعراء. حديث عن البنت، وعن الفقر، وعن الحب، وعن الرغبة في موتها - مخافة ميتتي فتضيع بعدي - ومخافة

(١)، (٢) عيون الأخبار. ٣: ٩٤. والحندي: الليل الشديد الظلمة.
(٣) الوضم: خشية الجزار التي يقطع عليها اللحم.

أن تصير إلى لثيم - يرغب الشاعر في أن يكرم الله بنته بقبر، وهي (أعز الناس عندي)، قال (١):

أحب بنيتي وودتُ أني
دفنتُ بنيتي في جوف لحدٍ
وما بغضي لها غرضٌ ولكن
مخافةً ميتتي فتضيعُ بعدي
مخافةً أن تصير إلى لثيم
فيفضحُ والدي ويشينُ جدِّي
فليتَ الله أكرمها بقبر
وإن كانت أعزَّ الناس عندي

ودخل عمرو بن العاص على معاوية بن أبي سفيان، وبنية له تتمرغ على صدره، فقال من هذه؟ قال: هذه تفاعحة القلب. فقال: أمطها عنك يا أمير المؤمنين، فإنهن يقربن الأعداء، ويورثن البعداء. فقال معاوية: لا تقل ذلك يا عمرو، فما مرَّضَ المرضى، ولا نذب الموتى، ولا بر الأحياء كهن. فقال ابن العاص: قد تركتهن عندي آثر من الأبناء (٢).

وضرب المثل في زهد الخوارج في الحياة الدنيا، ورغبتهم الجامحة في الموت ليلحقوا بإخوانهم الشهداء، ولينعموا بنعيم الجنة. لم يكن يقف في وجههم ما يردهم أو يصددهم عن غايتهم أمر مهما كانت خطورته، أو شيء مهما كانت محبته. كانوا على هذا الحال، الرجل منهم والمرأة على حد سواء.

(١) المصدر السابق. ٣: ٩٣.

(٢) عيون الاخبار. ٣: ٩٩.

فهذه امرأة تعبر عن زهداها في حياتها فتشدد:

أهملُ رأساً قد مللتُ حملهُ
وقد مللتُ دهنهُ وغَسَلهُ
ألا فتىً يحمِلُ عني ثقلهُ

وهذا رجل يقول:

من كان يكره أن يلقي منيته
فالموتُ أشهى إلى قلبي من العسلِ

وكان الرجل منهم إذا تخلف عن القتال والتضحية والخروج في سبيل الله، يتعرض للتأنيب والتقريع واللوم من بقية إخوانه الخارجين، كما فعل قطري بن الفجاءة المازني - فارس الخوارج وزعيمهم وشاعرهم - مع أبي خالد القناني، وكان من قعدة الخوارج، فقال له قطري (١):

أبا خالد إنفرتُ فليستَ بخالد
وماً وجعل الرحمنُ عذراً لقاعد
أنزعمُ أن الخارجيَّ على الهدى
وأنتَ مقيمٌ بين لصٍّ وجاحدٍ

فكتب إليه أبو خالد:

لقد زادَ الحياةَ إليَّ جُباً
بنباتي إنهنَّ من الضعافِ
أحاذرُ أن يرينَ الفقيرَ بعدي
وأن يشرِّينَ رنقاً بعدَ صافِ (٢)

(١) الكامل للمبرد، ٣: ١٦٧، طبعة دار نهضة مصر.

(٢) الرنق: الكدر.

وَأَنْ يَغْرِينَ إِنْ كُئِيَ الْجُـوَارِي
فَتَنبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمِ عَجَافٍ
وَلَوْلَا ذَلِكَ قَدْ سَوِمْتُ مُهْرِي
وَلِلرَّحْمَنِ لِلضَّعْفَاءِ كَافٍ
أَبَانَا مِنْ لَنَا إِنْ غَبْتَ عَنَّا
وَصَارَ الْحَيُّ بِعَمْدِكَ فِي اخْتِلَافٍ

أرأيت السبب الذي أقعد أبا خالد. إنه بناته، ووجه لمن وعطفه عليهن وخشيته أن يرين الذل والضميم من بعده.

وكان المأمون وجد على قائد من قواده، فاستصفي ضياعه وداره، وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً، ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض، ويطلب من فضل الله جل وعز، ويخلف بنته. فبكت الابنة، وقبضت على أبيها، وقالت: اقنع بما آتاك الله، واصبر على عن الزمان ونوائب الدهر، والزم الوطن، وارحم وحدتي وضعفي، وقلة حيلتي، أو اذبحني فلا ابتلى بفراقك. فبكى الشيخ وقال:

تَقُولُ ابْنَتِي لِمَا أَرَدْتُ وَدَاعَهَا
وَقَدْ حَضَرْتَنِي نِيَّةً وَرَحِيلُ
لَعَلَّ الْمُنَايَا فِي رِحَالِكَ تَنْبِرِي
لِنَفْسِكَ خِتْلًا أَوْ تَغْوَلُكَ غَوْلُ
فَتَتْرَكْنِي أَدْعَى الْيَتِيمَةِ بَعْدَمَا
تَبِينُ، وَعِزِّي بَعْدَ ذَلِكَ ذَلِيلُ

(١) المصدر السابق. ٣: ٩٣.

(٢) عيون الاخبار. ٣: ٩٩.

أني طلب الدنيا وربك بالذي
تسيرُ له راعٍ عليك كفيلاً
اليسَ ضعيفُ القومِ يأتيه رزقُهُ
يساقُ إليه والبِلادُ محولُ
ويحرمُ جمعَ المالِ من قد يرومُهُ
يكدُّ عليه رحلُهُ ويجولُ
فلو كنت في طودِ على رأسِ هضبة
لها نجفٌ فيه الوعولُ، تقيلُ
مصعدة لا يستطيعُ ارتقاؤها
ولا لنزولِ يستطيعُ سبيلُ
إذا لأتاك الرزقُ يحدهُ سائقُ
حشيتُ ويديه اليك دليلُ

فمنى الخبر إلى المأمون، فدعا بالشيخ، فاستنشده شعره، فأنشده، فرق له وأمر
برد جميع ما أخذ منه، وأعادته إلى مرتبته، وزاده من عنايته (١).

وبعد، فقد عاش يزيد بن زبيبة الشيباني دهرًا طويلًا، حتى لحق زمن الحجاج
وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج، وورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان
يأمره بقتله، فلما دعا به قال له: أيها الأمير، اتق الله بتسع عشرة نسوة لهن قيم
غيري، قال: احضرن. فلما حضرن سألهن الحجاج عن شأنهن فما منهن امرأة إلا
وتقول: اقتلني ودعه. فقامت بنية له صغيرة فبكت بكاء حاراً موجعاً محرقاً،
وأنشأت تقول:

(١) المحاسن والمساوي، ٣٧٨.

أحجاجُ إماً أن تجودَ بنعمة
علينا، وإماً أن تقتلنا معاً
أحجاجُ كم تفجعَ به إن قتلته
ثلاثاً وعشراً واثنيتين وأربعاً
فمن رجلٌ دان يقومُ مقامه
علينا، فمهلاً لا تزدنا تضعضعا(١)

فصاحبات قلوب كهؤلاء، وأقوال كهذه، جذيرات بأن يكون هن التقدير
والحب أضعاف ما للأولاد من حب وعطف.

(١) المصدر السابق ٣٧٩.

الفصل الثاني

مناهج التربية عند العرب

رَفَع

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

يكاد يكون عنوان هذا الفصل كبيراً على مضمونه، لأننا حينما نقول (مناهج التربية عند العرب) يتبادر إلى ذهن القارئ، أنه سيقف على أكثر من منهج، تتمثل فيه أسس وقواعد، استنها العرب في قديمهم، وأصبحت هادياً لهم في الأسلوب الذي اتبعوه فيما بعد لتحقيق هذه المناهج. نعم يتبادر إلى ذهن القارئ هذا، لأول وهلة. وربما يتبادر إلى ذهنه أيضاً تساؤل يقف على الطرف الآخر من القضية وهو، أية مناهج تلك التي كانت عند العرب، في الفترة التي ندرسها على الأقل وهي تنتهي بانتهاء العصر الأموي. وقد كان العرب يعيشون على فطرتهم، ولم تتوفر لديهم سبل الاستقرار والاطلاع التي حدثت في الفترات التالية، والتي دفعتهم دفعاً إلى أن يجددوا ويطوروا في جوانب حياتهم المتعددة ومن بينها منهجهم في تربية أبنائهم.

وبعد، فما مناهج التربية عند العرب في هذه الحقبة؟ لقد كانت مناهجهم تنسجم وطبيعة حياتهم وتفكيرهم، وما يؤمنون به من قيم ومثل سائدة آنئذ. ولو أردنا أن نفتش عن تلك المناهج فإننا نجدها تتردد على ألسنة الأعلام منهم، وذوي الشأن، الذين كانوا على بصيرة من أمرهم، وذوي رأي مسموع يؤخذ بين مجتمعهم، وكانوا أيضاً يعنون بتربية أبنائهم، ويستنون لهم المناهج التي تلائم تفكيرهم ومنزلتهم، وما يطمحون إليه من سؤدد وجاه. يستنون المناهج ويقومون بتطبيقها بأنفسهم، أو

يلقونها لمؤدبي آبائهم، ويدعونهم إلى التمسك بها، وعدم الحياد عنها، كانوا على هذه الحال، وهم يحفظون كتاب الله، ويدرسونه، ويبين الله، جلّ شأنه، لهم أن الأبناء يجب أن يكونوا بارين بآبائهم، ولا يكونون كذلك، إلا إذا نشروا تنشئة سليمة فيها دعوة إلى الإيمان بالله والتمسك بدينه ﴿ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (١).

هذا الدين فيه تشريع للمسلمين تبين من خلاله الحق من الباطل. وما حرم الله وما حلل. وفيه أيضاً مناهج للحياة ولسير الإنسان فيها. وفيها منهج تربوي للابن والأب الصغير والكبير. هذا المنهج الذي اتبعه الآباء في تربية آبائهم ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ (٢).

هذا قليل من كثير، بينه الله للمسلمين، بتفصيل دقيق، ووضوح تام، ومنهج قويم وعاه الآباء من الرسل إلى أن يسيروا على المنهج، وتكون تربيتهم لأبنائهم منسجمة مع ما حرم الله وما حلل. وإذا بلقمان الحكيم يعظ ابنه، ويريه، وترد قصته في كتاب الله، لأنه سبحانه يدعونا إلى السير على هذا الطريق الذي سار عليه لقمان في تربيته لابنه، انظره في موعظته ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم، ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين، أن أشكر لي ولوالديك إليّ المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع

(١) سورة البقرة ١٣٢.

(٢) سورة الأنعام ١٥١.

سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردك فتكن صخرة، أو في السموات أو في الأرض، يأت بها الله، إن الله لطيف خبير. يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعّر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴿١﴾.

هذه موعظة لقمان في كتاب الله. وهكذا كان العرب بعد ذلك في تربيتههم لأبنائهم ومواعظهم لا تبعد عن هذا كثيراً، بل أن هذا هو الأساس والمنطلق بالنسبة لهم في تربيتهم. أعني أن كتاب الله كان من أوائل الأمور التي يعنون بها في التربية، وذلك لما فيه من تشريع، وتعريف بأمور الدنيا والدين، ولما فيه من دروس جاءت على السنة أولئك الرسل السابقين، تتجسد حقيقتها في موضوعنا الذي نعالجه وجاءت على لسان إبراهيم ولقمان عليهما السلام لأولادهما.

وقد وعد الله هؤلاء الذين حثوا أبناءهم على الإيمان، ورسوموا لهم الطريق الصحيح ووضحوه، فكان أن آمنوا بالله ورسوله، وساروا سيرة حسنة في دنياهم، وعد الله هؤلاء المؤمنين بأن يلحق بهم ذريتهم وأن لا ينقص من عملهم شيئاً، بل لهم جزاؤهم على عملهم ولهم أبناؤهم معهم في جنات النعيم ﴿١﴾ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان، ألحقنا بهم ذريتهم، وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴿١﴾. فهنيئاً لهؤلاء المؤمنين الذين آمنوا ايماناً صادقاً ظهر صداه وانعكاسه على ذريتهم من الأبناء والأحفاد فكان جزاؤهم النعيم والخلود.

واقْتداء بكتاب الله، دعا رسول الله ﷺ إلى تربية الأبناء، هذه التربية القويمية،

(١) سورة لقمان ١٣ - ١٩.

(٢) سورة الطور ٢١.

بل أنه عليه السلام، فضل هذه التربية على الصدقة، قال (يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق)(١).

ومرة أخرى يؤكد النبي ﷺ هذا المعنى، ولكن بتفصيل أكثر، وباستشهاد من القرآن الكريم، ليدعم الرأي، ويبين الفضل في تربية الابن وتعليمه قال عليه السلام (...). فالذي يعلم ولده فيحسن تعليمه، ويؤدبه فيحسن تأديبه، فقد عمل في ولده عملاً حسناً، يرجى له من تضعيف الأجر فيه، كما قال عز وجل ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه أضعافاً كثيرة﴾(٢).

وأثر الآباء في أبنائهم بين فيما يعبدون، ويسلكون من سلوك، ألم تكن حجة كفار قريش في عدم إيمانهم أنهم على دين آبائهم سائرون؟ ولا يمكن التخلي عن سيرة الآباء والأجداد؟ أجل بهذا كانوا يتذرعون، وهي ذريعة فيها شيء من منطوق، ذلك أن الطفل يلقن تلقيناً مع الرضاعة عادات وتقاليد وقيم الآباء، الأمر الذي يجعل التخلي عنها فيه صعوبة، وهو بحاجة لجهود وحجة أقوى، وقد وضَّح النبي ﷺ هذه الحال بقوله عليه السلام، (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء، وهي تحس من جدعاء)(٣).

وأخذاً بهذه القيم الروحية، والتعاليم السماوية، واقتداءً بأراء الرسول الكريم، الذي كان لا ينطق عن الهوى، سار العرب المسلمون، يأخذون بكتاب الله، ويجعلونه هادياً ومرشداً لهم. فلا تربية إلا وهو في مقدمتها للأخذ به. ثم تأتي بعد ذلك أمور الحياة الدنيا وما بها من متطلبات. وهكذا كانت دعوة العرب المسلمين لهذه المتطلبات.

(١) الرسالة المفصلة في آداب المعلمين ٣١٠.

(٢) المصدر السابق ٢٤٩.

(٣) نفسه ٢٥٢. وناقة جدعاء: قطع سدس أذنها أو ربعها.

هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقف على رأس المسلمين في خلافته، وتتسع الفتوحات في عهده، وتحتاج الدولة إلى مزيد من الفرسان المجاهدين الفاتحين الأشداء، الذين يدخلون بلاداً لأول مرة، وبيئات ليس لهم بها سابق عهد، هذا عمر، وهذه طبيعة عهده، ويود أن ينصح الآباء في تربية أبنائهم، فبماذا تراه ينصحهم؟ لا شك في أنه سيلح إلحاحاً على ما هو بحاجة إليه، أو قل، ما المسلمون بحاجة إليه في تلك المرحلة. إنهم بحاجة إلى أمر جديد طراً عليهم، وهو ركوب البحر بعد أن كانوا يعيشون في الصحراء، يركبون الخيل والإبل. أما الآن فقد اتسعت الدولة، وأصبحوا تعترضهم الأنهار والبحار، إذن هم بحاجة إلى السباحة. وهم بحاجة إلى حسن التسديد لقنص العدو قبل أن يقنصهم، وهم بحاجة إلى التدريب والمران على ركوب الخيل، وسرعة الوثوب عليها إذا ما أحدق الخطر، أو فوجيء الفارس به. وهم بحاجة بعد ذلك، إلى التعرف على سيرة آبائهم وأجدادهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ولا توجد هذه السيرة آنثذ إلا في الشعر، الذي قالوا عنه، إنه ديوان العرب. وبهذه المتطلبات أوصى العرب عند تعليمهم لأبنائهم، قال (علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليشبوا على الخيل وثباً، ورووهم ما يجمل من الشعر(١)).

ومن الذين عرفوا أهمية السباحة، ويبدو أنه لاقى الصعاب جراء عدم معرفته بها الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان والياً على العراق، وكان يتنقل بين البصرة والكوفة حيث دجلة والفرات، وشط العرب. فدعا معلم ولده إلى أن يعلمه السباحة قبل الكتابة. (٢) إنه أمر مهم، ولا بد من معرفته، بل إنه العقل المتفتح الذي يساير ظروف الحياة والعصر والبيئة، ويدعو إلى مواكبته والتعامل معه بالتعرف عليه.

ومثل السباحة وتعلمها، كان الحساب، في الحياة الجديدة، وكان انتباه العربي إليه

(١) الكامل ١ : ١٨٥ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩٢ .

بنظرة الثاقبة، وإدراكه السريع لأهميته، فجاءت دعوتهم إلى تعلمه مع السباحة. قال ابن التوأم (علم ابنك الحساب قبل الكتاب، فإن الحساب أكسب من الكتاب، ومؤونة تعلمه أيسر ووجوه منافعه أكثر، وفي ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء، أن يعلمه الكتاب، والحساب، والسباحة(١)). أرأيت السبب في هذه الدعوة، إنه الكسب، والعرب، وقريش خاصة، يتعاطون التجارة، ويفرقون بين الربح والخسارة. والحساب من العلوم الجديدة المهمة المسهلة المساعدة على الجمع والطرح، على عقد الصفقات التجارية، وحساب قيمتها وأرباحها بسهولة ويسر، فكان أن دعا ابن التوأم العرب إلى تعلم الحساب بجانب السباحة والكتابة.

وإذا انتقلنا من هذه الدعوات في تعليم الأبناء وتربيتهم لما طرأ عليهم وعلى بيتهم من أمور، إلى نظام التربية العام الذي تمثل في تعليم المربين، وتوجيه الآباء لهم، نلاحظ أن القيم السائدة تكاد تكون متقاربة، مع اختلاف بسيط بين أب وأب، ومرب وآخر.

نقلت لنا كتب الأدب أقوال الحكماء في هذا الباب، وكان فيها شيء من الفلسفة التي تغري الأب بتربية ولده تربية قويمه، ليحقق من ورائها نتائج مرضية. فيها سرور له، وغم لحاسده. فقالوا (من أدب ولده صغيراً، سرَّ به كبيراً) وقالوا من أدب ولده غم حاسده(٢).

إنها أقوال حكماء، من سماتها الإيجاز في اللفظ، والعمق في المعنى، وهذا ما كان يجبذه نقاد العرب ومفكروهم.

والشعر كان ضرورياً في التربية والتعليم. وكان الآباء يحرصون على أن لا يعرف أبناؤهم إلا أحسنه، لفظاً ومعنى، بل إنهم كانوا يأتون بنماذج من هذا الشعر

(١) المصدر السابق ٢: ٩٢.

(٢) العقد الفريد ٢: ٤٣٥.

لمعلمي أبنائهم، كما فعل عبدالملك بن مروان مع مؤدب ولده، حين قال له . (إذا رويتهم شعراً، فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي:

بين الجار حين يبين عني

ولم تأنس إليّ كلابُ جاري

وتظعنُ جاري من جنب بيتي

ولم تُسترَ بسترٍ من جداري

وتأمنُ أن أطالعَ حين آتي

عليها وهي واضعةُ الخمارِ

كذلك هديّ أبائي قديماً

توارثه النجارُ عن النجار

فهدي هديهم وقد أفتلوني

كما افتلي العتيقُ من المهار) (١)

إنها مثل الإباء والعفة وكرم الأخلاق والاعتزاز بكرم المحتد وشرفه، هذا ما تضمنته الأبيات، وهو ما أرادَه عبدالملك، ومن الشعر الذي سيتعلمه أولاده.

وهشام بن عبدالملك، يود أن يعلم ولده، فيحضر له سليمان الكلبي، ويرسم له المنهج الذي يريده أن يسير المعلم عليه، فبعد أن يبين له منزلته من نفسه، ومكانته عنده يحثه على تقوى الله وتأدية الأمانة. يدعوه إلى أن يبدأ معه بكتاب الله، سبحانه وتعالى، ويشني بأحسن الشعر عند العرب، وهو ما حفظه وتربى عليه من أبيه، ويثلك بيوت العرب وقبائلهم وعشائرهم وأخبارهم وأيامهم، وأخيراً يدعوه إلى

(١) الاغاني ١٣ . ٧١ ، ٧٢ . وافتلوني: يقال فلا الصبي والمهر فلوا وأفلاه عزله عن الرضاع وفصله. وافتلته: فطمته. أي فطموني عن جهل الصبا وعقلت. والعتيق: الفرس الرائع الكريم. والمهار، بكسر الميم: جمع مهر، وهو ولد الفرس.

التفقه بالدين بتوضيح الحلال والحرام، انظره يخاطبه قائلاً (إن ابني هذا، هو جلدة ما بين عيني، وقد وليتك تأديبه، فعليك بتقوى الله، وأد الأمانة. وأول ما أوصيك به، أن تأخذه بكتاب الله. ثم روه من الشعر أحسنه. ثم تخلل به في إحياء العرب فخذ من صالح شعرهم، وبصره بطرف من الحلال والحرام والخطب والمغازي)(١).

لقد أراد هشام بن عبد الملك بطلبه هذا، أن يؤهل ابنه للقيادة من بعده، مثلما أعده أبوه وأهله لها من قبل، ولا تكون هذه القيادة إلا لمن توفرت له، هذه الخصال التي أرادها لولده. تعريف بكتاب الله. وحفظ للشعر. ومعرفة بقبائل العرب، ودراية بأيامها ومغازيها، وتمييز بين الحلال والحرام.

والخليفة الورع عمر بن عبدالعزيز يفتن بابنه، وتغلبه عاطفة الأبوة، ويشعر بهذا، وهو الرجل المؤمن العادل، الذي اشترى الآخرة بالحياة الدنيا، ولا يمكن أن يوافق هواه في ولده، فينحرف عن سواء الطريق، وما كان منه إلا أن دعا معلماً له لاختباره، وكأنه تولى تربيته بنفسه، قال له «إن ابني عبد الملك قد زين في عيني، وأنا متهم لنفسي فيه، وأخاف أن يكون هواي فيه قد غلب على علمي به، وأدركني ما يدرك الوالد من الإشفاق على ولده. فأتته واسبره، ثم اتتني بعمله، ثم انظر هل ترى منه ما يشاكل النخوة، فإنه غلام حدث، لا آمن عليه الشيطان)(٢). هكذا يكون الآباء، وهكذا تكون التربية الحقة. إن الأب ربي ابنه وعلمه، وتعلق بابنه، فأراد أن يعرف مداه، وهل هو كما يريد وكما أراد أم أن الشيطان أظغاه. فما له إلا الامتحان، والامتحان من قبل معلم محايد. ولا أشك في أن ابن عمر نجح في امتحانه، مثلما نجح أبوه في حياته وخلافته فكان مثلاً يحتذى، في العدل والسياسة

(١) محاضرات الادباء ١: ٢٩.

(٢) المحاسن والمساوي ٣٥٢.

الحسنة حتى عدَّ امتداداً للخلفاء الراشدين .

وتسير سيرة الرجال في تعليم أولادهم، وتوجيههم لمعلميهم، في الإطار ذاته الذي تحدثنا عنه . كتاب الله، وستة رسوله، وأجل الشعر وأحسنه . والأخلاق الفاضلة والدفاع عن الحمى والعرض .

وهذا عمرو بن عتبة يدعو معلم ولده، إلى أن يكون مثلاً أعلى، وقدوة حسنة في نظر أبنائه، لأنه ينشأ وهو مقلد له، في السلوك، يستحسن ما يستحسن، ويستهجى ما يستهجى . وبعد أن يعطيه الملاحظة يرسم له منهجاً في التعليم، يقترب من المناهج الحديثة في الترتيب والتنظيم .

لقد كانت مناهجهم في التأليف والكتابة والحديث فيها الشمول والاستطراد، والانتقال من موضوع إلى آخر، حتى أن الموضوع الرئيسي يكاد يضيع بين المواضيع المتزاحمة التي يصيها الكاتب أو المتكلم، أو حتى الشاعر، وما تعدد الأغراض في القصيدة العربية إلا خير شاهد على ذلك . أقول: كانوا يعنون بالاستطراد، والإنسان العالم عندهم، هو الذي يأخذ من كل علم بطرف . هكذا كانوا يعيشون ويفكرون حتى وقت متأخر من تاريخهم . وقد أدرك عمرو بن عتبة هذه الحقيقة، أو قل، هذه الآفة في التفكير، والمنهج، وأراد أن يتخلص منها أبناؤه من خلال معلمهم . فدعا إلى عدم إكراههم على الحفظ من كتاب الله، فيملوه، وفي الوقت نفسه، أمره ألا ينقطع العهد بينهم وبينه فيهجروه . كما حثه على عدم الاستطراد والانتقال من موضوع لآخر، إلا بعد أن ينتهي الكلام منه، والإتيان عليه، لأن (إزدحام الكلام في القلب، مشغلة للفهم) . إنه منهج قويم، نهجه عمرو بن عتبة، يختلف في كثير من جوانبه عن المناهج السائدة في عصره . قال (ليكن أول إصلاحك

لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك . فالحسن عندهم ما صنعت والقيح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تركهم منه فيهجروه . روهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه . ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب، مشغلة للفهم . وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة النساء، ولا تتكل على عذر مني لك، فقد اتكلت على كفاية منك (١).

أما شريح في رسم النهج ذاته، لكنه ينظمه شعراً، ويتمثل في تعليم الصلاة، والقراءة والكتابة، لابنه، وهو في الوقت الذي يألم لترك ابنه الصلاة، وغضبه من ذلك ودعوته معلمه إلى أن يضربه بكرة، وتأنيبه باللوم، في الوقت الذي يدعوه لهذا، فإنه لا يستطيع أن يجبس عاطفته ووجه لابنه وهو (أعز الأنفس) فيطلب أن لا يزيد الضرب عن ثلاث . خشية أن يبكي ويتألم، انظره يقول:

تَرَكَ الصَّلَاةَ لِأَكْلَبِ يَسْعَى بِهَا
يَبْغِي الْمِرَاشُ مَعَ الْغَوَاةِ الرَّجْسِ
فَلِيَأْتِينَكَ غَدَوَةٌ بِصَحِيفَةٍ
كَتَبَتْ لَهُ كَصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ
فَإِذَا أَتَاكَ فَعَضَهُ بِمَلَامَةٍ
وَعَظَّتْهُ مُوعِظَةٌ الْأَدِيبِ الْكَيْسِ
فَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَيُدْرَةُ
وَإِذَا بَلَغْتَ بِهَا ثَلَاثًا فَاحْبِسِ

(١) البيان والتبيين ٢: ٣٥ .

واعلم بأنك ما أتيتَ نفسه
مع ما تجرُّعني، أعزُّ الأنفس (١).

ومما يثلج صدر الأب، ويجعله ينام قرير العين، هانيء البال، مطمئن النفس، تأكده من تربية أبنائه، وأنهم أصبحوا كما أراد لهم. خاصة إذا تقدمت به السن، وأوشك على مفارقة الحياة الدنيا. نقل إلينا صاحب الأمالي خبراً طويلاً، أثبت به بنصه تحدث فيه عن رجل (من مقاول حمير، كان له ابنان، يقال لأحدهما عمرو وللآخر ربيعة. وكانا قد برعا في الأدب والعلم، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره، وأشفى على الفناء، دعاهما ليلو عقولهما، ويعرف مبلغ علمهما. فلما حضرا قال لعمرو، وكان الأكبر: أخبرني عن أحب الرجال إليك، وأكرمهم عليك. قال: السيد الجواد. القليل الانبراد. الماجد الأجداد. الراسي الأوتاد. الرفيع العماد. العظيم الرماد. الكثير الحساد. الباسل الذواد. الصادر الوراد. قال: ومن يكون بعد هذا؟ قال: السيف الكريم. المانع للحريم. المفضل الحليم. القمقام الزعيم (٢). الذي إن هم فعل وإن سئل بذل.

قال: أخبرني يا عمرو بأبغض الرجال إليك. قال: البرم اللثيم. المستخذى (٣) للخصيم. المبطان النهيم. العيي البكيم. الذي إن سئل منع. وإن هدد خضع. وإن طلب جشع. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: غيره أبغض إليّ. قال: من هو؟ قال: النؤوم الكذوب. الفاحش الغضوب. الرغيب عن الطعام. الجبان عند الصدام.

(١) (٢) العقد الفريد ٢: ٤٣٥.

والهراش: الخصام والقتال، وغلب على الكلاب والحيوانات.

والكيس: الحسن الفهم والأدب.

وصحيفة المتلمس: تضرب مثلاً لمن يحمل كتاباً فيه حفته، وقصة المتلمس مع عمرو بن المنذر مشهورة معروفة.

(٢) القمقام: العظيم.

(٣) استخذى: اتضع وانقاد.

قال: أخبرني يا عمرو. أي النساء أحب إليك؟ قال: الهركولة اللفاء (١).
 الممكورة الجيداء (٢). التي يشفى السقيم كلامها. ويرى الوصب إمامها التي إن
 أحسنت إليها شكرت. وإن أسأت إليها صبرت. وإن استعبتتها أعتبت. الفاترة
 الطرف. الطفلة الكف (٣). العميمة الردف (٤). قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال:
 نعت فأحسن وغيرها أحب إلى منها. قال: ومن هي؟ قال: الفتانة العينين.
 الأسيلة الخدين. الكاعب الثديين. الرдах الوركين (٥) الشاكرة للقليل. المساعدة
 للحليل. الرخيمة الكلام. الجماء العظام (٦). الكريمة الأخوال والأعمام. العذبة
 اللثام.

قال: فأبي النساء أبغض إليك يا عمرو؟ قال: القتانة الكذب (٧). الظاهرة
 العيوب. الطوافة الهبوب. العابسة القطوب. السبابة الوثوب. التي إن أئتمنها
 زوجها خانتها. وإلا لان لها أهانتها. وإن أرضاها أغضبتها. وإن أطاعها عصته. قال
 ما تقول يا ربيعة؟ قال: بس والله المرأة ذكر. وغيرها أبغض إلي منها. قال وأيتهن
 التي هي أبغض إليك من هذه؟ قال: السليطة اللسان. المؤذية للجيران. الناطقة
 بالبهتان. التي وجهها عابس. وزوجها من خيرها آيس. وغيرها أبغض إلي منها.
 قال: ومن هي؟ قال: التي شقي صاحبها. وخزي خاطبها. وافتضح أقاربها.
 قال: ومن صاحبها؟ قال: مثلها في خصالها كلها. لا تصلح إلا له، ولا يصلح إلا
 لها. قال: فصفه لي؟ قال: الكفور غير الشكور. اللثيم الفجور. العبوس الكالاح.

(١) الهركولة اللفاء: الحسنة الجسم والخلق والمشية.

(٢) الممكورة الجيداء: ذات السيقان الطويلة الفارعة.

(٣) طفلة الكف: ناعمة.

(٤) العميمة الردف: تامته وعظيمته.

(٥) رдах الوركين: ضخمتها.

(٦) جماء العظام: كثرة اللحم.

(٧) القتانة: النمامة.

الحرون الجامح . الراضي بالهوان . المختال المنان . الضعيف الجنان . الجعد البنان .
القؤول غير العقول . الملول غير الوصول . الذي لا يرع عن المحارم . ولا يرتدع
عن المظالم .

قال : أخبرني يا عمرو ، أي الخيل أحب إليك عند الشدائد؟ إذا التقى الأقران
للتجالد قال : الجواد الأنيق . الحصان العتيق . الكفيف العريق . الشديد الوثيق .
الذي يفوت إذا هرب . ويلحق إذا طلب . قال : نعم الفرس والله نعت . قال : فما
تقول يا ربيعة؟ قال : غيره أحب إليّ منه . قال : وما هو؟ قال : الحصان الجواد .
السلس القياد . الشهم الفؤاد . الصبور إذا سرى . السابق إذا جرى .

قال : فأبي الخيل أبغض إليك يا عمرو؟ قال : الجموح الطموح . النكول
الأنوح . الصؤول الضعيف . الملول العنيف . الذي إذا جاريتة سبقته . وإن طلبته
أدركته . قال : ما تقول يا ربيعة؟ قال : غيره أبغض إليّ منه . قال : وما هو؟ قال :
البطيء الثقيل . الحرون الكليل . الذي إن ضربته قمص . وإن دنوت منه شمس .
يدركه الطالب . ويفوته الهارب . ويقطع بالصاحب . قال ربيعة : وغيره أبغض إليّ
منه . قال : وما هو؟ قال : الجموح الخبوط . الركوض الخروط (١) . القطوف في
الصعود والهبوط . الذي لا يسلم الصاحب . ولا ينجو من الطالب . قال : أخبرني
يا عمرو ، أي العيش ألد إليك؟ قال : عيش في كرامة . ونعيم في سلامة . واغتراب
مدامة . قال : ما تقول يا ربيعة؟ قال : نعم العيش والله وصف . وغيره أحب إليّ
منه . قال : وما هو؟ قال : عيش في أمن ونعيم . وعز وغنى عميم . في ظل نجاح .
وسلامة مساء وصباح . وغيره أحب إليّ منه . قال : وما هو؟ قال : غنى دائم

(١) الخروط : الجموح .

وعيش سالم . وظل ناعم .

قال : فما أحب السيوف إليك يا عمرو؟ قال : الصقيل الحسام . الباتر المجذام (١)
الماضي السطام (٢) . المرهف الصمصام . الذي إذا هزرته لم يكب . وإن ضربت به لم
ينب . قال : ما تقول يا ربيعة؟ قال : نعم السيف نعت . وغيره أحب إلي . قال :
وما هو؟ قال : الحسام القاطع . ذو الرونق اللامع . الظمان الجائع . الذي إذا هزرته
هتك . وإذا ضربت به بتك .

قال : فما أبغض السيوف إليك يا عمرو؟ قال : الفطار الكهام (٣) . الذي إن
ضربت به لم يقطع . وإن ذبح به لم ينجع (٤) قال : فما تقول يا ربيعة؟ قال : بش
السيف والله ذكر . وغيره أبغض إلي منه . قال : وما هو؟ قال : الطبع الددان (٥)
المعضد المهان .

قال : فأخبرني يا عمرو أي الرماح أحب إليك عند المراس ، إذا اعتكر الباس .
واشترج الدعاس (٦)؟ قال : أحبها إلي المارن المثقف (٧) . المقوم المخطف . الذي إذا
هزرته لم ينعطف . وإذا طعنت به لم ينقصف . قال : ما تقول يا ربيعة؟ قال : نعم
الرمح نعت . وغيره أحب إلي منه . قال : وما هو؟ قال : الذابل العسال . المقوم
النسال . الماضي إذا هزرته . النافذ إذا همزته .

قال : فأخبرني يا عمرو عن أبغض الرماح إليك؟ قال : الأعصل (٨) عند الطعان

-
- (١) المجذام : سريع القطع .
(٢) السطام : حد السيف .
(٣) الفطار الكهام : الكليل الذي لا يقطع .
(٤) نجع بالشاة : بلغ بذبحها القفا .
(٥) الددان : الذي لا يقطع .
(٦) الدعاس : الطعن بالرمح .
(٧) المارن والمثقف : من اساء الرمح الصلب .
(٨) اعصل الرمح : التوى في الرمي وابطأ .

المثلث السنان. الذي إذا هزرتة انعطف. وإذا طعنت به انقصف. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: بش الرمح ذكر. وغيره أبغض إليّ منه. قال: وما هو؟ قال: الضعيف المهز. اليبس الكز الذي إذا أكرهته انحطم. وإذا طعنت به انقصم. قال: انصرفا، الآن طاب لي الموت(١).

وهل له إلا أن يهدأ ويستريح، وتطيب له الحياة، ويموت وهو راض. لأنه خلف ولدين خبرا الحياة، وجاء على ما فيها من صالح وطالح، وجميل وقبيح، حسن ورديء، وهل لهما أن يكونا كذلك؟ لولا تنشئة ذلك الشيخ الطاعن الذي قضى عمره وهو يرعاهما ويربيهما تلك التربية التي آتت أكلها، وأية تربية تلك؟ إنها التربية الجامعة المانعة كما يقول الفقهاء، التي تناولت أمور الحياة من كافة نواحيها. من حيث الخبرة بالرجال والتعامل معهم، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة صفات الأبى الكريم، وصفات اللثيم الخنوع. ومن حيث معرفة المرأة، وهي شريكة الحياة، وصفاتها الحسنة والرديئة. ثم من حيث التعرف على الرجولة والبطولة ووسائلها، من سيف ورمح وحصان، إنه اختبار للابنين رائع، بل قل، إنها مناظرة رائعة، كانت بين هذين الولدين أمام أبيهما، وإذا بها فرسا رهان، سيران جنباً إلى جنب، لم يستطع أحدهما أن يبيز الآخر، وهما مارقان كالسهم في تلك الخبرة العميقة، والمعلومات الغنية، والقيم الرفيعة السامية التي يؤمن بها كل منهما. وهل لنا أن نطالب الآباء بأكثر من هذا في وقتنا الحاضر، في تربية أبنائهم، مع مراعاة الفارق في متطلبات الحياة وظروفها، وهل يمكن أن نتوخى نتائج أروع وأعظم من هذه التي بين أيدينا؟ ليتنا نطالبهم بهذا لنجني نتائج كهذه. وكم وددت أن أوجز الخبر، إلا أنني وجدت فيه فائدة، أمل أن يلقاها القارئ فيه ليشاركني ضرورة إثباته.

(١) الامالي ١: ١٥٢ - ١٥٤.

وبعد، فإن المناهج التي تعرضت لها عند العرب في هذه الفترة على ما فيها من بساطة إلا أنها كشفت لنا عن إعدادهم لأبنائهم في التعليم والتربية. ووصاياهم للمعلمين بتلك التي يرسمونها. وإنما سناها أكثر جلاء في وصاياهم للأبناء أنفسهم بعد أن يشبوا ويصبحوا في معترك الحياة. وهذا ما سنعالجه فيما يلي من سطور إن شاء الله.

الوصايا

مر بنا أسلوب التربية والإعداد والتعليم للأبناء، عند آبائهم، وعند المعلمين الذين كانوا يتتدبون لهذه الغاية. مع رسم للأسلوب والمنهج الذي يجب أن يسيروا عليه. ومر بنا - كذلك - ما كان يريده أولياء الأمور في التربية، بما ينسجم مع متطلبات الحياة، وظروف العصر. وتكون هذه المرحلة في السنين الأولى للطفل. وقبل أن يشب ويضع، ويكون لديه القدرة على إبداء الرأي، والأخذ بالفكرة أو تركها. ولهذا فيمكننا أن نعتبر تلك المرحلة هي مرحلة (التعليم الإلزامي) التي يتمثل فيها إلزام الطفل بما يريده الأب. وإعطائه الفكرة والمنهج الذي يرسمه الأب. ألم يمر بنا أن بعض الآباء طلبوا من معلمي أبنائهم ضربهم؟. نعم كانوا يطلبون هذا. وكانوا يقومون به. لأنهم فيما أرى قادرون عليه. ولأن سن الطفل ما زالت لا تساعده على التمرد والرفض لهذا الضرب. وقد بين رسولنا الكريم - عليه السلام - هذا حين دعا الآباء إلى تعليم أبنائهم في السابعة، وضربهم في العاشرة، ومصاحبتهم في الخامسة عشرة. إنه تقسيم المربي الخبير العالم بخفايا النفس ومراحلها وأبعاد كل مرحلة منها. نضربهم في العاشرة نعم. أما في الخامسة عشرة فلا، بل المصاحبة. لأن الفتى يكون عوده قد اشتد كما يقولون. وطموحه بدأ يظهر ورغبته في أن يكون رجلاً ذا رأي مسموع، ومكانة مرموقة. إلى هذا يتطلع فكيف بنا

ونحن نضربه لنقومه ونعلمه . أظن هذا ما لا طائل لنا به .

وانطلاقاً من إدراك العربي لما سبق . كانت أساليبه في التربية تتلاءم وهذه السن فسلك أسلوب الوصية التي يمكن للمرء أن يأخذ بها أو يرفضها . وأكاد أقطع في أنهم حددوا سن الخامسة عشرة فاصلاً بين مرحلتي الصبا والطفولة ، ومرحلة الإدراك والوعي والاستقلال بالرأي . أقطع بهذا لما نص عليه الرسول الكريم . ونص عليه عمرو بن عتبة حين قال (لما بلغت خمس عشرة سنة ، قال لي أبي . يا بني ، قد قطعت عنك شرائع الصبا ، فالزم الحياء تكن من أهله . ولا تزايله فتبتين منه . ولا يغرنك من اغتر فيك فمدحك بما تعلم خلافه من نفسك ، فإنه من قال فيك ما لم تعلم ، إذا رضي ، قال فيك من الشر مثله إذا سخط . فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء تسلم من غب عواقبهم(١) .

إذن فالوصايا كانت المجال الثاني من مجالات التربية . وقد أثرت وصايا كثيرة للأبناء من قبل آبائهم . ويقف في مقدمتها ، وصايا لقمان الحكيم لأبنائه التي رددتها الأجيال واعتزت بها ، لورود ذكره في القرآن الكريم ، وحثه لأبنائه على الإيمان والتقوى ، في كتاب الله . وقد شاعت الوصايا على السنة الحكماء ، بدون تحديد لعصرهم أو أسمائهم ، الأمر الذي يجعلني أرجح أنها قيلت في العصر الجاهلي ، أو العصر الإسلامي ، لأنها تنسجم مع وصايا لقمان ، وورود جزء منها في القرآن الكريم .

فما أوصى به لقمان ابنه قوله له (أي بني ، إني قد ندمت على الكلام ولم أندم على السكوت)(٢) . وقال له (إذا رأيت مجلس قوم فارمهم بسهم السلام ، ثم

(١) العقد الفريد ٣ : ١٥٤
(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٦٩ .

اجلس، فان أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك مع سهامهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتخل عنهم وانهض. وقال يا بني، استعذ بالله وكن من خيارهم على حذر. وقال: لا تركز إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فإنك لم تخلق لها، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين. يا بني، لا تضحك من غير عجب، ولا تش من غير أرب، ولا تسأل عما لا يعينك. يا بني، لا تضع مالك، وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت. يا بني إنه من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم. يا بني زاحم العلماء بركبتك، وانصت اليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء، كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء(١).

هذه وصايا لقمان الحكيم لابنه، فيها حث على التقوى والصلاح، وعدم التمسك بالحياة الدنيا، إلا بالقدر الذي يخدمه ويساعده للنعيم في الآخرة. فعليه أن لا يشغل قلبه بالدنيا، ولا يركز لها لأنه (لم يخلق لها). كما قرر لقمان في وصيته لابنه في أن يكون سكوته أكثر من كلامه، وينقل إليه تجربة شخصية مر بها، ذلك أنه ندم على الكلام وما ندم على السكوت. وإن كان لا بد له من الكلام، فلا بد أن يكون في الخير ليغنم وإن كان في الباطل سيأثم. وما أروع لقمان في وصيته الأخيرة، حين دعا ابنه إلى الإنصات لأقوال العلماء، وما أجمل التشبيه الذي جاء به ليدل على حياة القلب بنور العلماء (كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء).

وكررت وصايا الحكماء لأبنائهم بعد لقمان، وكأنها لحكيم واحد هو لقمان، أو حكيم آخر قالها ونسبها إلى لقمان وغيره. لأنها واحدة نصاً وروحاً. وهي - على أية

(١) العقد الفريد ٣: ١٥٢.

حال - سواء كانت لواحد أو لأكثر، وسواء كانت للقبان أو لسواه، فإنها تبنىء
بمشاعر القوم وأحاسيسهم ومناهجهم - آنذاك - في وصاياهم لأبنائهم.

قال حكيم لابنه (يا بني، إن أشد الناس حسرة يوم القيامة، رجل كسب مالاً
من غير حلة فأدخله النار، وأورثه من عمل فيه بطاعة الله فأدخله الجنة). وقال
بعضهم (يا بني، إقبل وصيتي وعهدي، إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار، كسرعة
اختلاط قطر المطر بهاء الأنهار. وبعد قلوب الفجار من الائتلاف، كبعد البهائم من
التعاطف، وإن طال ائتلافها على آري واحد. كن يا بني، بصالح الوزراء أغنى
منك بكثرة عدتهم، فإن اللؤلؤة خفيف حملها، كثير ثمنها، والحجر فادح حمله
قليل غناه. .

وقال ثالث (يا بني، إني موصيك بوصية، فإن لم تحفظ وصيتي عني، لم تحفظها
عن غيري إتق الله ما استطعت، وان قدرت أن تكون اليوم خيراً منك أمس، وغدا
خير منك اليوم فافعل. وإياك والطمع، فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك
لن تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه. وإياك وما يعتذر منه، فإنك لن تعتذر من
خير أبداً. وإذا عثر عائر فاحمد الله أن لا تكون هو. يا بني، خذ الخير من أهله،
ودع الشر لأهله، وإذا قمت إلى صلاتك فصل صلاة مودع، وأنت ترى أن لا
تصلي بعدها أبداً(١).

وقال رابع (يا بني، إياكم والجزع عند المصائب، فإنه مجلبة للهم وسوء الظن
بالرب، وشهامة للعدو. وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمين، فإني والله
ما سخرت من شيء إلا أنزل بي مثله، فاحذروها وتوقعوها، فإنما الإنسان غرض
تعاوره السهام فمجاوز له، ومقصر عن يمينه وشماله، حتى يصيبه بعضها.

(١) الامالي ١ : ٢٣١.

واعلموا أن لكل شيء جزاء ولكل عمل ثواباً.

وقد قالوا: كما تدين تدان، ومن بر يوماً بر به. وقال الشاعر:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناس

حوادثه أناخَ بآخرينا

فقل للشَّامتِينَ بنا أفيقوا

سيلقي الشامتون كما لقينا(١).

وهذا حكيم آخر يقول لابنه، (يا بني إن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً،

ووجدت هواك يقظان، فإياك أن تستبد برأيك، فإنه حينئذ هواك)(٢).

وقال أعرابي لابنه، يا بني أنه قد أسمعك الداعي، وأعذر إليك الطالب،

وانتهى الأمر فيك إلى حده، ولا أعرف أعظم رزية من ضيع اليقين، وأخطأه

الأمل(٣).

إنها ذات الوصايا، التي لحظناها عند لقمان، إن لم تشبهها، فهي تسير على

نهجها، ويكمل بعضها بعضاً، وفيها تعميم في السلوك، حتى إذا ما انتقلنا إلى

صنف آخر من الوصايا، نلمس فيها تخصيصاً، وحديثاً عن جوانب، فيه تركيز

واستيفاء لم نجد تعرضاً له عند هؤلاء الحكماء الذين هاموا في الله - سبحانه وتعالى -

وحثوا على العمل لرضاه ليغنم الإنسان في الدارين الأولى والآخرة. أما النوع الثاني

فقد حث على ما في الحياة الدنيا، التي توصل في النتيجة إلى ما فيه سعادة في الدنيا

والآخرة، ونجد نماذج لهذا النوع من الآباء، ونماذج لوصاياهم تختلف عن بعضها.

(١) العقد للفريد ٣: ١٥٣.

(٢) نهاية الأرب ٦: ٧٠.

(٣) العقد للفريد ٣: ١٥٣.

فقد أدرك العرب أهمية المرأة، ودورها في بيت زوجها وتربية النشء. فكانوا يبحثون عن شريكة حياتهم، ويحددون مواصفات معينة يجب أن تتوفر فيها، لتكامل السعادة، وتنجب النجباء من الأبناء. وبين أيدينا وصية لأب قالها لابنه في هذه الزوجة، وفي مواصفاتها قال (يا بني، لا تتخذها حنانة، ولا أنانة، ولا منانة، ولا عشبة الدار، ولا كبة القفا)(١). فهو ينهاه عن خمس خصال فيها حط من قدر المرأة، أو فيها إهانة للرجل، أو فيها معاناة معها. وتكاد تكون هذه الخصال باقية حتى يومنا هذا، أو بعضها على أقل تقدير.

وعمر بن كلثوم، الشاعر الجاهلي المعروف، كان من المعمرين، إذ قيل أن عمره بلغ خمسين ومائة عام. ولا شك في أن هذه السن أكسبته خبرة ودربة في أمور الحياة، تجعله يكون بصيرا بها، خاصة وهو الرجل المغامر، المعتز بنفسه وقبيلته، الذي رفض الضيم، وتحدى الملك عمرو بن هند وعرض به حينما أراد أن ينال أمه بالأذى والهوان، فقال معلقته المشهورة ومنها بيته الذي ما زال يتردد على الألسنة:

إذا بلغ الفطام لنا صبي
تحر له الجبابر صاغرينا

شاعرنا هذا جمع بينه، عندما حضرته الوفاة، وأراد أن يوصيهم بخلاصة تجاربه في هذه الرحلة الطويلة مع الحياة، وإذا بها سبع عنده، أولها أن يكف أبناءه عن تعيير الآخرين، وذلك أنه وجد نفسه لم يعير أحداً بشيء إلا عير به. حقاً كان أم باطلاً. وثانيها الإحسان إلى الجار. وثالثها منع ضيم الغريب. ورابعها حسن الاستماع للآخرين والإيجاز في الكلام معهم. وخامسها الشجاعة والاقدام.

(١) الامالي ٢: ٢٥٦. والحنانة: التي لها ولد من سواه فتحن له. والانانة: التي مات زوجها. والمنامة: ذات مال. وعشبة الدار: التي نبتت من الدمن. وكبة القفا: التي يأتي زوجها أو ابنها القوم، فاذا انصرف من عندهم قال رجل من جناء القوم، قد والله كان بيني وبين امرأة هذا المولى أو أمه أمر.

وسادسها التروي عند الغضب . وسابعها الزواج من خارج حيههم . انظره يخاطبهم بقوله (يا بني ، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي ولا بد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت . وإني والله . ما عيرت أحداً بشيء إلا عيرت بمثله ، إن كان حقاً فحقاً ، وإن كان باطلاً فباطلاً ، ومن سب سب ، فكفوا عن الشتم ، فإنه أسلم لكم . وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم . وامنعوا من ضيم الغريب ، فرب رجل خير من ألف ، ورد خير من خلف ، وإذا حدثتم فعوا ، وإذا حدثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار تكون الأهدار . وأشجع القوم العطوف بعد الكر ، كما أن أكرم المنايا القتل . ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب ، ولا من عوتب لم يعتب . ومن الناس من لا يرجى خيره ، ولا يخاف شره . فبكؤه خير من دره . وعقوقه خير من بره ، ولا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض)(١) .

وكان ذو الإصبع العدواني رأس قومه وزعيمهم ، وعاش حتى ستم العيش - على حد تعبيره - وأراد أن يخلفه ابنه أسيد في السيادة والزعامة ورآه لا يكون كذلك إلا إذا حفظ وصيته التي بها ساد في قومه ، وأصبح مصان الجانب مرموق المكانة . فدعاه وقال له (يا بني ، إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتى ستم العيش ، وإني موصيك بما أن حفظته بلغت في قومك ما بلغت . فاحفظ عني . ألن جانبك لقومك يجبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم . واسمح بيالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ ، فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك . ثم أنشد يقول :

(١) الاغاني ١١ : ٥٣ ، ٥٤ ، والاعتاب : رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العاتب . واصل البك : قلة اللبن وانقطاعه ، والمعنى المراد ، فمنعه خير من عطائه .

أَسِيدُ إِن مَالاً مَلَكَتْ
فَسِرْ بِهِ سِيراً جِيلاً
أَخِ الْكَرَامِ إِن اسْتَطَعْتِ
تِ إِلَى إِخْوَانِهِمْ سَبِيلاً
وَاشْرَبْ بِكَأْسِهِمْ وَإِن
شَرِبُوا بِهِ السَّمِ الثَّمِيلَا (١)
أَمِنَ النَّامُ وَلَا تَكُنْ
لِإِخْوَانِهِمْ جَمِلاً ذُلُولَا
إِن الْكَرَامَ إِذَا تَوَلَّوْا
خِيَتَهُمْ وَجَدْتَ لَهُمْ فُضُولَا
وَدِعِ الَّذِي يَعِدُّ الْعَشِيرَا
رَةَ أَن يَسِيرَ وَلَنْ يَسِيرَا
أَبْنِيَّ إِنَّ الْمَالُ لَا
يَبْكِي إِذَا فَقِدَ الْبَخِيلَا
أَسِيدُ إِن أَرْمَعْتَ مَنْ
بَلَدَ إِلَى بَلَدٍ رَحِيلَا
فَاحْفَظْ وَإِن شَحِطَ الْمَرْزَا
رُ أَخَا أَخِيكَ أَوْ الزَّمِيلَا
وَارْكَبْ بِنَفْسِكَ إِن هَمَمْتِ
تِ بِهَا الْحَزُونََةَ (٢) وَالسُّهُولَا

(١) السُّمُّ الثَّمِيلُ: المنقع الذي أنقع إياما حتى اختمر.
(٢) الْحَزُونََةُ: غلاظة الأرض.

ووصل الكرامَ وكن لمن
 تـرجـو مودته وصولا
 ودع التواني في الأمور
 ر وكن لها سلساً ذلولا
 وأبسط يمينك باليمنى
 وامددها باعاً طويلاً
 وأبسط يديك بما ملك
 ت وشيد الحسب الدخيل
 وابذل لضيفك ذات رحمة
 لك مكرماً حتى يزولا
 واحلل على الأيفاع للعد
 أفين واجتنب المسبيل
 وإذا القروم تخاطرت
 يوماً وأرعدت الخصيل
 فاهصر كهصر الليث خضاً
 ب من فريسته التليل
 وانزل إلى الهيججا إذا
 أبطأها كرهوا النزولا
 وإذا دعيت إلى المهمة
 م فكن لفادحه حمولا (١).

(١) المصدر السابق: ٣ : ٩٨ ، ٩٩ ، والقروم: السادة العظام. والخصيل: مفردها الخصلة: كل لحمة فيها عصب. والتليل: المصروع.

إنها روح دعوة عمرو بن كلثوم، يضاف إليها دعوة ذي الإصبع العدواني لابنه، إلى أن يكون سيداً، وما تتطلبه هذه الدعوة من مهام. وأية مهام؟ إنها التي تكلف صاحبها جهداً، وبذلاً لا يتحملة إلا الأقلون، وتتطلب منه جلدًا، وحنكة، قلبًا تمتع بها غيره. وهي مهام السيد الذي يذوب في الذين يسودهم، أو قل يذوب في سييلهم وينفق ماله لتتوفر لهم سبل رخائهم وترفهم. دعوة، ليس فيها مكر ودهاء، بقدر ما فيها حكمة ووفاء.

وقس بن ساعدة الأيادي كان رجلاً عاقلاً فهداه، عركته الحياة وعركها، فكان (ابن بجدتها) - كما يقولون - ويبدو أنه مر بظروف مختلفة، كان يعجز فيها عن إبداء الرأي الحكيم. وهذه الظروف كثيرة متباينة، إلا أن محصلتها واحدة وهي أن العقل لا يستطيع أن يبدع وهو مشغول، وأجزها بقوله لابنه (لا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهداه، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً، فالهم يعقل العقل، فلا يتولد منه رأي، ولا تصدق به روية)(١). لقد صدق قس في نصيحته ورأيه، في أن الهم يعقل العقل. وأي عقل يفك من وثاقه، وصاحبه مشغول أو جائع، أو مذعور، أو مهموم. إن أيا من هذه الأربعة هو كليل بأن يدعو صاحبه إلى من يشير عليه فيما يفعل، لا أن يبدي الرأي لغيره.

حتى إذا جئنا إلى الصحابة والتابعين وأبنائهم نلاحظ أن وصاياهم فيها وعظ وإرشاد لهم، وفيها إيجاز يتعلق أكثره بالسيرة والسلوك وحسن المعاملة. هذا الحسن ابن علي ينصح ابنه بقوله (يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. وتعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثاً، وإن طال حتى يمسك)(٢).

(١) نهاية الأرب ٦ : ٧٦ .

(٢) الامالي ٢ : ١٨٨ .

وأما معاوية بن أبي سفيان، أحد دهاة العرب، في الذكاء والفتنة والسياسة فيدعو ابنه إلى الحلم والتحمل، والعفو عند المقدرة، قال له (عليك بالحلم والاحتمال حتى تتمكنك الفرصة، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور)(١).

ويسير عبدالمملك بن مروان على سيرة معاوية فيدعو أبناءه إلى أن (كفوا الأذى، وابدلوا المعروف، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سئلتهم، ولا تلحوا إذا سألتهم، فإنه من ضيق ضيق عليه، ومن أعطى أخلف الله عليه)(٢).

وفي موقف آخر نلحظ عبدالمملك بن مروان، يحث أبناءه على الفروسية والكرم والعدل ويغريهم بالمملك والسلطان، والخلافة من بعده، إذ لا يحظى بهذا الشأن إلا من توفرت فيه هذه الخصال، انظره يقول لهم (كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب)(٣).

وتتجلى الحكمة والموعظة الحسنة في آل البيت - عليهم السلام - وما آمنوا به من مثل وقيم، بعيدة عن الحياة الدنيا، فكانت وصاياهم إلى أنفسهم قبل أبنائهم، مثلما كان حال زيد بن علي النذي أوصى ابنه فقال له، (يا بني، ان الله لم يرضك لي فأوصاك بي، ورضيني لك، فحذرنك، واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة إلى التفريط، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق)(٤).

أما علي بن الحسين فقال لابنه (يا بني، إصبر على النوائب، ولا تعرض للحتوف

(١) نهاية الارب ٦ : ٥٠ .

(٢) العقد الفريد ٣ : ١٥٤ .

(٣) نهاية الارب ٦ : ٣٥ .

(٤) العقد الفريد ٢ : ٤٣٨ .

ولا تجب أخاك من الأمر إلى ما مضرته عليك أكثر من منفعتك لك(١).

وكان الأشعث بن قيس من أشرف العرب، ومن فرسانهم الصناديد، في موقعة صفين فجمع بين الشرف والبطولة. ولا شك في أن وصيته لأبنائه ستحمل هذه السمات التي تحلى بها في حياته. وأولها حماية العرض، وثانيها الابتعاد عن أموال الناس ودمائهم، وثالثها الابتعاد عما يستحى منه، أو يركب الإنسان من جرائمه من الذنوب، ورابعها الكف عن المسألة، وخامسها منع النساء من غير الأكفاء، وسادسها عدم التعالي على عامة الناس. وحاول الأشعث، أن يبين الأسباب التي دعت به إلى النصيحة بكل واحدة ويبين ما لها وما عليها، انظره يقول (يا بني، لا تذلوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم، ولتخف بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإن لكل امرئ تبعه، وإياكم وما يعتذر منه ويستحى، فإنها يعتذر عن ذنب، ويستحى من عيب، وأصلحوا المال لخشوة السلطان، وتغير الزمان، وكفوا عند الحاجة عن المسألة، فإنه كفى بالرد منعا، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قدرا، وامنعوا النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم، وكونوا في عوام الناس، ما لم يضطرب الحبل، فإذا اضطرب فالحقوا بعشائركم(٢).

وعمير بن حبيب أوصى بنيه فقال، يا بني، إياكم ومخالطة السفهاء، فإن مجالستهم داء، وإنه من يلم عن السفية يسر بحمله، ومن يجبه يندم، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفية يقر بالكثير، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى، وليوقن بالشواب من الله عز وجل، إنه

(١) المصدر السابق ٣: ١٥٣.

(٢) المصدر السابق ٣: ١٥٤.

من يوقن بالثواب من الله عز وجل لا يجد مس الأذى. (١).

ودعا خالد بن صفوان ابنه أن يكون أحسن ما يكون في الظاهر حالاً، وأقل ما يكون في الباطن مالا. وأن يدع من أعمال السر ما لا يصلح له في العلانية. (٢).

وأوصى إبراهيم بن هبيرة ولده فقال له، لا تكن أول مشير، وإياك والرأي الفطير ولا تشيرن على مستبد، فإن التماس موافقته لؤم، والاستماع منه خيانة. (٣).

وكان الهيثم بن صالح خطيباً، ومن كثرة خطابته، أراد أن يعطي ابنه خلاصة تجاربه، في هذا الميدان فقال له، (يا بني إذا أقللت من الكلام، أكثرت من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام، أقللت من الصواب. قال يا أبة، فإن أكثرت وأكثرت؟ - يعني كلاماً وصواباً قال يا بني، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك). (٤) لقد أفلح الفتى، الذي كان متشرباً لكل ما فيه الصواب، مبتعداً عما فيه الخطأ، فبز أباه في موعظته.

وأدرك أكثم بن صيفي تغير القلوب وتقلبها، الأمر الذي جعل الإنسان لا يضمن بقاء الأمين على أمانته فحذر ابنه من الأمين، ونهاه عن الائتمان للخائن. (٥).

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام، استعمل ابنه عبدالعزیز على مصر وقال له حين ودعه، أرسل حكيماً ولا توصه. انظر يا بني، إلى أهل عملك، فإن كان لهم عندك حق غدوة، فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره

(١) الامالي ٢ : ٥٦ .

(٢) العقد الفريد ٣ : ١٥٣ .

(٣) نهاية الارب ٦ : ٧٧ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٦٤ .

(٥) العقد الفريد ٣ : ١٥٢ .

إلى غدوة وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم، وإياك أن يظهر لرعتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله. وإن كان بك غضب على أحد من رعتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب مطفاً الجمرة. فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض(١). إنها وصية الرجل العاقل المؤمن العادل، الذي لا يريد لابنه إلا أن يتبوأ مكاناً رفيعاً في حكمه وخلافته.

نقل صاحبها الأمالي والأغاني خبراً طويلاً راعياً عن عبدالله بن شداد بن الهاد لما حضرته الوفاة، فدعا ابناً له يقال له محمداً وأوصاه وصية فيها منهج قويم، واستشهاد بأقوال الشعراء التي رأى فيها تدعيماً لنصيحته، ودليلاً على منهجه، إنه يخاطبه فيقول (يا بني، إني أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضي لا يرجع، ومن بقي فاليه ينزع، وأني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية في السر والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد، وكن كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكنّ التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد دُخراً
وعند الله للأتقى مزيد

(١) نهاية الارب ٦ : ٤٢ .

وما لا بدَّ أن يأتي قريبٌ
ولكنَّ الذي يمضي بعيدٌ

ثم قال: أي بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه. واعلم أن الزمان ذو ألوان ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن - أي بني - كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعدَّ من الرحمن فضلاً ونعمةً
عليك إذا ما جاء للعرفِ طالبُ
وإنَّ امرأ لا يرتجى الخيرُ عنده
يكنُّ هيناً ثقلاً على من يصاحبُ
فلا تمنعن إذا حاجة جاء طالباً
فإنك لا تدري متى أنت راغبُ
رأيتُ النوا هذا الزمان بأهله
وبينهم فيه تكون النوائبُ

ثم قال: أي بني، كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر، وإن أحمد بخل الحر، الضنَّ بمكتوم السرِّ وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجودُ بمكنون التلاد وإنني
بسركَ عَمَمَنْ سألني لضمينُ
إذا جاوزَ الاثنين سرٌّ فإنَّهُ
بنث وتكثير الحديدِ قمينُ(١)

(١) نث الخبر: أفساه. وقمين سريع.

وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني
مكناً بسوداءِ الفؤادِ مكينُ

ثم قال: أي بني، وإن غلبت يوماً على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن
الكريم يحتال، والدني عيال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقل ما تكون
في الباطن مالا، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الأنفاذ نعمته، وكن
كما قال ابن خذاق العبدي:

وجدتُ أبي قد أورثه أبوه
خلالاً قد تعدُّ من المعالي
فأكرم ما تكونُ عليَّ نفسي
إذا ما قلَّ في الأزمان مالي
فتحسنُ سيرتي وأصونُ عرضي
ويجملُ عند أهل الرأى حالي
وإن نلتُ الغنى لم أعلُ فيه
ولم أخصص بجفوتي الموالي

ثم قال: أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد
فإنك إن أمضيتها حياها، رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل
هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائي:

وما من شيمتي شتمُ بانِ عمي
وما أنا مخلفٌ من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جرم
سمعتُ فقلتُ مري فانفذي

فمابوها عليّ ولم تسؤني
ولم يعرق لها يوماً جبينني
وذو اللونين يلقياني طليقاً
وليس إذا تغيبَ يأتليني

ثم قال: أي بني، لا تواخ امرأ حتى تعشاره، وتفقده موارده ومصادره، فإذا
استطعت العشرة، ورضيت الخبرة، فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة،
وكن كما قال المقنع الكندي:

أبلُ الرجالِ إذا أردتَ إخاءهم
وتوسمن فعالمهم وتفقد
فإذا ظفرتَ بذِي اللبابة والتقى
فبه اليدين قريراً عين فاشدُد
وإذا رأيتَ ولا محالة زلّة
فعلِ أخيكَ بفضلِ حلمك فأردُد

ثم قال: أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان
يقال أحب حبيك هونا ما عسى أن يكون بغضك يوماً ما، عسى أن يكون
حبيك يوماً ما وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري:

وكن معقلاً للحلم واصفح عن الخنا
فإنك راء ما حبيتَ وسامعُ
وأحببُ إذا أحببتُ حباً مقارباً
فإنك لا تدري متى أنت نازعُ
وأبغضُ إذا أبغضتَ بغضاً مقارباً
فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

وعليك بصحبة الأخيار وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار،
وكن كما قال الشاعر:

إصحب الأخيارَ وارغبْ فيهمُ
ربَّ منْ صاحبتهُ مثلُ الجربِ
ودعِ الناسَ فلا تشتمهمُ
وإذا شاتمْتَ فاشتمْ ذا حسبِ
إنَّ منْ شاتمٍ وغداً كالذي
يشترى الصفرَ بأعيانِ الذهبِ
واصدقِ الناسَ إذا حدثهمُ
ودعِ الناسَ فمنْ شاءَ كذبُ (١).

ولم تتوقف الوصايا عند الأولاد بل تعدتهم إلى البنات من قبل الآباء، وخاصة عندما تتزوج البنت وتبرح بيت أبيها إلى بيت الزوجية الجديد، فهي بحاجة إلى وصية أو قل وصايا، فيها تبين لما يجب عليها أن تقوم به تجاه زوجها لتحيا حياة سعيدة فيها هناء واستقرار مع شريك حياتها. وإن هذه المهمة تتصل مباشرة بالأم، التي تتولى هذا الأمر، وهي التي تقوم بإعدادها إلى هذا اليوم منذ نعومة أظفارها. وقد غلب أن تكون الأم أكثر حرصاً على ابنتها وأكثر اتصالاً بها، لذلك فمن الطبيعي أن توجهها وترشدها إلى ما يرضي زوجها ويجعله يتعلق بها ويعززها في حياته. نعم غلب هذا الأمر، وغلب أن يكون سرا غير مذاع وغير متداول على الألسن، حتى إذا اتصل بالأب ذاع وانتشر ووصلنا شيء منه، مثلما كان حال قيس ابن عرس ووصيته لابنته عند زواجها في قبيلة غير قبيلته.

(١) الامالي ٢: ٢٢٥ - ٢٢٧.

نقل إلينا صاحب الأغاني خبراً يتصل برجلين بارزين من رجال العرب في العصر الجاهلي. لأحدهما موقف مع ابنه، وللآخر موقف مع ابنته، وكلا الموقفين لهما مساس مباشر بموضوعنا قال (كان زرارة بن عدس بن يزيد رجلاً شريفاً، فنظر ذات يوم إلى ابنه لقيط ورأى منه خيلاء ونشاطاً، وجعل يضرب غلماناً وهو يومئذ شاب، فقال زرارة، لقد أصبحت تصنع صنيعاً كأنها جتني بمائة من هجان المنذر ابن ماء السماء، أو نكحت بنت ذي الجدين قيس بن خالد. قال لقيط: لله علي ألا يلمس رأسي غسل ولا آكل لحماً، ولا أشرب خمراً، حتى أجمعها أو أموت. فخرج لقيط ومعه ابن خال له يقال له القراد بن أهاب. . . . فخرجا حتى أتيا قيس بن خالد، فجهزها أبوها، فلما أرادت الرحيل قال لها: يا بنية كوني لزوجك أمة يمكن لك عبداً، وليكن أكثر طيبك الماء، إنها يذهب بك إلى الأعداء. وأراك إن ولدت فستلدين لنا غيضاً طويلاً. واعلمي أن زوجك فارس مضر، وأنه يوشك أن يقتل أو يموت، فلا تخمشي عليه وجهها، ولا تحلقي عليه شعراً. . . .)(١). فإننا نلاحظ أن زرارة بن عدس كان مؤنباً لابنه محفزاً له إلى السمو والبعد عن الطيش والعبث في آن واحد، الأمر الذي جعل ابنه لقيطاً يلتفت إلى نفسه، وإلى ما يدور في خلد أبيه ويسعى لتحقيقه، مهما كلفه ذلك من جهد. أما قيس بن خالد فقد تدخل في شؤون ابنته، وحل محل أمها في الوقت المناسب، ذلك أن ابنته تتزوج زواجا غير عادي، فهي تتزوج من فارس مقدم، ومن عدو لدود، الأمر الذي يتطلب، إضافة لما تقوله الأم وتوصي به، حديثاً من الأب يبين معارفه وخبراته.

وكان أسماء بن خارجة يعلم أن تأديب البنات من مهمة الأمهات، إلا أن زوجته توفيت وخلفت له بنتاً اسمها هند، وقد زوجها للحجاج بن يوسف الثقفي، فما

(١) الأغاني (طبعة دار الثقافة) ٢٢ : ١٩٥.

كان منه إلا أن يقوم بتأديبها وتربيتها، ثم توجيهها عند مغادرتها بيته، فقال (يا بنية، إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكحل، وإياك وكثرة المعاتبة فإنها مقطعة للود، وإياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وكوني لزوجك أمة يكن لك عبداً، واعلمي أي القائل لأمك:

خذي العفو مني تستديمي مودتي
ولا تنطقي في سورتى حين أغضب(١)

إنها الوصية ذاتها التي قالها قيس بن خالد لابنته قبل قرن أو يزيد من الزمان. ذلك لأن طباع القوم هي هي، والمواصفات التي يجب أن تتوفر في المرأة من زينة وطاعة وإخلاص، هي هي لم تتبدل منذ أقدم العصور - ولا أجدني مبالغاً إن قلت - حتى وقتنا الحاضر.

وهذا رجل ثالث هو عبدالله بن جعفر - يكرر نصيحة أسماء بنصها تقريباً - وكأنه لا يوجد إلا هي - وهو يوصي ابنته فيقول (يا بنية، إياك والغيرة إنها مفتاح الطلاق وإياك والمعاتبة، فإنها تورث البغضة، وعليك بالزينة والطيب، واعلمي أن أزين الزينة الكحل، وأطيب الطيب الماء)(٢). جاء بوصيته كما جاءت عند أسماء، وربما جاءت كما هي عند كل من أوصى ابنته في ذلك الوقت، وإن زادت أو نقصت عن ذلك، فإن الزيادة أقرب إلى الاسترسال في القول، والنقصان أقرب إلى الإيجاز فيه، من أي شيء آخر.

ومثلها اتصل الأب بابنته، وقدم لها نصائحه، التي هي أقرب إلى الأم منها إليه

(١) المصدر السابق ٢٠: ٣٣٣.

(٢) البيان والتبيين ٢: ٩١.

كذلك كان حال الأم من الولد، الذي هو أكثر التصاقاً بأبيه واقتداء به. فقد نصحته إما بعد فقدان أبيه وتوليها رعايته وتربيته، وإما لأنها ذات حنكة ومنزلة رفيعة تؤهلها إلى إبداء الرأي والنصيحة، حتى وإن كان الأب موجوداً. وقد توفرت لدينا أخبار تؤيد هذا الذي ذهبنا إليه فقد روى لنا أبان بن تغلب أنه شهد أعرابية وهي توصي ولدأها أراد سفرها فقالت (أي بني، اجلس أمنحك وصيتي، وبالله توفيقك، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك، أي بني، إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً، وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام. وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهي ما اشدت من قوته. وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك، وإذا هزرت فاهزز كريها يلن لهزتك. ولا تهزز اللثيم، فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال ما استحسننت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه، ومن كانت مودته بشره وحالف ذلك منه فعله كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها. . . . والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها)(١) أرايت قيمة الوصية عند القوم، فهي أجدى من كثير من العقل. وهي آخر ما يحفظه الانسان من أهله الذين يكن لهم كل حب وتقدير إن أزمع سفرها.

وقد ضرب المثل بالحنساء في الجاهلية والإسلام. في إياها وشممها وقوة شخصيتها ووفائها، وحبها لأهلها. ثم في الإسلام بايمانها الذي أنساها ذاتها وعاطفتها وبكاءها. لقد فقدت أخويها في الجاهلية صخراً ومعاوية فبكتها بكاء مرا، وما زلنا نردد أشعارها ونعجب بها ونبكي لبكائها. أما حينما فقدت أبناءها -

(١) الامالي ٢ : ٧٩ .

فلذات أكبادها - في الإسلام لم تدمع لها عين، ولم تقل فيهم بيت شعر، وشتان بين الأخ والإبن. وما كان مرد ذلك إلا الإيمان الصادق، والهيام في الله جل وعلا الذي أنساها أبناءها وحتى نفسها أنظرها توصيهم عندما أرادوا التوجه لفتح فارس مع جيوش المسلمين، وإذا بها تسير معهم وتوصيهم في أول الليل قائلة (يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين والله الذي لا إله إلا هو أنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة. ما هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم. واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية. اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون. فإذا رأيتم الحرب قد شممت ساقها، وجللت نارا على أوراقها، فتميموا وطيسها وجالدوا رئيسها، تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة فلما أسفر الصبح بادروا مراكزهم، وتقدموا واحداً بعد واحد، ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم حتى قتلوا عن آخرهم فبلغها الخبر، فقالت (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة)(١)

لقد كانت الخنساء صادقة في دعوتها لأبنائها للتضحية بالنفس في سبيل الله ودينه الحنيف، وقد كان الدليل على صدقها رد فعلها حينما جاءها خبر استشهادهم.

(١) المصدر السابق.

- ٣ -

المراسلة

تدرجنا في حديثنا عن التربية عند العرب مع التطور الطبيعي لنمو الإنسان، فبدأنا بالابن وهو طفل صغير حيث بقاءه مع أمه وأبيه وتوجيهها له وتعليمه، ثم إرساله إلى الكتاب أو إحصار المعلمين والمرين له في البيت. فكانت هذه مرحلة. ثم تلاها مرحلة ثانية تمثلت في بداية انفصال الابن عن والديه والاستقلال بالسفر أو بالزواج فعمل الآباء والأمهات على تقديم الوصايا لهم قبل انفصالهم عنهم. فكانت هذه هي المرحلة الثانية. ولم يتوقف الوالدان عند هذا الحد، بل إنهما يجدان أن أبناءهما بحاجة إلى التوجيه والإرشاد، حتى بعد الانفصال. أو قل يشعر الآباء أن أولادهم بحاجة إليهم مهما بلغوا من العمر، ومهما اكتسبوا من التجارب والخبرات. إنها عاطفة الأبوة التي لا تتوقف عند حد ولهذا رأيناهم حينما لم يجدوا أولادهم عندهم راسلوهم ووجهوهم وهم على بعد منهم، توجيهاً لا يختلف عما جاء في نصائحهم لهم قبل سفرهم.

وسنعرض لثلاثة من أفذاذ العرب وأتقاهم. راسلوا أولادهم وعكسوا سيرتهم، في رسائلهم إليهم، من تقوى الله، والعمل بما يرضيه والنهي عما يغضبه، والتواضع

بين الناس ، والعدل في التعامل معهم . إنها رسائل ممن تبوأوا مكاناً رفيعاً بين المسلمين وكانوا علامات بارزة في تاريخهم . وهكذا كان أولادهم . إنهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنهم جميعاً .

فكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه في غيبة غابها (أما بعد، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكره زاده، ومن أقرضه جزاه، فاجعل التقوى جزاء بصرك، وعماد ظهرك . فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا جديد لمن لا خلق له)(١) .

وكتب علي بن أبي طالب إلى ولده الحسن (من علي أمير المؤمنين الوالد الفان، المقر للزمان، المستسلم للحدثان، المدبر العمر، المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، ورهينة الأيام، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وأسير المنايا وقرين الرزايا، وصرير الشهوات، ونصب الآفات، وخليفة الأموات، أما بعد، يا بني، فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني، وإقبال الآخرة إليّ، وجموح الدهر عليّ، ما يرغبني عن ذكر سواي، والاهتمام بها ورائي، غير أنه حين تفرد بي هم نفسي دون هم الناس، فصدقني رأيي، وصرفني عن هواي، وصرح بي محض أمري، فأفضى بي إلى جد لا يزري به لعب، وصدق لا يشوبه كذب . ووجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك لأصابني، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني، فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني من أمر نفسي . كتبت إليك كتابي هذا يا بني، مستظهِراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت، فلإني موصيك بتقوى الله وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، فإن الله تعالى يقول ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم

(١) الامالي ٢ : ٥٥ .

بنعمته إخواناً ﴿١﴾ وأي سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى، إن أنت أخذت به. أحي قلبك بالموعظة، ونوره بالحكمة، وأمنه بالزهد، وذلك بالموت، وقوه بالغنى عن الناس، وحذره صولة الدهر وتقلب الأيام والليالي. واعرض عليه أخبار الصين وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر ما فعلوه وأين حلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن دار الأحبة، ونزلوا دار الغربية. وكأنك عن قليل يا بني صرت كأحدهم، فبع دنياك بأخرتك ولا تبع أخرتك بدنياك (١) . . . إلى آخر الرسالة التي لحظنا فيها موقف الإمام علي - كرم الله وجهه - وهو يتحدث عن نفسه في مقدمتها، ويصفها بالضعف والعجز والزهد في الحياة الدنيا، وكأنه يلح على ولده في أن يكون على هذه الحال التي هو فيها، وأكثر من هذا، فإنه جاء له بشواهد من الأمم الغابرة التي بلغت شأواً عظيماً في الملك والسيادة، وإذا بها الآن في دار الغربية والفناء، لقد كانت هذه الرسالة مثلاً رائعاً من أمثلة الإيثار والصدق والتقوى العظيمة بالله وأراد كاتبها لابنه أن يقتدي بأبيه، الذي هو هو - أعني أباه - ألم يقل عن ابنه إنه كله؟

أما عمر بن عبدالعزيز فرأى من ابنه طيشاً وتهاً بنفسه، وخيلاء على أقرانه، وهو في مقتبل العمر، وعنفوان الشباب، فأنكر عليه ذلك فكتب إليه يقول (أما بعد، فإن أحق من وعى عني وفهم قولي أنت. وإن الله - وله الحمد - قد أحسن إلينا في لطيف أمرنا وجليله، وعلى الله جل وعز تمام النعمة، فاذاً يا بني فضل الله عليك وعلى أبيك، فإنك إن استطعت أن تصدق ذلك كله بعمل تعمه أو صلاة أو صوم، أو صدقة، قبل ذلك منك، وإياك والعزة والعظمة والكبرياء، فإنه من عمل الشيطان، وهو عدو مضل مبین، ولأن النفس لأماراة بالسوء، إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم). واعلم أن الشباب - إلا ما وقى الله ودفع - عون على أمور كثيرة من السوء، وفيه لعمرى معونة كثيرة على الخير لمن رزقه الله. فاحذر شبابك، وإياك

(١) العقد الفريد ٣: ١٥٥، ١٥٦.

وأن تعلم في قلبك زهواً أو كبراً، فإنه ما لم يكن من ذلك كان خيراً، واحفظ لسانك ونفسك حفظاً ترجو فيه رحمة الله جل وعز ومغفرته. واذكر صغر أمرك، وحقارة شأنك ولا تبخ فيما أعجبك من نفسك، وفيما عسيت أن تفرط فيه مما ليس معه، غير الفكرة في أمرك وأمره، وليس كتابي هذا لأن يكون قد بلغني عنك إلا خيراً. غير أنه قد بلغني عنك شيء من بعض إعجابك بنفسك، ولو بلغني أن ذلك خرج عنك إلى أمر كرهته، لبلغك عني أمر شديد إلا ما وقى الله ودفع.

فكن يا بني على حذر، فإن الشيطان قلما يصيب فرصته بمن احتس منه بدعاء الله جل اسمه، والتواضع له، وأكثر تحريك لسانك في ليلك ونهارك بذكر الله جل اسمه، وأحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً ذكر الله تبارك وتعالى. وأعن على نفسك بخير. نسأل الله لنا ولك حسن التوفيق والسلام(١). لقد غلب عقل عمر بن عبدالعزيز على عاطفته، وفاق حبه لله ومرضاته حبه لولده، لذلك كان محذراً له في أنه لو ارتكب أمراً كرهه أبوه - ولا يكره إلا ما يغضب الله تعالى - فإنه سيبلغه عنه أمر يشتد عليه كراهته. لقد كان الرجل تقياً ورعاً، حازماً، لا تأخذه لومة في مرضاة الله، حتى وإن كان الذي يخاطبه ولده. فحسنت سيرته، عليه رحمة الله.

(المحاسن والمساويء ٣٥١ - ٣٥٢ .

المصادر والمراجع

- ١ - الأغاني . أبو الفرج - الأصفهاني . دار الثقافة بيروت - ١٩٥٧
- ٢ - أغاني ترقيص الأطفال عند العرب . أحمد أبو سعد . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤ م .
- ٣ - الأمالي . أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي . المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت د . ت .
- ٤ - أميل أو التربية . جان جاك روسو . ترجمة عادل زعيتر . لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٠ م .
- ٥ - بلوغ الأرب . محمود شكري الألوسي . دار الكتاب العربي بمصر ط ٣ .
- ٦ - البيان والتبيين أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ . حققه عبدالسلام هارون . ط ٣ مكتبة الخانجي بمصر ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ٧ - تاريخ التربية . مصطفى أمين . مطبعة المعارف بمصر . ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م .
- ٨ - تراجم سيدات بيت النبوة د . بنت الشاطي . دار الكتاب اللبناني بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٩ - التربية الاستقلالية . الفونس اسكيروس . ترجمة عبدالعزیز محمد . ط ٤ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٩٤ هـ / ١٩٣١ .
- ١٠ - التربية عبر التاريخ . د . عبدالله عبدالدائم . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٣ م .
- ١١ - التربية في الإسلام د . أحمد فؤاد الأهواني . ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٧٥ م .
- ١٢ - التربية من أفواه رجالها . أنطوان الخوري . بدون تاريخ ومكان طبع .

- ١٣ - جان جاك روسو وآراؤه في التربية . محمد عطية الأبراشي . دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة . ١٩٥١ م .
- ١٤ - طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحي . دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .
- ١٥ - العقد الفريد . أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه . حققه أحمد أمين وآخرون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .
- ١٦ - عيون الأخبار . أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣ م .
- ١٧ - قصة الأدب في العالم . د . أحمد أمين و د . زكي نجيب محمود . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ م .
- ١٨ - الكامل في الأدب واللغة . محمد بن يزيد المبرد . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة نهضة مصر . د . ت .
- ١٩ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء . أبو القاسم محمد الراغب الأصبهاني . دار صادر بيروت ١٩٦١ م .
- ٢٠ - المحاسن والمساوىء . إبراهيم بن محمد البيهقي . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة نهضة مصر . د . ت .
- ٢١ - المرأة في الشعر الجاهلي . د . أحمد محمد الحوفي . دار الفكر العربي بمصر ط ٢ .
- ٢٢ - المرأة في القرآن . عباس محمود العقاد . دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ م .
- ٢٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب . شهاب الدين النويري . دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .
- ٢٤ - الولد والوالد . آدموند جوس . ترجمة فؤاد اندرواس . وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالقاهرة . د . ت .

الرؤية الثقافية للطفل العربي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بدأت العناية بالطفل العربي بشكل ملموس منذ عقدين من الزمان تقريباً، وهي فترة قصيرة وتعد متأخرة نسبياً، إذا ما قيست بمدى اهتمام الأمم الأخرى بالطفل. وقد تعددت أوجه هذه العناية، إذ سارت في اتجاهات، أبرزها:

أولاً: عقد الندوات الخاصة بالطفولة على الصعيدين الوطني والقومي، وتمثلت هذه الندوات فيما يلي:

- ١ - مؤتمر تدريب العاملين مع الطفولة. القاهرة/ أبريل/ ١٩٦٦م.
- ٢ - المؤتمر الأول لثقافة الأطفال. القاهرة/ مارس/ ١٩٧٠م.
- ٣ - حلقة العناية بالثقافة القومية للطفل العربي. بيروت/ سبتمبر/ ١٩٧٠م.
- ٤ - حلقة بحث كتاب الطفل ومجلته. القاهرة/ فبراير/ ١٩٧٢م.
- ٥ - حلقة برامج الأطفال في الإذاعة والتلفزيون. بغداد/ مايو/ ١٩٧٢م.
- ٦ - الحلقة الدراسية لثقافة الطفل في الخليج والجزيرة العربية، الكويت/ يناير/ ١٩٧٥م.
- ٧ - ملتقى الحمامات الخاص ببرامج الطفولة. تونس/ أبريل/ ١٩٧٧م.
- ٨ - ندوة صحافة الأطفال العرب. بغداد/ ديسمبر/ ١٩٧٧م.
- ٩ - ندوة حول العمل مع الأطفال. القاهرة/ فبراير/ ١٩٧٨م.

- ١٠ - ندوة «إفتح يا سمسم». الكويت/ مارس/ ١٩٧٨ م.
- ١١ - ندوة بناء الطفل في الخليج العربي. البصرة/ يوليو/ ١٩٧٩ م.
- ١٢ - حلقة رعاية الطفولة في الإسلام. أبوظبي/ فبراير/ ١٩٨٢ م.
- ١٣ - ندوة كتب الأطفال في دول الخليج العربية. البحرين/ ديسمبر/ ١٩٨٥ م.
- ١٤ - ندوة الطفولة في مجتمع متغير. العين/ فبراير/ ١٩٨٨ م.
- ثانياً: تخصيص جانب من مؤتمرات اتحاد الأدباء العرب للأطفال وأدبهم وثقافتهم، كما هو الشأن في المؤتمرات التالية:
- ١ - المؤتمر الرابع، بغداد/ ١٩٦٥ م.
- ٢ - المؤتمر العاشر، الجزائر/ ١٩٧٥ م.
- ٣ - المؤتمر الحادي عشر/ طرابلس/ ١٩٧٧ م.
- ٤ - المؤتمر الثاني عشر/ دمشق/ ١٩٧٩ م.
- ٥ - المؤتمر الثالث عشر/ صنعاء/ ١٩٨١ م.
- ٦ - المؤتمر الرابع عشر/ الجزائر/ ١٩٨٣ م.
- ٧ - المؤتمر الخامس عشر/ بغداد/ ١٩٨٥ م.

وقد خرجت هذه الندوات والمؤتمرات بتوصيات كثيرة، كانت في أغلبها تتجه إلى العناية بالطفل: تنشئة، وتربية، وثقافة، ودعت إلى فسح المجال للكتاب المبدعين للتأليف للطفل ومنحهم المكافآت المجزية، والحرية التامة في التعبير، وإنشاء الجمعيات، والمؤسسات المستقلة، التي تعنى بالطفل، ويتوافر لديها الرصيد المادي

الكافي الذي يساعدها على تحقيق مهمتها التي أنشئت من أجلها. وهي توصيات لم يتح لها - للأسف - أن ترى النور، لأنها لا تملك الوسيلة التي تساعدها على تحقيقها من جهة، ولم تسهم الدول العربية، وهي الجهات الرسمية المعنية بها بشكل مباشر في ترجمتها على صعيد الواقع من جهة ثانية، ولأن جزءاً من هذه التوصيات شابه شيء من الضبابية والخطابية التي لا تفصح عن مضمون حقيقي يمكن الأخذ به، أو ترجمته في كثير من الأقطار العربية بله الأقطار كلها. (١).

ثالثاً: صدور عدد من الدراسات التي عنيت بالأطفال وأدبهم على وجه الخصوص، وهي في مجملها أقرب إلى الأدب الذي تحدث عن الأطفال في القديم والحديث منها إلى الأدب الذي خاطبهم، واتصل بتفكيرهم وثقافتهم.

وإذا كانت هذه الاتجاهات لم ترق بالأدبيات التي عنيت بالطفل وثقافته إلى الدرجة المطلوبة في هذه المرحلة الزمنية القصيرة نسبياً، فقد كان لها فضل التأسيس والإعداد والتخطيط، ولفت الأنظار إلى هذه المادة الجديدة على الفكر العربي على الأقل، والتي تتخطى حدود المادة التربوية، التي يتلقنها الأطفال في المدارس الابتدائية إلى المحيط الأوسع، الذي يؤثر تأثيراً مباشراً على الطفل، في مراحل طفولته المختلفة: مبكرة، ومتوسطة، ومتأخرة.

وإن موضوع ندوتنا هذا «الرؤية الثقافية للطفل العربي» يثير عدداً من التساؤلات، التي تتطلب إجابات تكون منطلقاً للحديث، الذي إن لم يكن مطلقاً، في منهجيته ودقته، فإنه يمثل على الأقل وجهة نظرنا في تناول المفهوم الذي نرتبه

(١) انظر في هذا، على سبيل المثال لا الحصر: التوصية الأولى لمؤتمر تدريب العاملين مع الطفولة التي نصت على: «الاهتمام بثقافة الطفل القومية والدينية، ووقف سبل المسلسلات الأجنبية الوافدة والضارة بالمفاهيم العربية الاشتراكية والهادمة لقيمنا الروحية»، فانظر الى هذا الخليط في المفاهيم، وكيف يمكن الاخذ بها.

ونسير بهديه .

وأول هذه التساؤلات هو: ما المقصود بالرؤية الثقافية للطفل؟ ونجيب: إنها تمثل الرصيد الثقافي الذي زود به في سنه الأولى، وتعكس مراحل اكتساب الخبرة في حياته، تلقياً دون تفاعل مع بيئته ومجتمعه، وتصل به إلى حد التثرب الذي لا يجيد عنه، ولا يمكنه الفكاك منه .

وثاني هذه التساؤلات هو: إن تحديد عمر الطفل اختلف من باحث لآخر، حتى باتت الطفولة لا تمثل مرحلة واحدة بل عدة مراحل عند عدد من الباحثين، فما هو مفهوم الطفل الذي نطلق منه؟ وأجيب: إن مفهوم الطفل، هو المفهوم الذي ساد لدى الباحثين العرب القدامى، ومن ساروا عليه إلى يومنا هذا، وهو منذ الولادة إلى سن الحلم، أو البلوغ، أو الثالثة عشرة تقريباً(١).

وأما التساؤل الثالث الذي يثيره موضوع الندوة، فهو: هل يمكننا أن نطلق القول دون تحفظ على الرؤية الثقافية للطفل العربي؟ وبتعبير آخر: هل هناك ثقافة عربية واحدة، على وجه العموم، وللطفل على وجه الخصوص؟ لا شك في أن هذا الحكم، لا يخلو من تعميم إذا طبق على الواقع المعاش، إذ إن هناك من الباحثين من يرى أن «الوطن العربي، الحديث على الأقل، مجموعة من الجزر الثقافية، المختلفة، المتباينة، إلى حد التنافر، والتدابير أحياناً، بل إن القطر الواحد ينقسم إلى عدد من الجزر الحضارية»(٢) ومع إن هذا الحكم لا يخلو من غلو، ونظرة فيها كثير من الواقعية، التي توصل الإنسان، إلى حد التشاؤم واليأس، إلا أنها في الوقت نفسه،

(١) انظر هذا في: أساس البلاغة للزمخشري . مادة الطفل، ولسان العرب لابن منظور، مادة الطفل، وعلم نفس النمو الحامد زهران ٩٩، وأسس النمو الانساني لمحمدخالد الطحان ١٦ .

(٢) التراث وتحديات العصر في الوطن العربي «الاصالة والمعاصرة»: ٧٢٦، والرأي للدكتور محمد يوسف نجم، وانظر ما يوافقه عند محمد الأدرسي العلمي، ضمن كتاب التكامل بين اجهزة الاعلام واجهزة الثقافة في الوطن العربي ١٨٤ . .

مؤشر لا يخطيء، من حيث ضرورة الاحتراس والحيطه من قبل المدارس، عندما يتحدث عن الثقافة العربية الواحدة، وثقافة الطفل العربي. الأمر الذي يدعوني للقول: إننا نتطلع إلى ثقافة مشتركة للطفل العربي، إذا كنا قد افتقدنا جزءاً كبيراً منها في الوقت الحالي.

والتساؤل الأخير هو: هل المقصود بالرؤية الثقافية للطفل العربي، أن للطفل رؤية محددة، أم أن الآخرين، هم الذين يحددون له هذه الرؤية: (أسرة، ومجتمعاً، ومدرسة، ووسائل إعلام، وسلطة)؟ وأجيب على الفور: بأنني أميل إلى ما يراه الآخرون له، ويزودونه به من مادة ثقافية.

لقد سئل سقراط الحكيم ذات يوم: متى نبدأ بتربية الطفل؟ فأجاب: قبل أن يولد بمائة عام. فعاد السائلون الأولون فسألوه: وكيف يكون ذلك؟ فقال لهم: يجب أن نربي أبويه قبله، وأجداده الأربعة. (١) ولعل قول سقراط هذا يصلح مدخلاً لما أريد أن أصل إليه، وهو أن الطفل ينهل من ثقافة بيئته الخاصة والعامة، وإن هذه البيئة بقدر ما تكون صالحة خصبة يكون الطفل العربي متمكناً صلباً في تفكيره، وجسمه، وسلوكه، وبقدر ما تكون هشّة، ضعيفة، يكون هو كذلك.

فما هي المكونات الأساسية لثقافة الطفل العربي المعاصر؟

وما مدى انسجامها من قطر لآخر، بحيث يمكن أن تصل بالطفل العربي إلى رؤية ثقافية واحدة، أو قريبة منها؟

وأؤكد أقطع في الجواب بأن هذه المكونات هي:

١ - الأسرة.

(١) رعاية الطفولة في اطار مفاهيم التربية الاسلامية، للدكتور عمر فروخ، ضمن بحوث حلقة «رعاية الطفولة في الاسلام»، ٦٧.

٢ - المدرسة .

٣ - المجتمع .

٤ - وسائل الإعلام المعاصرة .

٥ - السلطة أو نظام الحكم .

واسمحو لي، وأنا أتحدث عن هذه المكونات، أن أستعين بمصدرين أساسيين، أولهما: المعارف العامة التي استطعت التزود بها من المصادر والكتب التي تتصل بهذا الموضوع. والثاني: التجارب الشخصية التي اكتسبتها بمعايشتي لكثير من الأقطار العربية أنا وأبنائي: إقامة، وتعلماً، وثقافة، وإنني أرى أن المصدرين يكمل كل منهما الآخر: فقد درست في قطاع غزة، والعراق، ومصر. ودرست في جامعات الجزائر، وليبيا، والإمارات. ودرس أبنائي في مدارس مصر، والجزائر، وليبيا، وسوريا، والإمارات.

وقد أتيج لي زيارة خمس عشرة دولة عربية، من اثنين وعشرين دولة، وفي هذا رصيد، من الخبرة المعاشة التي لا تحطىء، عند التشخيص والاستشهاد على الأقل.

أولاً: الأسرة: ولعل الأسرة العربية، هي أقوى الركائز التي تزود الطفل العربي، بالقاسم المشترك من الثقافة العربية الأصيلة، لأنها تعتمد في تكوينها، على عوامل اللغة، والدين الإسلامي الحنيف، والقيم الاجتماعية، التي توارثتها عبر الأجيال، تعزز بها، وتلقنها للطفل تلقيناً فيه بساطة شديدة، لا ترقى بها إلى تحصينه بها، مما يعترضها في المستقبل، من مؤثرات جديدة تضاف إلى ثقافته، في محيطه المجتمعي الداخلي، ناهيك عن المجتمع الخارجي. إلا أن هذه الثقافة - على أية حال - تمثل جانباً إيجابياً، في ثقافة الطفل العربي، يقابله - أعني الجانب الايجابي - مظاهر سلبية تتصل بالأسرة العربية، أهمها: التفاوت الشديد في ظروفها في القطر العربي

الواحد، بله الأقطار المختلفة من حيث التعليم، والاقتصاد، وظروف المعيشة، والحياة السياسية. وقد أدى هذا التفاوت إلى أن تمثل الأسرة الواحدة، في المجتمع الواحد، في أسرفيه، من حيث المدينة، والريف، ومستوى الدخل، والتعليم. وهذا أدى إلى وجود فجوة في التفكير، توترت شيئاً فشيئاً، حتى وصلت حد الانفجار، فيما لحظناه في بعض الأقطار العربية، فكانت الهجرة من الريف إلى المدينة، دون وعي، بأبعاد هذه الهجرة، ودون إدراك للمشاكل التي يمكن أن تترتب عليها، وهجرة أخرى إلى أقطار عربية أخرى، ذات وضع اقتصادي أفضل، ولكنها ذات وضع اجتماعي مختلف.

وقد رأى الطفل العربي هذا بأم عينه: رضعه فقراً، وبؤساً، وتشريداً، وعائشه ضياعاً، وطلب إليه أن يمثله بعد أن أصبح ناضجاً متمكناً!

ثانياً: المدرسة: لقد مثل التعليم مطلباً ملحاً في مجتمعنا العربي، وأصبحت الأنظمة تتسابق في تحقيقه: بفتح المدارس، وجعله مجانياً، وإلزامياً على الأطفال في السنين الأولى، وأصبح التربويون يعنون بالمناهج التربوية، وبالاستفادة من أرقاها وأحدثها في مدارسنا، وبات التعليم ميسوراً في مجتمعاتنا، إلا أنه أعطى مردوداً عكسياً في كثير من النواحي التي أوجزها فيما يلي:

إن كثيرين ممن تولوا زمام الأمر في التعليم في بلادنا، كانوا ممن لا علاقة لهم به، وهم أصحاب القرار فيه. وقد نص المرحوم مالك بن نبي على هذا بقوله: «إننا منذ خمسين عاماً نعرف مرضاً واحداً يمكن علاجه، هو الجهل والامية، ولكننا اليوم نرى مرضاً جديداً مستعصياً هو التعامل» (١). وكان من جراء هذا التعامل لدى القائمين على التعليم عندنا اهتزاز الصورة التربوية لدى المربين، حين دخلوا البيوت

(١) مشكلة الثقافة، ٧٢.

من غير أبوابها الشرعية، وانعكست هذه الصورة على الطفل وما يأخذه من قيم.

وليس أخطر من أن يكون المربي غير مقتنع بما يقوم به، ولا أخطر من أن تهتز صورة المربي في نظر تلميذه، وهذا ما حدث، فكان أن أخذ الطفل قيماً ومثلاً سامية من مربيه، ثم عمل بعكسها في ممارساته اليومية.

٢ - الاهتمام بالشكل، والبعد عن الجوهر، إذ إن المدارس فتحت في وطننا العربي، وهي غير مزودة بالوسائل الأساسية التي تسعفها لتأدية رسالتها، مما أدى إلى أن يحدث تكدر في التعليم، في الفصول والمدارس، بينما هي من حيث الشكل الخارجي غاية في الأناقة والجمال، والعجيب أن مفكرينا ومربينا نبهوا إلى هذا منذ ما يزيد عن نصف قرن من الزمان(١)، وما زلنا نأخذ بهذا الأمر بسيئاته: التأنق الشكلي على حساب الجوهر.

٣ - المربون، وعدم الاهتمام بهم، وتقديرهم حق قدرهم اجتماعياً، واقتصادياً، وتعليمياً، مما أدى إلى أن يكون المعلم هو أضعف فئات المجتمع حالاً، وأضعف المكونين تعليمياً، وصاحب أقل الوظائف شأناً. وهو الذي يسند إليه تنشئة الجيل الجديد الذي عليه المعول في المستقبل، وقد نبه طه حسين إلى هذا من بعيد حين قال: لا أعرف شراً على الحياة العقلية في مصر، من أن يكون المعلم الأولي كما هو الآن عندنا: سيء الحال، منكسر النفس، محدود الأمل، شاعراً بأنه يمثل أهون الطبقات». (٢).

قال طه حسين هذا قبل نصف قرن (سنة ١٩٣٨م)، فما باله لو بعث حياً ورأى حال المعلم الذي تحدث عنه، هو هو عام (١٩٨٨م) وفي مصر أيضاً. ولو كان له

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ١١٨.

(٢) المصدر السابق ١١٦.

ذلك، لرأى العجب! وماذا نتظر من هذا المعلم الذي شخصه طه حسين وهو:
«سيء الحال، منكسر النفس، محدود الأمل» تجاه جيل ينشئه؟

٤ - المناهج: وهي قضية ذات شقين: الأول، هو أن التعليم عندنا تحول إلى «اهتمام مفرط بالطريقة التعليمية دون اكتراث بالمادة التي تعلم، حتى أخذت مدارسنا، تتحول بالتدريج إلى معارض مزوقة منمقة لأوجه النشاط من صور ولوحات وأشكال ورسوم بيانية، أما الاهتمام بالعلم ذاته فقد تراجع إلى الصفوف الخلفية». (١)

والثاني، هو المضمون الذي اشتملت عليه هذه المناهج، إذ كان يعكس في الأغلب الأعم صورة نظام الحكم: تاريخاً، وجغرافية، وأدباً، وفلسفة، واجتماعاً، وفكراً، وما أكثر هذه الصور، قياساً على صور الحكم عندنا، مما ولد تفاوتاً شديداً في المضمون بين الأقطار العربية، ولكن الأمر الأكثر خطورة، هو أن يكون التناقض في المنهج لدى الطفل في القطر العربي الواحد، حين يدرس الطفل، هو هو، منهجين مختلفين، بتوجيهين فكريين متناقضين، في بعض الأقطار، مما اصطاح عليه بثورة المناهج.

ثالثاً: المجتمع: والأسرة جزء من المجتمع، وما يمكن أن يتحدث به عن الأسرة، ينسحب على المجتمع مع فارق واحد، هو أن الأسرة، يمكنها أن تتحكم في الطفل، وأن تصبغه بصبغتها التي تريد، أما المجتمع فإن دائرته أوسع والتفاوت بين فئاته أكبر، الأمر الذي يجعل الطفل، يمر بحالات من عدم التوازن، عند انتقاله من ظرف إلى آخر: من الأسرة إلى المدرسة، أو من الريف إلى المدينة، لأن هناك تباعداً بين حياة الأسرة والأسر الأخرى، وبين حياة الطفل في الريف والمدينة،

(١) آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، ١٨٧.

وهذا أدى في أحيان كثيرة إلى أن يضيق الطفل بحياته الأسرية مما يراه خارجها، (١) وقد كان هذا مقدمة إلى أن ينسلخ عنها إذا ما أتاحت له الفرصة بالتدرج في التعليم، أو الاستقلال في العيش. كل هذا في القطر الواحد، فما بالناس ببقية الأقطار، ونحن ندرك خصوصية كل قطر، وظروفه التي تجعله - في الأغلب - مثقلاً بأعباء تثقل كاهله، وتجعل المرء يقف مشدوهاً لظروف المجتمع القاهرة التي يعجز عن إيجاد حل لها، أو تقديم العون لها، وهو ما عبر عنه الدكتور زكي نجيب محمود بقوله، وهو يتحدث عن المثقف العربي وأزمته، بأن الهدف كان بالنسبة له «محددًا واضحاً، لكن الطريق إليه مسدود» (٢). وهذا أمر ينطبق على المجتمع العربي، ومشكلاته، انطباقه على المثقف العربي وأزمته، إذ ما أسهل علينا، تشخيص الظاهرة غير الطبيعية، والتحدث عن حلولها العملية، إلا أننا تعوزنا الوسيلة للوصول إليها، وأماننا الشواهد الكثيرة، في ضعف الموارد، أو سوء استغلالها في الأقطار العربية، أو الغرق في الديون، ولكن الوصول إلى معالجتها، معالجة ناجحة يكاد يكون مستحيلًا، وطفلنا العربي يعيش كل هذا ويكتوي بناره.

رابعاً: أجهزة الإعلام: وقد باتت أجهزة الإعلام، وفي مقدمتها التلفزيون، تلعب دوراً مهماً جداً، في حياة الطفل العربي، بما تبثه من برامج للأطفال خاصة. وقد كثر حديث الكتاب، عن هذا المؤثر في الطفل، وكان التنبيه لمخاطره، بمستوى هذه المخاطر، لما يشتمل عليه من برامج وافدة غريبة عن البيئة العربية الإسلامية، ولأنها لا تخاطب ذهن الطفل العربي وخياله، وبما ينسجم مع تكوينه الخلفي، والنفسي، والمنسجم مع القيم التي تشرّبها، أقول: أكثر الباحثون من الحديث عن هذه الوسيلة الإعلامية، ودعوا إلى ضرورة مواجهتها بمادة عربية: إنتاجاً، وتأليفاً،

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ١١٨.

(٢) هموم المثقفين ١٢.

وتمثيلاً، ودلت هذه الدعوات، على حرارة الصدق، لكنها سرعان ما اصطدمت بالواقع المؤلم، الذي حال دون تحقيق هذه الغاية: بسبب العجز المادي، أو الفني، أو المادة الملائمة، أو هذه الأمور مجتمعة. فنشأ الطفل وهو عارف بأسماء، وقيم، وسلوكيات غريبة على بيته ومجتمعه، ترسخ في ذهنه، ولا وجود لها في واقعه، وكفاك بهذه آفة. وآفة أخرى أسوقها، من جراء هذه الوسيلة الإعلامية المهمة، حين تم استغلالها أسوأ استغلال، نتيجة عدم الوضوح في رؤية القائمين عليها، بتسييسها بافراط، في بعض الأقطار، مما أدى إلى أن يرى الطفل الأمور من زاوية واحدة، وهي في أحيان كثيرة، زاوية جزئية، أعمت عينيه عن الوطن الكبير، فتكرست في نفسه النعرة القطرية، التي وضعت مواجهة للجانب القومي في الطرح.

إن وسائل الإعلام في عصرنا، فرضت نفسها على كل فرد في المجتمع، ودخلت بيوتاً كثيرة، وأصبحت تنازع الأسرة والمدرسة في الدور، في تربية الطفل وتنشئته، إلا أننا - للأسف - أدخلناها بيوتنا - ونحن مجردون من سلاح المادة التي تبثها، ومن الحصانة التي تقف في وجه البرامج التي نستوردها، وما بقي لنا إلا أن نندب حظنا، وننحو باللائمة على صانعيها، وهو ندب اليأس، ولوم العاجز.

تلك كانت المؤثرات المباشرة، على الطفل العربي، وهي التي كونت رؤيته الثقافية. وهناك مؤثرات أخرى، غير مباشرة، وهي التي تشيع في المجتمع، وتمارس يومياً، وهي مؤثرات سلبية، ويستطيع المرء أن يضع يده عليها، وعلى مسياتها، ولكنها في الوقت نفسه، تتصل بالمجتمع كله، ولعله يلقي بالتبعة فيها، على من يطلق عليهم اسم المثقفين العرب، سواء كانوا هم السبب الحقيقي، أم أنهم ظلموا وابتلوا بها، ومرد ذلك يعود، إلى أن المثقفين العرب هم الذين عالجوها، والغريب في الأمر أنهم لاموا بعضهم بعضاً، واتهم كل منهم الآخر، في تحمل

المسؤولية، ولكن الواقع غير هذا، والفضية أكبر من ذلك بكثير، والأسباب التي أوقعتنا، في هذا التيه والضياع والارتباك تتمثل في أمور منها:

* شيوع الظلم، وانعدام، الحريات، في العديد من البيئات العربية المعاصرة، وأدى هذا الأمر، إلى انعدام الثقة بين الأفراد، وانطواء الفرد على نفسه.

* سيادة التشخيص السطحي للمشاكل الاجتماعية والثقافية، وهي قضية عنيينا بها من بعيد، في تاريخنا الفكري والثقافي، وبالبعد عن الخوض فيها بعمق، خوض «المثقف العلمي الذي يرى الحق، ويسعى لتحقيقه»^(١)، ولكن الثمن الباهظ الذي يطالب به مثقفنا، من قبل بيئته التي يعيش فيها، حال دون السير حتى النهاية، وكان هذا الثمن درساً، حفظه الآخرون عن ظهر قلب، وتذكروه في كل خطوة خطوها، وكل كلمة حدثهم أنفسهم للنطق بها، فلجأوا إلى طريق السلامة، بأن مساوا الظواهر مساً خفيفاً، ولم يدخلوا فيها، وقد قاد هذا الأمر، إلى شيوع ردود فعل قوية، لدى بعض التربويين والمفكرين العرب المعاصرين، حين قال أحدهم: «شيء واحد وحيد يحدثنا به الواقع العربي، هو الجمود والعقم في شتى المجالات، والعجز عن الإبداع والابتكار»، وإذا ما أراد أن يستدرك، ويبحث عن مخرج لهذا المأزق الذي يمر به، فإنه يراه في الطفل، الذي علينا أن نرعاه، رعاية مختلفة عن تلك التي نحياها، وأوصلتنا إلى ما نحن فيه، فيقول: «وشيء واحد أساسي، ينبغي أن تتجه إليه فلسفة تربوية تريد أن تغير ذلك الواقع، هو أن نفكر بالإنسان الذي نقتل قواه منذ نعومة الأظفار»^(٢).

* إننا استفدنا من علوم الغرب وصناعاته، ونقلناها نقلاً، دون تمثل للعوامل

(١) في حياتنا العقلية، ١٤٣.

(٢) التربية في البلاد العربية، ٣٣٧.

التي ساعدت على تكوينها وإنشائها، والظروف الاجتماعية التي أوجدتها، وهذا الأمر أوقعنا في مشكلة، ما كان لنا أن نخرج منها، وهي انبهارنا بما لدى الغرب، من صناعة وعلم وفن وفكر، وتمسكنا واعتزازنا، بما لدينا من تراث روحي، وحضاري، واجتماعي، وعجزنا عجزاً تاماً، عن التوفيق بين الأمرين، وقد نبه مفكرون المعاصرون إلى هذه القضية، ودعوا للتنبه إليها، فقال مالك بن نبي: «إن أكبر خطئنا في تقدير المدنية الغربية، أننا ننظر إلى منتجاتها، وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات، ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة، لا تتصور هذه الصناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخلقى، الذي قام عليه صرح المدنية الغربية، في علومه وفنونه، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس، لسرى الإلغاء، على جميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون»(١).

إن هذه الظواهر، تؤثر في ثقافة الطفل العربي، بصورة غير مباشرة، وهي تعد مكملة للعوامل الأولى، ولا يستغنى عنها تجاهه.

وبعد، فإن الرؤية الثقافية للطفل العربي، هي امتداد للرؤية الثقافية لبقية فئات المجتمع، في مختلف سني العمر، وهي رؤية لا تدعو إلى كثير من التفاضل في واقعها، نتيجة التخلف في مجتمعاتنا، والتجزئة التي تتوزع على أقطارنا، والاحتلال الذي يجثم فوق أرضنا، والمآسي التي تحل بشعبنا، والفقر الذي يعانیه الكثيرون منا، والديون التي تكبل شعوباً وحكومات، فلا تجد مناصاً منها، إنها صورة واقعة قائمة مؤلمة، لا يخفف من وقعها على النفس، إلا العزيمة القوية التي لا تلين، وهي تتطلع للمستقبل باطمئنان وثقة، ودعوة صادقة تتردد على اللسان، وتستقبلها الأذن

(١) مشكلة الثقافة، ٧٧، وانظر ذلك ايضاً: في حياتنا العقلية، ١٧٤.

بصوت كالصراخ: أن تطلق الحريات للتعبير عن الرأي، وأن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأن يزداد الاهتمام بالمدرسة، وبما يرصد لوزارات التربية من ميزانيات، وأن يعنى ببرامج التلفزيون، بتوفير كل الإمكانيات المادية والبشرية، لإنتاج مادته الإعلامية، إنتاجاً عربياً، يراعي المتطلبات الذهنية والعقلية والنفسية للطفل العربي، وأن نبتعد عن المزاج والانفعال في المنهج، وأن تقفز المصلحة القومية على المصلحة القطرية الضيقة، وأن تنبع المادة بما يتلاءم مع تراثنا، وقيمنا الروحية الأصلية، وأن نفتح أبوابنا لكل مفيد للتطور والتقدم، وأن يحدث شيء من التكامل الاقتصادي، بين الأقطار العربية، لتضيق الفجوة بين الأقطار الغنية والفقيرة، وعندئذ يحدث شيء من التقارب في مستوى الحياة، وأن تفتح الحدود المغلقة بين بعض الأقطار..

«المصادر والمراجع»

- ١ - آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة . د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٥م.
- ٢ - أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٧٢م.
- ٣ - أسس النمو الإنساني، د. محمد خالد الطحان، دار القلم، دبي - ١٩٨٧م.
- ٤ - التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - ١٩٨٥م.
- ٥ - التربية في البلاد العربية، حاضرها ومشكلاتها، ومستقبلها، د. عبدالله عبد الدايم. دار العلم للملايين، بيروت - ط٣ - ١٩٧٩م.
- ٦ - التكامل بين أجهزة الإعلام وأجهزة الثقافة في الوطن العربي، مجموعة من الباحثين. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس - ١٩٨٤م.
- ٧ - رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، د. ت.
- ٨ - رعاية الطفولة في الإسلام، بحوث حلقة رعاية الطفولة في الإسلام، أبوظبي - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٩ - في حياتنا العقلية. د. زكي نجيب محمود، دار الشروق بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ١٠ - مستقبل الثقافة في مصر. د. طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت - ١٩٧٣م.
- ١١ - مشكلة الثقافة. مالك بن نبي - دار الفكر - دمشق ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
- ١٢ - هموم المثقفين. د. زكي نجيب محمود. دار الشروق، بيروت - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

رَفَعُ
عبد الرحمن العجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رثاء الأبناء في الشعر العربي
حتى نهاية العصر الأموي

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

تعد هذه الدراسة مكملية لدراسة سبقتها وصدرت من قبل، وتناولت موضوع «تربية الأبناء في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي» وتأتي هذه الدراسة لتتحدث عن الأبناء من زاوية أخرى هي «رثاؤهم» في الحقبة الزمنية ذاتها.

لقد أعجبت بالموضوع، وتعلقت به، مما دفعني لمواصلة دراسته، لالتصاقه بالعاطفة، وتعبيره عنها، ولرقة الأشعار التي عاجلته، وتردها على ألسنة قائلها عفو الخاطر. وأنا إلى هذا النوع من الشعر أميل من سواه.

وقد وقعت الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول. تكلمت في التمهيد على فن الرثاء عامة، بين فنون الشعر العربي. ثم تحدثت عن رثاء الأبناء خاصة.

وفي الفصل الأول تحدثت عن الرثاء عند الآباء، تناولت فيه أشعارهم التي قالوها في رثاء أبنائهم بالتحليل والتعليق، وأبرز الوسائل الفنية التي استعانوا بها للتعبير عن عواطفهم وأحاسيسهم تجاه أبنائهم.

والفصل الثاني أفردته للحديث عن الرثاء عند الأمهات، محللاً ومعلقاً على أشعارهن فيه، مبيناً كذلك وسائلهن الفنية.

وفي الفصل الثالث تكلمت على الخصائص الفنية لشعر رثاء الأبناء.

وبذلك فإن هذه الدراسة تعدُّ دراسةً موضوعيةً فنيةً، جمعت بين الجانبين باعتبار أن كلا منهما يكمل الآخر. ومن الخطأ الاقتصار على أحدهما وإهمال الآخر.

وبعد، فأرجو ألا تخلو هذه الدراسة من الجدة والطرافة، ومن سلامة المنهج الأدبي الذي نتطلع إلى بنائه وتمثينه في الدراسات الأدبية، وأعني به التركيز في البحث، والتنقيب عن الجيد من الموضوعات التي ما زالت بكرا، ولم تبحث من قبل، والابتعاد عن التكرار في موضوع الدراسة، والتمهل في استخلاص النتائج، حيث لا مجال لإظهار الجديد ما دام قد قتل درسا.

تمهيد

كان نقاد العرب القدامى، يرون في الرثاء باباً من أبواب المديح، باعتبار أن الرائي، يعدد مناقب الميت، التي تدعو إلى البكاء عليه لأنه بفقدته للميت، يكون قد فقد تلك المناقب والحسنات. ولذلك لحظنا قدامة بن جعفر يرى «أنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: «كان» و «تولى» و «قضى نحب» وما أشبه ذلك. وهذا لا يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته»(١). وأخذنا بها الرأي فإنهم رأوا أن «أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات»(٢).

إلا أننا، إذا علمنا أن الرثاء يبني على شدة الجزع - كما قال ابن رشيق - وأن كل موضوع يصلح أن يكون ميداناً ينظم فيه الشاعر قصيدته، إذا ما توفرت عوامل الانفعال والتفاعل بين الشاعر وموضوعه، فما بالناس إذا كان مما يتصل بالجزع والحزن، لا شك أن هذا وحده يكفي لأن يكون الشاعر قادراً على أن يأتي بالشعر الرقيق الجميل. ومن بعيد أكد جرير رأينا هذا حينما رثى زوجته بقصيدة قيل عنها إنها أروع مرثية.

(١) نقد الشعر ١٠٠.

(٢) العمدة ٢: ١٥٤.

وقد قسم النقاد الشعر إلى أغراض وفنون، وتكلموا عليها وعلى خصائص كل غرض منها، وقيمته الفنية. وحينها وصلوا إلى الرثاء رأيناهم يطلقون عليه أحكاماً عامة غير واضحة بحيث يصعب على الدارس أن يقول فيها رأياً قاطعاً فيما عناه الناقد. فقال: «أصغر الشعر الرثاء، لأنه لا يعمل رغبة ولا رهبة» (١). فما المقصود بأصغر الشعر، أمدح هو أم ذم، وإن كان إلى الذم أقرب لأن سياق العبارة يشي بهذا لأنه «لا يعمل رغبة ولا رهبة»! وهل هذا صحيح أعني هل هناك شعر كبير وشعر صغير؟ وإذا كان شعر الرثاء «لا يعمل رغبة ولا رهبة» ألا توجد أشياء أخرى يمكن أن يعملها في نفس الفرد بحيث تؤثر فيه تأثير الرغبة والرهبة؟ هذا ما أميل إليه، ولكنني في الوقت نفسه، أرى أن السبب في موقفهم ذلك هو طغيان القضايا المادية على منهجهم في الشعر، وسيطرة شعر المدح وغلبته على أشعارهم، فجرهم هذا إلى القطع بهذا الرأي. وليس أدل على ذلك مما قاله أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي: «أنت في مدائحك لمحمد بن منصور كاتب البرامكة أشعر منك في مراثيك له. فقال: كنا - يومئذ - نعمل على الرجاء، ونحن نعمل اليوم على الوفاء». فإذا كان هذا هو قول الشاعر المنشء فليس غريباً على الناقد الأخذ به وتأكيده.

وروي عن الأصمعي، أنه سأل أعرابياً عن المراثي: «ما بالها أشرف أشعارهم» فقال: «لأننا نقولها وقلوبنا محترقة» (٢) فنرى حكم الأصمعي - الأديب اللغوي الناقد - حكماً أخلاقياً، يتصل بالشرف، وكأنه أطلق حكمه ذلك لأن شعر الرثاء خلا من كل ما من شأنه أن يمس الشرف والخلق الحميد، فخلا من الفحش في القول، والغزل، والمجون، والهجاء، وخلا مما درج عليه الشعراء العرب وكان

(١) المصدر السابق ١: ١٢٣.

(٢) نهاية الأرب ٥: ١٦٥.

تقليداً ثابتاً عندهم لا يجيدون عنه، وهو افتتاح القصيدة بالنسيب وذكر الأطلال، حتى أن ابن الكلبي قال: «لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة:

أرث جديد الحبل من أم معبد

بعاقبة وأخلفت كل موعداً» (١)

وعلق ابن رشيقي على قصيدة دريد هذه بقوله: «وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة، وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته» (٢).

هذا مجمل رأي القدامى في الرثاء بصفة عامة. وقد اقتصرنا في حديثي على جانب منه وهو رثاء الأبناء، وهو الجانب الأكثر التصاقاً بالعاطفة، والذي يمكن أن يخرج من دائرة الحديث التي تناوها النقاد في آرائهم وأحكامهم.

*** ** **

سئل عبيدالله بن أبي بكرة عن موت أربعة هم: الأب والزوجة والأخ والولد: وما رأيه في كل واحد منهم، وأثره في نفسه، فقال عن الأب: ملك حادث، وعن الزوجة: عرس جديد، وعن الأخ: قص جناح، وعن الولد: صدع في الفؤاد لا يجبر (٣).

وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين﴾ (٤). وعلق السيوطي (٥) على هذه الآية بقوله: فسر قوم من العلماء الثمرات بالأولاد، والأعصاب...

(١) العمدة ٢: ١٥١. وانظر القصيدة في ديوان دريد بن الصمة ٤٥.

(٢) العمدة ٢: ١٥١.

(٣) عيون الاخبار ٣: ٩٢. وملك حادث: لانه يرث ويستقل بأمر نفسه. وعرس جديد: لان الزوج يتزوج اخرى. وقص جناح: كناية عن الضعف بعد القوة (سشد عضدك بأخيك).

(٤) سورة البقرة ١٥٥.

(٥) مقامات السيوطي ٧٦.

هذان نموذجان، وقبلهما أشرنا إلى نموذج الأصمعي، وهو يتصل بفن الرثاء بصفة عامة، من حيث كونه أشرف الشعر وأصدق، وتعليل الأعرابي لذلك، لأن الإنسان إذا فقد عزيزاً تنهمر الدموع من عينيه، ويصعب عليه تمالك نفسه وجلده، وإذا به يصيح ويصرخ، ثم يقول الشعر الذي يجد فيه سلوى لآلامه ومعاناته، فيصدر عن القلب المحترق، وإذا به أشرف الشعر. ويعبر عن العاطفة التي اكتوت بتلك النار، وإذا به أصدق الشعر.

وفي النموذج الثاني، نلاحظ التفاوت في شعور الإنسان تجاه من يفقدهم، على الرغم من اعتزازه بهم جميعاً، فترى الناس تختلف مواقفهم في هذا، فمنهم من يبكي بكاء مرأً على فقیده، ومنهم من يتجلد ولا يظهر حزنه، ومنهم من يبكي بكاء صامتا غير ظاهر. لكن الحزن هو هو، على الفقيد، وإن كان للابن النصيب الأوفر فيه. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حينما توفي ابنه إبراهيم فرأيناه يقول، وهو يتجلد: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(١).

وتعليق السيوطي على الآية الكريمة يشي بما لفقد الأولاد من وقع في نفوس الآباء، ولذلك أخرج أولئك العلماء الأولاد من دائرة الأنفس، التي نص عليها الله جل شأنه في كتابه العزيز، واعتبروهم ثمرات للفؤاد عند الآباء، ونحن نعلم، أن الله تعالى، نص على الأولاد في محكم كتابه، بأنهم زينة وفتنة لآبائهم. فإذا ما ابتلى الله الآباء، فلا أشد من أن يبتليهم بأولادهم وبالنقص فيهم.

وإذا كان الأمر على هذا النحو عند العرب في موقفهم من الرثاء، بحرقته وألمه، وإذا كانوا ينظرون لفقد الولد هذه النظرة - صدع في الفؤاد لا يجبر - فهل كانت

(١) شرح رياض الصالحين ٧٠٠.

النظرة واحدة متقاربة عند الأم والأب في هذا الحدث الجلل، وقد توفرت لدينا المادة الغزيرة لدى الطرفين، وهي حالة ملفتة للنظر، أن تتوفر مادة شعرية متقاربة لدى الرجل والمرأة في موضوع واحد، هو رثاء الأبناء. بل إن المادة الشعرية لم تكن على هذه الحال عندهما إلا في جانبين اثنين، لهما مساس مباشر بالعاطفة الصادقة، وبالشعور الانثوي، الذي تجسد في الرقة والحنين والحب. هذان الجانبان هما: الحنين إلى الوطن، والرثاء. إذ إن المرأة وقفت جل أشعارها - إن لم يكن كلها - لهذين الجانبين، وانصبت دموعها غزيرة في حديثها عنهما. كما أن الرجل فقد كثيراً من جلده أمامها فبكى واستبكى في معالجته لهما. فما بالناس إذا كان الرثاء يتعلق بالولد! لقد كان الموقف مؤثراً، وقد أثرنا الحديث في هذا الموضوع عند الآباء ثم عند الأمهات كل على حدة، علنا نجد فرقا في المعالجة.

الفصل الأول عند الآباء

لعل أبرز الشعراء العرب الذين عرفناهم في القديم ممن رثوا أبناءهم، أبو ذؤيب الهذلي الذي فقد خمسة أبناء في عام واحد فرثاهم بقصيدته العينية التي اقترنت باسمه وأصبحت مثلاً أعلى لرثاء الأبناء. وبات أبو ذؤيب بين الشعراء الرجال في الرثاء كالخنساء في الموضوع ذاته بين النساء.

وقد كانت قصيدة أبي ذؤيب من القصائد الطويلة (١) التي تناولت موضوعاً واحداً، إذ جاءت في تسعة وستين بيتاً. بث فيها الشاعر آلامه ومعاناته في فقد أولاده. وإذا حاول أبو ذؤيب أن يلون قصيدته بموضوعات أخرى وكأنها غير موضوعه الأساس، إلا أنه كان يعكس ما في نفسه على كل موقف جديد. وإذا بالقصيدة تصور لنا لوحات فنية، عرضها الشاعر بأكثر من ثوب ومظهر، إلا أنها جسدت في النهاية صورة الموت وموضوعه، والفناء والهلاك الذي كان يحاول الشاعر، الهرب من، ولم يكن له منه فكاك.

في اللوحة الأولى، التي استغرقت تسعة عشر بيتاً، بدأ الشاعر بنفسه، وتحدث عما يلاقيه من عناء وحسرة وآلام، وكيف أفصح عن هذا كله وهو الرجل الجلد ذو المال الكثير:

أمن المنون وريبها تتوجع؟
والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة: ما لجسمك شاحباً
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع؟

(١) ديوان الهذليين. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ص ١ - ٢١.

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعاً إلا أقض عليك ذاك المضجع

وقد قيل إن أميمة تلك هي زوجته، وهذا ما أشك فيه، اللهم إلا أن تكون امرأة أخرى غير أم أبنائه. لأن امرأة كهذه لم تكتو بشكل الابن، هي التي يهملها أن يكون زوجها متألماً قوياً، ولا تريده شاحباً. وهي التي تنهيه لأن ماله الكثير ينفعه ويعوضه. نعم. امرأة أخرى هي التي تفصح عن حالة زوجها التي أفلقتها وأقضت مضجعها مثلما أقض مضجعه... وانظره في تصوير حالته وهو لا يستقر على حال، فما يكاد ينام على جنب، حتى ينقلب على آخر، وكأنه ينام على الحصى الذي لا يجد راحة ولا استقراراً عليه.

وأستاذنا الدكتور نوري القيسي ينكر وجود هذه المرأة أصلاً ويعتبرها صورة وهمية جردها أبو ذؤيب لتسأل هذه الأسئلة وتثير الكوامن «ليكشف عن ألمه وحزنه، وليتخذ هذا المفتاح وسيلة للتعبير عن دواعي الشحوب، وأسباب الأرق، وعوامل ابتذال النفس» (١).

حتى إذا أجاب الشاعر أميمة، رأيناها يكشف عن الأسباب الكامنة وراء ذلك كله. وإذا بها أسباب تسير سيرا منطقياً من بدايتها إلى نهايتها على هذا النحو: هلاك أبنائه «أودي بني من البلاد فودعوا» ومرة أخرى يعيد الشاعر «أودي بني وأعقبوني غصة». ألا ترى في هذا التكرار «لأودي بني» شيئاً من الذهول، والرغبة في الصراخ والعيويل؟ وكأنه يريد أن ينقل ما في نفسه من نار وحسرة إلى المستمع، ومن هو ذاك؟ إنه أميمة التي تلومه على حاله، كي تعذره وتشعر بشعوره. هذا ما أراه في هذا التكرار، وأكثر منه، إذ إن هذه الحالة نفسية يعيشها الإنسان في مرحلة

(١) دراسات في الشعر الجاهلي ٩٢.

المعاناة الشديدة فيصرخ ويعيد الصراخ علَّ الآخرين يسمعون فيشعرون بما يلاقيه،
وهيئات لهم أن يسمعوا، وهيئات له أن يسمعهم:

فأجبتها أن ما لجسمي أنه
أودى بني من البلاد فودعوا
أودى بني وأعقبوني غصة
بعمد الرقادِ وعبرة لا تقلعُ

إنها الغصة التي تلت هلاك أبنائه، فأصبح من جرائها لا يذوق النوم، ودموعه
لا ترقأ لأنهم سبقوه وتتابعوا واحداً بعد الآخر، وخلفوه في عيش ونكد، وفي جهد
وتعب، وهو يعلم علم اليقين أنه لاحق بهم لا محالة:

سبقوا هوي وأعنقوا هواهمُ
فتخرموا ولكل جنب مصرعُ
فغربتُ بعمدهمُ بعيش ناصب
وإخالُني لاحق مستتبعُ

ثم ينتقل الشاعر للحديث عما كان يمني النفس به تجاههم، من حرص في الدفاع
عنهم، وفي التفاخر بهم بين القوم، ولكن أنى له ذلك إذا ما أقبلت المنية وانقضى
الأجل:

ولقد حرصتُ بأن أدافعُ عنهمُ
فإذا المنية أقبلتُ لا تدفعُ
وإذا المنية أنشبتُ أظفارها
ألفيتُ كل تميمة لا تنفعُ

(١) شرح رياض الصالحين ٧٠٠.

وقد عاب بعض النقاد من قديم، التكرار في العبارة، وها هو ذا أبو ذؤيب يكرر فيها للمرة الثانية، وسيكررها ثالثة ورابعة وخامسة في قصيدته، وكم أنا معجب بهذا التكرار، وكم أشعر بالتفاعل مع الشاعر وهو يكرر عباراته، التي ألس من خلالها صدق التجربة، واللوعة التي كان يمر بها وهو يقول قصيدته.

وإذا كانت «عبرة الشاعر لا تقلع» من قبل، فإن عينه هذه المرة كأنها فقتت بشوك فأصابها العور، وباتت دائمة الدمع، وإذا به أصبح مضرب المثل في كثرة المصائب، انظره وهو يقول «كأني للحوادث مروة بصفاء المشرق كل يوم تقرع». فالمروة، حجر أبيض تقتدح منه النار، ويقال لمن كثرت مصائبه: قرعت مروته، وهكذا كانت حالته:

فالعينُ بعدهمُ كأن حداقها
سملتُ بشوكٍ فهي عورٌ تدمعُ
حتى كأني للحوادث مروةً
بصفاء المشرق كل يوم تقرعُ

يشعر أبو ذؤيب بأنه كثير المصائب والنكبات، مع يقينه بأن الانسان لا بد له أن يلاقى أجله المحتوم، وهي حالة عقلانية، يعود الرجل فيها إلى رشده، ويحكم عقله، وينحي عاطفته قليلا، وقليلا جدا، والغريب أن هذه الحالة لم تكن إلا من باب المكابرة أمام الأعداء، لأن شاعرنا لم يتخذ هذا الموقف لقناعته بأنه:

كل ابن أنشى وإن طالت سلامته
يوماً على آله حدياءَ محمولُ

وبأن الانسان مهما طال عمره فسوف يبكى عليه وهو لا يسمع البكاء. أقول: لم يكن موقف أبي ذؤيب من هذا المنطلق، وإلا لطابت نفسه، وقرت عينه، ورضي بالأمر الواقع، لكن موقفه نبع من (التجلد) الذي يحمل صاحبه المعاناة والتكلف،

وتكلفه هذا أمام أعدائه الذين يشعر بشماتتهم به لذلك رأيناه يقول:

وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضععُ

ولكنه لا يستطيع الثبات على هذه الحالة، وذلك الجلد، وإذا به يعود إلى ما هو فيه من مأساة، فيصفها وهي بإيجاز: كان في عيش ناعم فتصدع، وبأهل مودته فجع!! انظره يقول:

كم من جميع الشمل ملتئم الهوى
باتوا بعيش ناعم فتصدعوا
فلئن بهم فجع الزمانُ وريبه
إني بأهل مودتي لمفجعُ

وبهذا تنتهي اللوحة الأولى التي أراد الشاعر رسمها، فكانت لوحة مباشرة معبرة عن ذاته في فقد أبنائه.

وتأتي اللوحة الثانية - لوحة الموت أيضاً - يفتتحها الشاعر بمطلع:

«والدهر لا يبقي على حدثائه» هذا المطلع الذي يصبح لازمة له في افتتاحه للوحاته التالية. وكأنه بهذه اللازمة يريد أن ينبهنا، إلى أن صورة جديدة ستبدأ، وصورة أخرى انتهت.

تبدأ اللوحة بحكمة يمكن الأخذ بها، والتسليم بمضمونها، «الدهر لا يبقي حدثائه». وفي البيت الذي يليه، يثبت الشاعر الصدر بنصه - رأيت التكرار الذي تحدثنا عنه؟ - ثم يقص علينا قصة حمر وحشية كلها نشاط وحيوية، وفي مكان خصيب، فيه العشب والكلأ، وفيه الماء الذي ترده، فتشرب وترتوي بلا جهد ولا عناء، هذا حالها آمنة مطمئنة.

قوردن والعيوق مقعد رابىء الـ
ضرباء فوق النظم لا يتتلع
فشرعن في حجرات عذب بارد
حصب البطاح تغيب فيه الأكرعُ

أرأيت حالها، وقد وردت الماء في آخر الليل حين طلوع كوكب العيوق فوق
الجوزاء كأنه رابىء الضرباء - وهو الرجل الذي ينظر من يضربون بالقдах - وهذا
الوقت تميل فيه الثريا للغروب، والعيوق خلفها قريب قرب الرقيب - أقول: وردت
الماء في هذا الوقت الشاعرى الذي يغلب عليه الهدوء والسكينة، وشربت الماء البارد
العذب الكثير الذي كانت بطاحة ذات حصباء، وشرب الماء على حصباء يكون
أعذب وأصفى. ولكن هيهات أن تدوم الهناء والرواء لها، أو قل وهيهات لأبى
ذؤيب أن يرضى لها هذا، وهو معذب من الموت وثكل الأبناء. لذلك رأيناه ينقل
ما يحس به ويعانيه إليها، كي تذوق الموت، وكي يخفف عن نفسه برؤيته معاناة
الآخرين، ولو كانوا من عالم الحيوان، وعلى عكس ذلك، أتراه يشعر بالرافة
والشفقة على تلك الحيوانات التي ابتليت بالموت وهي في رغد من العيش مثلما كان
هو؟ ربما. ولعلي أميل إلى هذا من ذاك. انظرها كيف انقلبت حياتها من سعادة إلى
شقاء:

فشربن ثم سمعن حساً دونه
شرفُ الحجابُ وريبُ قرع يقرعُ
ونميمة من قانص متلبب
في كفه جشءٌ أجشٌ وأقطعُ
فنكرنه فنفرنَ وامترستُ به
سطعاءً هادية وهاد جرشعُ

فرمى فأنفذ من نجود عائط
 سهماً فخر وریشه متصمغُ
 فبداله أقرابُ هذا رائغاً
 سهماً فخر وریشه متصمغُ
 فبداله أقرابُ هذا رائغاً
 عجلأ فعيث في الكتانة يرجعُ
 فرمى فالحق صاعدياً مطحراً
 بالكشح فاشتملت عليه الأضلعُ
 فأبدهن حتوفهن فهارب
 بدمائه أو بارك متجمععُ
 يعثرن في حد الطبات كأنها
 كسيت برود بني يزيد الأذرع (٣)

رأيت كيف يحاول الكائن الحي المحافظة على حياته، والتخلص من قدره
 المحتوم. وكيف أن القدر يتربص به، وينقض عليه، وإذا به ليس له منه فكاك.
 لقد أحست الحمر بصوت غريب مريب، نتيجة استعداد الصياد لقنصها، فأنكرت
 الصوت وارتابت منه، فنفرت والتصقت وتجمعت، عليها بتناسكها، وتراصها تجدد
 لها مخرجا، أو قل شعرت كل واحدة منها أنه بإمكانها أن تحتمي بأختها كي لا
 يصيبها السهم، ولكن أنى لها ذلك، وهو يرميها بالسهم تلو الآخر، الأمر الذي

(١) شرف الحجاب: يريد حجاب الصائد لانه يستتر بشيء. ونميمة: صوت الوتر لانه نم عليه.
 ومتليب: متحزم. والحشء: قضيب خفيف. واجش: غليظة الصوت يعني القوس. وامترست به:
 يعني الاتان سارت مع الفحل. وسطعاء: طويلة العنق. وهادية: متقدمة. وهاد: يعني الفحل.
 وجرشع: متفخ الجين. والنجود: الاتان الطويلة. ومتصمغ: منضم. والمطحر: السهم البعيد
 الذهاب. وأبدهن: أي الصائد اعطى كل واحدة منهن حتفها. بدمائه: ببقية من نفسه. ومتجمعع:
 لاصق بالارض قد صرع.

يجعل الهرب يكاد يكون مستحيلا ، وإذا بكل واحد يأخذ نصيبه - وأي نصيب!! إنه الموت الذي أراده أبو ذؤيب لها، كي يتحد الموضوع والموقف الذي يقفه، والذي انعكس على هذه الصورة الرمزية التي رسمها ممثلة في الحمر الوحشية والصيد.

ونصل إلى اللوحة الثالثة من لوحات «الموت» التي رسمها أبو ذؤيب، وهي مصدره باللازمة التي اختارها مفتتحا إياها بـ «الدهر لا يبقى على حدثانه». وقصتنا هذه المرة مع ثور مسن طارده الكلاب، وحاول جاهدا الفرار منها دون جدوى، لأنه وقع بين يدي كلاب مدربة متمرسه في مطاردة صيدها إلى أن تفرسه.

يصف الشاعر الثور وقد ارتاع من تلك الكلاب، واضطرب فؤاده، الأمر الذي جعله مرتابا من كل شيء، ويزداد فزعه كلما رأى ضوء الصباح، ذلك لأن الصائد يباكره فيه. فيحاول التخلص ولا يجد ملجأ له إلا أشجار الأرض التي اعتاد أن يحتمي بها إذا داهمته أخطار الطبيعة ممثلة في المطر، والريح الشديدة. ويبقى في قلق وخوف وهلع، يمد بصره إلى الآفاق البعيدة ليستكشف ما يجتبه له القدر، ولتتوفر لديه الفرصة الكافية للهروب إذا ما فاجأته الأخطار. فهو يسمع الحركة، ويحاول أن يصدق طرفه أذنه:

يرمي بعينيه الغيوبَ وطرفهُ

مغض، يصدق طرفه ما يسمعُ

وكم تكون الأعصاب مشدودة، والأمر على هذا النحو.

وإذا ما أشرقت الشمس، يخرج الثور ليجفف ما عليه من الندى، فتكون المفاجأة أمامه، الكلاب وهي تتسابق عليه وتقترب منه، فيحتاج ويفر، ويطلق ساقيه للريح - كما يقولون - ولكن هيهات له الفرار، وقد وقع بين برائن تلك الكلاب المدربة. وتبدأ المعركة من أجل البقاء، بعد أن يئس من الفرار. هي تنهشه، وهو يدفعها عنه ويردعها، يساعده في هذا قرنان قويان، فيصرع كلبا، وكلبا ثانيا، بل

«أقصد عصابة منها» أي قتلها، مما دعا ما تبقى منها أن ترتد عنه، وتفر منه حتى إذا ما ظن أنه انتهى من معركته، يبدو له صاحب الكلاب ويده نصال رفاق، فيرميه بواحدة منها لينقذ بقية كلابه، وليخر الثور صريعاً ملطخاً بدمائه. إنها النهاية هي التي أرادها أبو ذؤيب، ولكنه في هذه اللوحة أكثر من الموت من الطرفين، الكلاب والثور. فهل يريد شاعرنا أن يصعد الموقف أكثر فأكثر، ويريد المزيد من الموت لسواه كي يشفي غليله، ويخفف من حرقه ثكله لأبنائه؟ يقول:

والدهرُ لا يبقي على حدثانه
شيب أفزته الكلابُ مروعُ
شعبَ الكلابِ الضارياتُ فؤاده
فإذا يرى الصبحَ المصدقَ يفرعُ
ويعودُ بالأرطى إذا ما شفهُ
قطر وراحتهُ بليل زرعُ
يرمي بعينيه الغيوبَ وطرفهُ
مغض، يصدقُ طرفهُ ما يسمع
فغدا يشرق متنه فبداله
أولى سوابقها قريباً توزعُ
فاهتاج من فزع وسد فوجهُ
غبر ضوار: وافيان واجدعُ
ينهشنه ويذهبن ويحتمي
عبلُ الشوى بالطرتين مولعُ
فبحالها بمذلقين كأنها
بهما من النضج المجدع أيدعُ

حتى إذا ارتدت وأقصد عصابة
منها وقام شريدها يتضرعُ
فبداله رب الكلاب بكفه
بيض رهاف ريشهن مقزع
فرمى لينقذ فرها فهوى له
سهمٌ فأنفذ طرتيه المنزعُ
فكبا كما يكبو فنيقُ تارزُ
بالخبت إلا أنه هو أبرعُ(١).

وتكتمل المأساة، ويصل حد الموت أقصى مداه، في اللوحة الرابعة والأخيرة التي
كللها أبو ذؤيب بالسواد، وقد تجسدت في معركة بين فارسين مغوارين تبارزا.
وعهدنا بالفرسان حينما يتبارزون، يصرع أحدهما الآخر. وتكون النتيجة أن أحدهما
منتصر، والآخر منهزم.

هذا ما عهدناه، أما أن تكون النتيجة الهزيمة للثنين، وأية هزيمة؟ الموت لهما.
هذا ما قل وقوعه بين المتبارزين.

(١) الشيب: الثور المسن. افزته: استخفته وطرده. المصدق: المضيء. الارطي: شجر ينبت بالرمل.
زعزع: ريح شديدة. شرق متنه: أظهره للشمس. وتوزع: تكف وتجبس على ما تخلف منها.
الفروج: ما بين القوائم. الغبر: الكلاب تضرب الى الغبرة. ضوار: قد دريت وتعودت. وافيان: لم
تقطع أذانيها. أجدع: قطعت أذنه. عبل الشوى: غليظ القوائم. الطرتان: خطان يفصلان بين
الجنب والبطن. مولع: فيه ألوان مختلفة. مذلقان: قرنان. الايدع: الزعفران. السفودان:
واحدهما، سفود: حديدة معقفة يشوى بها اللحم. مقزع: محذف، مقدر، أي ميت. الخبت: ما
اطمأن من الارض واتسع.

حدثنا شاعرنا بتلك القصة، وأفاض في وصف بطولة الفارسين، وفي كثرة المعارك التي خاضها، حتى أن الدرع من كثرة بقائها على وجه الواحد منها حرقته وجعلته أسود اللون. كما يفيض في وصف فرسيهما وقوتها، وإن كان لم يوفق في وصف الفرسين مثلما وفق في وصف الفارسين. والسبب في ذلك أن الهذليين لم يكونوا أصحاب خيل، وإنما كانوا أصحاب جمال، وكانوا يغيرون رجالة، كما نجبرنا الأصمعي (١). أقول أفاض أبو ذؤيب في وصف الفارسين، ووصف سلاحهما وفرسيهما، وكأنه أراد أن يصل إلى أنها كانا متكافئتين في كل شيء، وتأتي النتيجة: إما أن لا يستطيع أحدهما القضاء على صاحبه، وهو ما يتبادر للذهن لأول وهلة، وإما أن يقتل كل منهما الآخر. وهو ما أراده الشاعر ليكون منسجماً مع نفسه في القصيدة من أولها إلى آخرها. وليصل إلى النتيجة المحتومة التي طالما ردها في القصيدة، وهي أن «الدهر لا يبقي على حدثانه». أجل هذا ما أراده، وما وصل إليه، انظره يقول:

والدهرُ لا يبقي على حدثانه
مستشعرٌ حلق الحديد مقنعٌ
حيتُ عليه الدرع حتى وجهه
من حرها يوم الكريمة أرفعُ
تعدو به خوصاء يفصمُ جريها
حلق الرحالة فهي رخوٌ تمزغُ
قصرَ الصبوح لها فشرح لحمها
بالني فهي تنوخُ فيها الأصبعُ

(١) دبران الهذليين ١٧.

متفلق أنساؤها عن قانيء
 كالقمرط ضاو وغبرة لا يرضعُ
 تأتي بدرتها إذا ما استكرهتُ
 إلا الحميم فإنه يتبضعُ
 بينا تمنقه الكماة وروغه
 يوماً أتيج له جريءٌ سلفعُ
 يعدو به نهش المشاش كأنه
 صدعٌ سليمٌ رجعه، لا يظلعُ
 فتناديا وتوافقت خيلاهما
 وكلاهما بطل اللقاء مخدعُ
 متحاميين المجد كل واثق
 ببلائه واليوم يومٌ أشنعُ
 وعليهما سرودتان قضاهما
 داود أو صنع السوابغ تبعُ
 وكلاهما في كفه يزنبةُ
 فيها سنان كالمنارة أصلعُ
 وكلاهما متوشحٌ ذا رونق
 عضبا إذا مس الضريبة يقطعُ
 فتخالسا نفسيهما بنوافذ
 كنوافذ العبط التي لا ترفعُ
 وكلاهما قد عاش عيشة ماجد
 وجنى العلاء لو أن شيئاً ينفعُ

فعمت ذبولُ الريح بعدُ عليهما والدهرُ يحدُّ ريبهُ ما يزرعُ (١)

صدق أبو ذؤيب: كل منهما يمكنه أن يجني العلاء والمجد، لو أن شيئاً ينجو من «الموت»!!

وبعد، فقد تناولت القصيدة موضوعات أربعة، على غرار القصيدة العربية في تعداد موضوعاتها. ولكن هل لي أن أقول: إن هذه القصيدة على الرغم مما يبدو في ظاهرها من تعدد في الموضوعات إلا أنها، في حقيقتها تعالج موضوعاً واحداً هو «الموت»، الذي نلاحظه من الجوّ النفسي العام الذي سيطر عليها من أولها إلى آخرها، وما التعدد في الموضوعات الذي يظهر لأول وهلة، ما هو إلا تنويع وتلوين في الوسائل التعبيرية التي حاكتها يد شاعرنا الفنان، فعبر عما يختلج في نفسه من حيث القضية الواحدة، بعدة صور وأساليب.

وهل لي أن أقول: إن الوحدة الموضوعية التي تمثلت في القصيدة التي بين أيدينا، تعد من المظاهر القليلة النادرة في شعرنا القديم، التي استطعتنا الوقوف على حقيقتها من خلال النظرة الجديدة للقصيدة العربية القديمة، والتي تدعونا إلى المزيد منها، بالبحث عن الظلال التي يلقيها النص، والايحاء الذي يوحي به. وذلك لا يتم إلا بفهم النص فهماً إجمالياً واستنباط الفكرة الرئيسية التي بنى الشاعر قصيدته عليها. وبذلك، لا تكون النماذج قليلة نادرة كما هي الآن. بل لعلها كثيرة.

(١) مستشعر: اتخذ شعاعاً. أرفع: أسود. خوصاء: فرس غائرة العينين. حلق الرحالة: ابنزيم السرج. رخو تمزع: تسرع في عدوها. قصر الصبوح: حبس اللبن للفرس. تنوخ: تدخل. الأنساء: واحدها النساء، عرق يخرج من الورك ويستبطن الفخذ. ضاو: يابس. الغير: بقية اللبن. الحميم: العرق. يتبضع: يفتح بالعرق. سلفع: جرى الصدر. نهش المشاش: خفيف القوائم في العدو. صدع: طلي. مجدع: مجرح. مسرودتان: درعان. زينة: قناة. العبط: شقوق في ثياب جدد.

وسار على منهج أبي ذؤيب الهذلي، هذلي آخر هو صخر الغي في رثائه لابنه تليد. وكاد أن يكون الشاعر مطابقاً لأبي ذؤيب في وصف حالته، وفي وسائله الفنية التي عبر بها عن حالته. الأمر الذي يدعونا للتساؤل عن سبب هذا، أهو الألم الذي تمثل في وحدة الموضوع فألح على الشاعرين في تناوله. أم هو التقليد الفني الذي دعا صخر الغي يعجب بأسلوب أبي ذؤيب، فما كان عليه إلا أن يقلده فيه ويسير على نهجه في رثائه لابنه؟ وهذا ما أميل إليه.

لقد ترددت أفكار أبي ذؤيب ولوحاته في قصيدة صخر الغي، فأبو ذؤيب كان قلماً في منامه وكان تحت جنبه الحصى فلا يقدر على النوم:

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعاً
إلا أقضَّ عليكَ ذاكَ المضجعُ

وصخر الغي لم يذق النوم وليله يطول ويشعر ألا نهاية له:
أرقتُ فبتُّ لم أدقَّ المناما
ولسيلي لا أحسُّ له انصراما

ولسنا عند أبي ذؤيب روح الايمان، وبأن القدر نافذ لا محالة، مهما حاول الانسان مكافحته أو الهرب منه فقال:

وإذا المنيةُ أنشبتُ أظفارها
الفتيتُ كلُّ تميمة لا تنفعُ

وإذا بالفكرة هي هي تتكرر عند صخر الغي في بيته الثاني من قصيدته، فيقول:

لعمركَ والمنيا غالباتُ
وما تغني التميماتُ الحاماً

والشكوى من الدهر ونوائبه وإذا به يشتم الشمل الملتئم، ويجعل العيش الناعم

مكدرا، جاءت هذه الشكوى على لسان أبي ذؤيب في قوله:
كم من جميع الشملِ ملتئم الهوى
باتوا بعيث ناعم فتصدعوا
وأعادها صخر الغي في قصيدته حين قال:

أرى الأيام لا تبقي كـريماً
ولا العصم الأوابد والنعاماً

والاستعانة بالحيوان وصراعه مع الموت من أجل الحياة يذكره صخر الغي مثلما لحظناه عند أبي ذؤيب. وتكاد تكون القصة مطابقة للأولى في ورود الحمر الوحشية الماء، وفي متعتها بوروده، وحومها حوله، وحذرها الشديد من الصائد الذي يأتيها خلصة «خفي الشخص» كي لا تراه، ومفاجأته لها بالرمي، وخوف الحمر وارتياحها منه، ولوذها بالفرار، ولكن هيهات لها أن تفر وقد دنا أجلها:

فأما ينجوا من خوف أرض
فقد لقياً حتوفهما لزاماً

وقد أكد صخر الغي على شروق الشمس وما ينتظر تلك الحيوانات من مطاردة وخطر، ولذلك كان الليل يمثل لها الطمأنينة والهدوء والنهار يمثل لها الخطر الذي تحذره، فجاء على لسان أبي ذؤيب، وهو يتكلم على الثور:

شعف الكلاب الضاريات فؤاده
فإذا يرى الصبح المصدق يفزع

وإذا ما طلع النهار، وخرج ليجفف قطرات الندى عن جسمه، بادرت كلاب

الصيد:

فغدا يشرق متنه فبداله
أولى سوابقها قريباً توزع

وهكذا كانت حالة الحمر الوحشية عند صخر الغي :
قباتا يجيبان الليل حتى
أضاء الصبحُ مبتلجاً وقاما
وتكررت المأساة معها عند شروق الشمس :
وقد لقيتا مع الإشراق خيلاً
تسوفُ الوحش تحسبها خياما

وتأتي النتيجة التي يسعى إليها صخر الغي - مثلما سعى لها أبو ذؤيب من قبل -
وهي الموت المحقق لهذين الحمارين الوحشين، بعد أن دخلت الرماح في صدريهما
فمزقتهما:

فشامتُ في صدورهما رماحاً
من البزني أشربتُ الساماً

لقد كان الشاعر تلميذاً لأبي ذؤيب في هذه القصيدة التي قلده فيها موضوعياً
وفنياً: قال:

أرقتُ فببتُ لم أذق المناماً
وليلي لا أحس له انصراماً
لعمرك والمنايا غالبات
وما تغني التميمياتُ الحاماً
لقد أجرى لمصرعه تليدُ
وساقتُهُ المنية من أداماً
إلي جثث بجنب الجوراس
به ما حل ثم به أقاماً
أرى الأيام لا تبقي كريباً
ولا العصم الأوابد والنعاماً

لها معن وتصدرُ في لهوب
بها ذبت أوائلها هيأما
أتيح لها أقيدرُ ذو حشيف
إذا سامت على الملقات ساما
خفي الشخصي مقتدرُ عليها
يسن على ثائلها السأما
فيبدرها شرائعها فيرمي
مقاتلها فيسقيها الزؤاما
ولا علجانَ ينتابان روضاً
نضيراً نبتةُ عما تؤاما
كلا العلجين أصعرُ صيعري
تخالُ نسيلَ متنيه الثغاما
فباتا يأملان مياه بدر
وخافا رامياً عنه فحاما
فجاءا واردين فآنسأا
تخالُ سواد لمتيه برامما
فراغا ناجيين فقام يرمي
فآبت نبله قصاداً حطامما
كأنهما إذا علوا وجيناً
ومقطعُ حرة بعثا رجامما
يثيران الجنادلَ كإبيات
إذا جارا معاً وإذا استقامما
فباتا يجيبان الليلَ حتى
أضاء الصبحُ مبتلجاً وقامما

فإما ينجوا من خوف أرض
فقد لقبيا حتوفهما لزاما
وقد لقبيا مع الإشراق خيلاً
تسوف الوحش تحسبها خياما
بكل مقلص ذكر عنود
يبذ يد العشنتق واللجاما
فشامت في صدورهما رماحاً
من البزني أشربت السناما (١).

ونبقى مع الشعراء الهذليين، في رثائهم لأبنائهم، ويظالنا هذه المرة صخر الغي الذي يفقد ابنه تليداً، ويألم لفقده ويطول بكأؤه عليه. وإذا ما سلاه، وحالت الأيام بينه وبين وفاة ابنه، سرعان ما يتجدد بأية وسيلة لها صلة بالبكاء. ويبدو أنه أريد لصخر الغي أن لا يتوقف عن البكاء. وأنى له ذلك وحام الأيك يقف على غصنه يبكي فراخه، أو أليفه. وهل كانت تنقطع صلة العربي في جاهليته بحمام الأيك، حتى تتاح لصخر الغي الفرصة كي ينسى؟

(١) جدث: قبر. والجو: موضع. والعصم: السعول. والواابد: النعام المستوحشة. والفراسن: الأكارع. والحدام: البياض. والعصمة: بياض في إحدى يديها، وقد يكون في اليدين جميعاً. ومعن: مياه تجري. واللهبوب: واحدها لهب، وهو كالطريق في الجبل. وذبت أوائلها: أي جفت بها من العطش. وهيام: عطاش. والاقيدر: القصير العظام. والحشيف: الثوب الخلق. وسامت: مضت. والملاقات: صفحات من الجبل لينة. وسام: مثلها. والثميلة: البقية من العلف أو الطعام بقي في البطن. ويسن: يصب. والشرايع: الموضع الذي تشرب منه. والموت الزوأم: المعجل. وعلجان: حماران غليظان. والعم: الطوال. وتوأم: بنت اثنين اثنين. وأصعر: فيه اعتراض من البغي والنشاط. ونسيل: ما نسل من وبره وسقط. والثغام: نبت ابيض يشبه بالشيب. وبرام: قراد. وقصدا: كسرا. والوجين: الموضع الغليظ المرتفع. وبعثا رجاما: أي يدقان الأرض. والحرة: الحجارة السود. والجنادل: الحجارة. وكايات: متفخات عظام. وميتلجا: مبيضا. وقاما: كفا عن العدو لما ذهب سواد الليل. وتسوف: تصيد، وأصل السوف: الشم. ومقلص: مشرف طويل. وعنود: يعترض في شق. والعشنتق: الطويل، أي هو اطول من يد العشنتق. ويذ: يغلب. وشامت: ادخلت. والبزني والازني واحد: يعني اصحاب الخيل.

وحمام الأيك كان رمزاً للشعراء العرب لذكر الألف، والحبيب، والوطن والفقيد، لما يطلقه من صوت مثير يلتقي وحالة الغريب الوحيد المتلهف على رؤية حبيبه. لذلك رأينا ذكره يكثر على ألسنة الشاعر المحروم من وطنه، البعيد عنه. والعاشق الوطمان الذي عناه المحبوب وغلبه الفراق، والمرأة الغريبة التي تزوجت في قوم غير قومها وتحن إليهم. والأب والأم وقد فارقتها ابن مؤقتاً أو فراقاً لا لقاء بعده ممثلاً بالموت.

وصخر الغي واحد من هؤلاء الذين أثار حمام الأيك أشجانهم، وحرك النار الكامنة في صدورهم فاشتعلت وحرقت قلوبهم. وإذا به يعود للبكاء على ابنه تليد عند سماعه لحمامة «ترجع منطلقاً عجباً» ذكره بالنائحة التي تنوح على فقيدها، فما كان من شاعرنا إلا أن يتفاعل معها فتبكي هي على «سباق حر» ولدها، وهو يبكي على ولده تليد، انظره يقول(١):

وذكرني بكاي على تليد
حمامة مرجاوبت الحماما
ترجع منطلقاً عجباً وأوفت
كنائحة أتت نوحاً قياما
تنادي ساق حر وظلت أدعو
تليداً لا تبينُ به الكلاما
لعلك هالك إما غلامٌ
تبوأ من شمنصيرٍ مقاماً(٢)

(١) ديوان الهذليين: ٢: ٦٦.

(٢) مر: موضع. وساق حر: ذكر القباري، وقيل صوته. وشمنصير: جبل.

وتستمر حالة شاعرنا مع الحمام، ولكن بأسلوب حوارى مؤلم، إذ يلتقي الشاعر مع الحمامة وجها لوجه، وكل منهما يسأل عن فقيده، هي تسأل عن ابنها وهو يسأل عن ابنه. ويجيء الجواب المفجع المؤلم لكل منهما، بأن الفقيدين ذهبا بلا رجعة.

ونلاحظ في الأبيات ما يشي بشدة المعاناة عند الطرفين مما يدفعهما للبكاء والعويل، فالحمامة لا تنام الليل وهي تنوح على فقيدها، وما أشد النواح في الليل والكل يرقد ولا يوجد من يخفف عليه البكاء ويدعوه للكف عما هو فيه. وصخر الغي لا يختلف عنها، فهو لا ينام ولا يهدأ له بال يسهر الليل ولا يغمض له جفن، وينوح هو أيضا، فيلتقي مع تلك النائحة، وجها لوجه، وأدرك كل منهما ما ألم بالآخر، ولذلك رأيناها حينما سأل أحدهما الآخر، أجابا جواب العارف اليائس الميئس، وهل من حياة لمن مات وغدا «مع الأوائل من ثمود»؟ قال (١):

وما أن صوتُ نائحةٍ بليلى
بسبلى لا تنام مع الهجود
تجهنا غاديين فساءلتني
بواحدة وأسال عن تليدي
فقلت لها: فأما ساقُ حر
فبان مع الأوائل من ثمود
وقالت: لن ترى أبداً تليداً
بعينك آخر العمر الجديد
كلانارد صاحبه بيأس
وتأنيب ووجدان بعيد (٢)

(١) المصدر السابق ٢: ٦٧.
(٢) سبلى: موضع. الهجود: النوم. العمر الجديد: يعني ان كل يوم جاء فهو جديد.

وهذلي ثالث يرثي ابنه، وهو المنتخل، ويأتينا بأسلوب ثالث - أيضا - في المعالجة. إذ إن عاطفته تغلبه ويكون الدمع وانهاره من عينيه هو المظهر الغالب على قصيدته. والتشبيهات الشائعة في وصف انهار الماء، وانهار الدمع استغلها الشاعر في تعبيره عن حالته التي كان يعانيها. وربما نجد للمنتخل عذرا في هذا، لأنه يتحدث عن ابنه وقد قتل قتلاً، ولذلك تكون المأساة مضاعفة، ولا يستطيع الانسان أن يتمالك نفسه أمام ذلك المصاب الجلل. فابنه مكتمل البناء والخصال، ولديه من القوة والشجاعة ما يجعله يفتخر به بين أقرانه من الآباء. ويجعله ينام قرير العين، هادئ البال، مطمئن النفس لأن لديه الفارس المغوار الذي يليه دعوة الداعي في ظلام الليل، وعندما تحدق الأخطار. وابنه يقتل غدرا فيفقد بمقتله كل هذه الخصال، ويترك في نفسه غصة يبقى يتجرعها طوال حياته هي غصة الثأر والانتقام له من قتلته. يقف الأب أمام هذه الملمة التي ألمت به فلا يتمالك نفسه وإذا بدموعه تنهمر انهاراً كما تنهمر المياه من القربة المقطعة، وإنما تبلل كل شيء من كثرتها. ولا يكتفي الشاعر بتشبيه دمه بهذا، بل نراه لا يتوقف طوال الدهر عن البكاء، وكأن عينه أصابها لبن شجر الصاب الذي إذا أصاب شيئاً أحرقه، وإذا أصاب العين سلفت وانهملت. أرأيت الحالة التي كان عليها الشاعر، والصور التي صور نفسه بها. إنها المعاناة التي تجسد حرقه الأب على ابنه عند مقتله قال(١):

ما بالُ عينك تبكي دمعها خضلُ
كما وهى سربُ الأخرات منبزلُ
لا تفتأ الدهرَ في سح بأربعة
كأن إنسانها بالصاب مكتحلُ

(١) نفسه ٢: ٣٣ والاعاني (الثقافة) ٢٣: ٢٦٠.

تبكي على رجل لم تبل جدته
خلى عليك فجاجاً بينها سبلُ
فقد عجبتُ وما بالدهر من عجب
أنى قتلت وأنت الحازمُ البطلُ
ويلمه رجلاً تأبى به غبناً
إذا تجرد لا خالٌ ولا بخلُ
السالكُ الشجرة اليقظان كالثها
مشيَ الهلوك عليها الخيعلُ الفضلُ
والتاركُ القرنَ مصفراً أنامله
كأنه من عقار قهوة ثمّلُ
مجدلاً يتلقى جلدهُ دمهُ
كما يقطر جذعُ النخلة القطلُ
ليس بعمل كبير لا شباب به
لكن أثيلةُ صافي الوجهه مقتبلُ
يجيبُ بعد الكرى لبيك داعيه
مجدامةُ هواءه قلقلُ وقلُ
حلوٌ ومرٌّ كعطف القدح مرتبه
بكل إني حذاه الليلُ ينتعلُ
فاذهب فأى فتى في الناس أحرزه
من حتفه ظلم دعج ولا جبلُ

أقولُ لما أتاني الناعيان به
لا يبعد الرمحُ ذو النصلين والرجلُ
رمحٌ لنا كان لم يفلل ننوؤُ به
توفى به الحرب والعزاء والجلل (١)

إنه التصوير الفني الذي يسير سيرته في رثاء الأبناء الذي يتخذ إحدى وسائله التكرار في اللفظ، وقد لمسناه عند الشاعر في مفتتح أبياته.

«ما بال عينك تبكي» ويعود مرة أخرى في البيت الثالث «تبكي على رجل» ليعبر عن معاناته ولهفته على ابنه.

ووسيلة أخرى يستعين بها الشاعر في أبياته لتصوير حالته، تلك هي صفة الشباب واكتمال الشخصية المتجسدة في الرشاقة والقوة، فهو «ليس بعل» وهو «صافي الوجه مقتبل» وهو «حلو ومر». إنها الصفات التي أضافت لصفات الفروسية الشائعة، صفات الجمال للفارس، وما كان الأمر على هذا النحو إلا من باب إعجاب الأب بابنه، ومما يشجعه على قول ذلك فيه، ولا نظنه مقبولاً في أن يقول رجل عن آخر مثل هذا إلا أن يكون أباً.

وثالثة كشف عنها الأب هي أنه عليه أن يعتمد على نفسه بعد أن فقد الذي كان يعتمد عليه، فصرح تصريحاً مباشراً بهذا، وإذا به يقول «لا يبعد الرمح» بعد أن فل الرمح الذي كان يدفع به الأعداء عنه، إنه الاعتراف الذي فيه حسرة ومرارة،

(١) سرب: سائل. الاخرات: جمع خرت، وهو الثقب. الغبن: بالتحريك، ضعف الرأي. لا خال ولا بخل: أي لا مخيلة فيه ولا خيلاء ولا بخل. الثغرة: مكان الخوف. الخيعل: درع يخاط أحد شقيه ويترك الآخر. الفضل: ليس في درعها ازار. قطل: مقطوع. العل: الصغير الجسم. المجذامة: الذي يقطع هواه. القلقل: الخفيف. الوقل: الجيد التصعيد في الجبل.

ولكن لا مفر للأب من الإقرار به .

ويستعير ساعدة بن جؤية الهذلي من أبي ذؤيب لازمته التي طال ما ردها وهو يرثي بنيه «والدهر لا يبقي على حدثانه» . يستعيرها في الموقف ذاته، وهو يرثي ابنا له فقال(١):

أرى الدهر لا يبقي على حدثانه
أبودُ بأطرافِ المناعةِ جلعُدُ(٢)

وساعدة بن جؤية لا يختلف كثيراً عن غيره من شعراء هذيل في رثائه لابنه، إذ يمتزج الحزن والألم عنده بالضعف بعد أن فقد ركنا مهما بالنسبة له ممثلاً في ابنه . فقد رأيناه يفارقه النوم، ولا يكاد يقر له قرار، وهو يألم لحاله، ويقارن بينه وبين سواه فيجد نفسه في قلق وسهر بينما نام الآخرون في هناء ونعيم . وبقلقه هذا تشده الذكرى إلى الوراء فيسير على عادته في البكاء والذكرى الأليمة :

ألا بات من حولي نياماً ورقداً
وعاودني حزني الذي يتجددُ
وعاودني ديني فبت كأنما
خلال ضلوع الصدر ممدد(٣)

وانظره في تكراره «لعاودني» في البيتين، وما يقترن بكل منهما . ففي الأولى يعاوده الحزن، وفي الثانية تعاوده حالته الأولى!!، ويريد بها ما كان قد أصابه حين ثكل بابنه وفجع به، وهي حالة تشبه توتر الأعصاب وانشدادها، كانشداد الوتر على القوس، وأين هذا؟ خلال ضلوع الصدر! عبر ابن جؤية عن هذا في وصف

(١) نفسه ١ : ٢٣٨

(٢) أبود: داتم، قديم . وجلعُد: صلب شديد .

(٣) ديني: عادي . وشرع: الوتر ما دام مشدودا على القوس .

حالته، أو قل: وصف الحالة الجديدة التي تبلورت عن الحالة الأولى. فهو يئننا بضعفه الذي آل إليه، ويشرك معه زوجه التي لا شك في أنها تعاني ما لاقاه الأب وأكثر. فهو بفقده أصبح يحمل حملاً لا طاقة له به، وأصبح بين قومه وعشيرته، مهيض الجناح لا يؤبه به، وكلما شعر بهذه المأساة التي يمر بها عادت به ذكراه إلى ذلك الذي كان يرفع شأنه ويعلي مكانته، فكان النور الذي يضيء طريقه، والدرع الذي يدافع عنه. تذكر هذا فطال ليله وازداد حزنه، قال:

ألا هل أتى أمَّ الصبيين أنني
على نأها حملٌ على الحي مقعدٌ
ومضطجعي ناب من الحي نازحٌ
وبيتٌ بناه الشوكُ يضحى ويصرُدُ
تذكرتُ ميتاً بالغرابة ثاوياً
فما كان ليلى بعدما طال ينفدُ
شهابي الذي أعشو الطريقَ بضوئه
ودرعي وليلُ الناس بعدك أسودُ
فلو نباتك الأرضُ أو لو سمعته
لأيقنت أني كدتُ بعدك أكمدُ (١).

فانظره في ذكره «لأم الصبيين» وما يتركه هذا التعبير من أثر في النفس، وكيف أن الشاعر أصبح لا يجد من يخاطبه ويشعر بحاله إلا زوجه بعد أن أصبح مقعداً في حيه. ويصعد الشاعر الموقف وهو يصور الحال الذي آل إليه، وهو أنه لم تصبه

(١) يقال: نبا منزله به: لم يوافقته. ونا جنبه عن الفراش لم يطمئن عليه. ويضحى ويصرُد: أي لا يقني حراً ولا برداً. والغرابة: موضع. وأعشو الطريق بضوئه: أراها به. والكمد: الحزن الشديد، ومرض القلب.

ملمة واحدة، بل تتابعت الملمات بعدها، وإذا به يصبح نايبا نازحا عن حيه، وملمة
 ثالثة هي عدم قدرته على النوم وكأنه يعيش في بيت من الشوك بحيث لا يستطيع أن
 يضطجع على جنب. فله ابن جؤية في هذه الحال، وقد كنا نألم لألم أبي ذؤيب حين
 كان جنبه «لا يلائم مضجعا» وكان السبب في ذلك أنه كان يشعر بأنه يتقلب على
 الحصى! فما بالنا الآن وابن جؤية يشعر بأنه يعيش في بيت من الشوك؟!!

ولم يكن شعراء هذيل بدعا في الجاهلية برثائم ذاك، لأن عاطفة الأبوة لا تقتصر
 على قوم دون آخرين أو على قبيلة دون أخرى، إذ رأينا هذه العاطفة الأبوية تتسرب
 إلى نفوس أشد الرجال صلابة وأكثرها حمية وأنفة وإذا بها تضعف وتلين أمام
 الحادث الجلل الذي يواجهها ممثلا في فقدانها للولد. نلاحظ نموذجا من هذا الصنف
 من الرجال يتمثل في الفند بن شيان أحد فرسان بكر، الذي أبلى بلاء حسنا في
 حرب البسوس: نلاحظ هذه الشخصية ذات البأس والشدة، رقيقة وادعة ضعيفة
 مستسلمة أمام القدر الذي أصابها بثكل ابنها مالك فعبرت عن هذا المصاب
 شعراً(١):

أمالكُ إن الدهرَ غالكَ صرفهُ
 وأبقى علي الدهر وهو ضنينُ
 لقد كورت شمسُ النهارِ وبدرُها
 مضى، وأبي، إني إذا لحَـزِينُ
 لقد بكت العينان بعدك مالكُ
 لها عند تزهير الحصون رنينُ

فهو يرى الدنيا مظلمة في وجهه في الليل والنهار بذهاب القمرين، فكأنه كان
 النور الذي يضيء الدنيا له، وحالة شاعر كهذه لا بد أن يغلفها الحزن وسيطر عليها

(١) رياض الادب في مرثي شواعر العرب ١٧.

البكاء ليل نهار .

ومر بنا كيف كانت حالة أبي ذؤيب الهذلي بفقد أبنائه إذ كانت حالة متميزة أطال فيها الشاعر البكاء وعبر عما في نفسه بصور وألوان مختلفة نمت على ما في حالته من معاناة . ولدينا حالة قريبة مما مر به أبو ذؤيب من حيث فقد العدد الكبير من الأبناء . بل ربما تكون هذه الحالة أشد فجيعة لأنها تصور موقف أب تجاه سبعة أبناء ماتوا دفعة واحدة ، ومتى؟ بعد أن اكتملت شخصياتهم وأصبحوا رجالا مغاوير يحمون الحمى ويدفعون الضيم . وكيف؟ بوقوع صخرة عليهم فأتت على أخبارهم جميعا .

إنها المأساة التي تترك في النفس حسرة ما بعدها حسرة ، إذ لو قتلوا في معركة فيها دفاع عن الشرف والعرض لكان في ذلك ما يخفف من وقع الفاجعة ، أما أن تكون هذه نهايتهم ، فهي ما آلت الأب وجعلته يصرخ ويظيل الصراخ ، وهو ينادي أبناء السبعة بصفات عديدة في بيت واحد ، فهم سبعة أطواد ، وسبعة أبحر ، وسبعة آساد ، وسبعة أنجم .

نعم معه الحق في هذا ، لأنه تجرع كؤوس المنايا بفقدهم ، الأمر الذي جعل أيامه حزناً وأسىً في الوقت الذي غيره ينعم بالهناء والترف ، وتصل معاناة الشاعر إلى قمته في بيته الرابع حين يقول :

بلغن نسيبي وارتشفن بلالتي
وصلينني جمر الأسى المتضرم

فالنسيب بقية الروح في الجسد ، والبلالة ما ييل به الحلق من ماء أو لبن ، والجمر وقد صلي به لا يحتاج إلى تعليق . أصيب الرجل بهذا وهو يشعر بالضعف والوهن إذ كان في الثمانين من عمره ، فهو في أمس الحاجة إلى العضد التي تدفع عنه الضيم ،

وقديما رأى العرب في أبنائهم تلك العضد التي يدركون ما يشاؤون بها، وذليلهم من كان ليس ذا عضد. انظرهم يقولون(١):

من كان ذا عضد يدركُ ظلامتهُ
إن الذليل الذي ليست له عضدُ
تنبو ينداهُ إذا ما قل ناصرهُ
ويأنفُ الضيمَ إن أثرى عددُ
ولذلك رأينا صاحبنا يقول:

رزئتُ بأعضادي الذين بأيدهم
أُنــــوء وأحتمي حوزتي واحتمي

وحينها كانت حالة كذلك فإما أن تذوب نفسه كمدا، وإما أن يشوب دمعه دما وأنى له المقاومة والبقاء على حالة كهذه، فما لبثت أن وافته المنية من شدة هول صدمته التي مني بها، فله شاعرنا الضبي الذي ردد هذه الأبيات(٢):

أسبعةُ أطواد أسبعةُ أبحر
أسبعةُ آساد أسبعةُ أنجم
رزتْهم في ساعة جرعتهمُ
كؤوس المنايا تحت صخر مرضم
فمن تكُ أيامُ الزمان حميدةُ
لديه فإني قد تعرقن أعظمي
بلغن نسيبي وارتشفن بلالتي
وصلينني جمراً الأسى المتضرم

(١) العقد الفريد ٢: ٤٤١.

(٢) الأمالي ١: ٦١.

أحينَ رماني بالثمانين منكبٌ
من الدهر منحٍ في فؤادي بأسهم
رزئت بأعضادي الذين بأيدهم
أنوء وأحمي حوزتي وأحتمي
فإن لم تذبْ نفسي عليهم صباية
فسوف أشوب دمعا بعد بالدم (١)

وتمتزج فتنة الأب بابنه وشغفه به وهو يترنم بصفاته الحميدة التي طالما أعجب العرب بها: جمال في المظهر، وأنفة في الطبع، ونصرة للمظلوم، وردع للمعتدي، ومقارعة للقرين، وحماية للجار، ورفض للذل، وتطلع للمجد... أقول: تمتزج هذه الفتنة بفجاعة الموت التي يعبر عنها الأب، وكأن هذه الصفات وتردادها تخفف على الأب معاناته، أستغفر الله بل إنها تزيد النار اشتعالا في الصدر، وهكذا كان زهير بن جذيمة الذي رأى أنه سيكثر من البكاء والعيول على ابنه شأس لأنه فقد بفقدته تلك المثل الرفيعة والقيم السائدة في عصره. انظره وهو يبكي ويكثر من مدحه والثناء عليه، وكأنه يريد أن يأتينا بعذر يشفع له كثرة بكائه وعيوله على ابنه شأس قال (٢):

بكيتُ لشأس حين خبرتُ أنه
بمء غني آخر الليل يسلبُ
لقد كان مأتاه الرداءَ لحتفه
وما كان لولا غرة الليل يغلبُ

(١) صخر مرضم: وضع بعضه على بعض. تعرقت اعظمه: أكل ما عليها من اللحم. ومنكب الدهر: مصيبته. ومنح من النحو: القصد. والأيد: القوة. أنوء أنهض بجهد ومشقة.
(٢) الاغانى (الثقافة) ١١ : ١٧٣.

قتيل غني ليس شكلاً كشكله
كذلك لعمري الحين للمرء يجلبُ
سأبكي عليه إن بكيتُ بعبرة
وحق لشأس عبرة حين تسكبُ
وحزن عليه ما حييتُ وعولة
على مثل ضوء البدر أو هو أعجبُ
إذا سيمَ ضيماً كان للضيم منكرأ
وكان لسدى الهيجاء يخشى ويرهبُ
وإن صوت الداعي إلى الخير مرة
أجابَ لما يدعوكه حين يكربُ
ففرج عنه ثم كان وليه
فقلبي عليه لو بدا القلب ملهبُ(١)

فتقته بابنه كبيرة من حيث الفروسية، وإن فارساً لا يستطيع أن يواجهه وجهاً لوجه، وإن حدث هذا، فمصيره الموت. وهذه الثقة في الابن جعلت الأب يقول بأنه لا يغلب في ساح القتال والشرف. وأما أن يؤخذ على حين غرة، وفي ظلام الليل، فإن ذلك لا يمثل بطولة لقاتله لأنه «وما كان لولا غرة الليل يغلب». وابنه جميل المظهر قوي الشكيمة «ليس شكلاً كشكله» و «مثل ضوء البدر أو هو أعجب!»

وابنه:

إذا سيمَ ضيماً كان للضيم منكرأ
وكان لسدى الهيجاء يخشى ويرهبُ

(١) ماء غني: موضع. والرداه: أكمة خشنة، وموضع. الحين: الهلاك. وسيم ضيماً: أي إذا أراد أحد أن يصيبه بمكروه أو ظلم وجور.

وإن صوت الداعي إلى الخير مرة
أجابَ لما يدعوله حين يكربُ
إن ابنا كهذا حق لقلب والده حين يقتل أن يكون ملهبا مصدعا.

ويطالعنا أبو حكيم المري وهو يشفق على ابنه في أن يصيبه الذل أن توفي وتركه
وحيداً. ونلاحظ أبا حكيم بدعا في هذا، إذ ما عهدنا العرب في قديمهم يشفقون
على الأولاد، إنما كان حالهم هذا مع بناتهم، خشية أن يرين الفقر بعدهم، والذل،
لأنهم كانوا يرون في البنت ضعفا، وعرضا، وشرفا يمكن أن يمس ويهتك إذا ما
غاب الأب عن البنت. عهدنا هذا عند العرب مع البنات، ولذلك قال
شاعرهم (١):

لقد زاد الحياة إلي حبا
بناتي إنهن من الضعاف
أحاذرُ أن يرينَ الفقرَ بعدي
وأن يرينَ رنقاُ بعد صاف
وأن يعرینَ إن كسي الجوارِي
فتنبو العينُ عن كرم عجاف (٢)

أما ما فعله أبو حكيم المري مع ابنه حكيم حين قال (٣):
يقرُّ بعيني وهو يقصرُ مدتي
مرورُ الليالي أن يشبَّ حكيمُ
مخافةً أن يغتالني الموتُ دونهُ
وينشى بيوتَ الحي وهو يتيمُ

(١) الكامل في اللغة والادب ٣: ١٦٧.

(٢) الرنق: الكدر. وعجاف: مفردا عجفاء، ذهاب السمنة.

(٣) الحماسة ٢٨٢.

فهو أمر جديد ويكاد يكون فريداً - على ما نعلم . حتى إذا مات حكيم رأينا الأب يألم لفقده، ويعبر عما كان يمني نفسه في أن يشب ويكبر ويحمل نعش أبيه عند وفاته، فيقول:

وكنْتُ أرجي من حكيم قيامه
علي إذا ما النعشُ زال ارتدانينا
فقدم قبلي نعشه فارتديته
فيا ويح نفسي من رداء علانينا

وقد أكثر الآباء من ذكر هذا الذي جاء به أبوحكيم، حين صوروا ما كانوا يتمنونونه في أن يقوم أبناؤهم بدفنهم عند موتهم.

وهذا واحد منهم يرى في موت ابنه أن ابنه أصبح أباً، وهوبات ابنا حين قال (١):

ألا يا سمية شبي الوقودا
لعل الليالي تؤدي يزيدا
فننسي فداؤك من غائب
إذا ما المسارح كانت جليدا
كفاني الذي كنت أسعى له
فصار أباً لي وصرت الوليدا (٢)

وهذا آخر يؤنب نفسه ويلومها لأنها لم تخلص الود لابنه حين بات تحت الثرى، ويرى أنه لو كان أخلص الود لما بات إلا تحت الثرى معه، ولذلك رأيناه يعجب

(١) الكامل ٣: ١٦٨.

(٢) المسارح: الطرق التي يسرحون فيها. والجليد: يقع من السماء.

من نفسه كيف لم تفعل هذا حين أنشد(١):

ومن عَجِب أن بت مستشعر الثرى
وبت بما زودتني متممعا
ولو أنني أنصفتك الود لم أبتُ
خلافك حتى ننطوي في الثرى معا

وقد يكون فقد الابن لا يقل وقعا على نفس أبيه من وفاته، لأن الأب في هذه الحالة لا يستطيع الهدوء على حالة، أو القطع برأي، أحي ابنه أم ميت مما يدعو إلى أن يطيل البحث والسؤال عنه، وينطقه القلق والحزن بالشعر الذي يمكننا أن ندخله في باب الرثاء لما فيه من معاناة ووحدة في المعالجة الموضوعية.

وحارثة، أبوزيد بن حارثة يمثل هذا الصنف من الرجال الذين رثوا أبناءهم وهم أحياء أو قل رثى ابنه، وهو لا يعلم أحي هو أم ميت فقال(٢):

بكيتُ على زيد ولم أدر ما فعلُ
أحي فيرجى أم أتى دونه الأجلُ
فوالله ما أدري وإني لسائلُ
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبلُ
ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة
فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجبلُ
تذكرينه الشمسُ عند طلوعها
وتعرضُ ذكره إذا غربها أفل

(١) المصدر السابق.

(٢) السيرة النبوية ١: ٢٦٤.

وإن هبت الأرواحُ هيجنُ ذكرهُ
 فيا طول ما حزني عليه وما وجلُ
 سأعملُ نص العيس في الأرض جامداً
 ولا أسأُ التطفوفَ أو تسأُ الإبلُ
 حياتي أو تأتي علي منيتي
 فكل امرئٍ فانٍ وإن غرهُ الأجلُ (١)

فعامل الحيرة يسيطر على الأب، ولذلك أكثر من التساؤلات التي عبرت عن
 حيرته تلك «أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل»؟ ويعيد «وإني لسائل: أغالك بعدي
 السهل أم غالك الجبل»؟ وثالثة «هل لك الدهر أوبة»؟ وكان سبب هذه التساؤلات
 أنه لا يدري «ولم أدر ما فعل» و «فوالله ما أدري». حتى أن شاعرنا ردد معنى
 عرفناه للخنساء الشاعرة المشهورة، التي كانت تعاصر حارثة، ولا أدري إن كانت
 هي أخذت المعنى منه، أم هو أخذه منها، أم أن الحزن أنطق الاثنين فعبر كل منهما
 عن المعنى ذاته، فكان هذا من باب توارد الخواطر عند الشعراء؟ فالشاعر يقول:

تذكرينه الشمسُ عند طلوعها
 وتعرض ذكراه إذا غربها أفلُ

والخنساء قالت في رثاء أخيها صخر (٢):

تذكرينه الشمسُ عند طلوعها
 وأذكره لكل غروبِ شمسٍ

فالتطابق تام في المعنى عندهما. . ويكاد يكون كذلك في اللفظ أيضاً.

(١) بجل: عظيم مع جمال. وأفل: غاب. وما وجل: ما كبر، أي ما زال يافعاً.
 (٢) ديوان الخنساء ٤٥.

وهبوب الرياح كان مصدرأ لاثارة الأشجان والعواطف عند الشعراء، ولذلك
لحظنا شاعرنا يزداد حزنه على ابنه كلما هبت الرياح، ومما يزيد في ألمه أنه ما زال فتى
يافعاً لم تتقدم به السن، الأمر الذي يدعوه إلى أن يبقى طائفاً في الديار باحثاً عن
ولده المفقود، مقررأ أن يبقى على حالته تلك إلى أن يجد ابنه، أو يفنى دون ذلك:

سأعملُ نص العيس في الأرض جاهدأ
ولا أسأُ التطواف أو تسأُ الإبلُ
حياتي أو تأتي علي منيتي
فكل امرئ فان وإن غره الأجلُ

وكان البكاء هو الوسيلة الوحيدة التي تسعف الشعراء وهم يندبون أبناءهم،
وكانت العين هي التي تلبى نداءهم، فأكثرُوا من مخاطبة العين لتسح الدمع، وما
أكثر ما لبت العيون طلبهم بالدموع الغزيرة، انظر غيلان بن سلمة وهو يرثي ابنه
عامراً يقول(١):

عيني تجودُ بدمعها الهتان
سحاً وتبكي فارسَ الفرسانِ
يا عامُ من للخيل لما أحجمتُ
عن شدة مرهوبة وطعان
لو أستطيع جعلتُ مني عامراً
بين الضلوع وكل حي فان
يا عينُ بكّي ذا الحزامة عامراً
للخيل يوم تواقف وطعان

(١) الاغاني (الثقافة ١٣ : ٢٠٣ .

وله بتثليثات شدة معلم
منه وطعنة جابر بن سنان
فكأنه صافي الحديدة مخدّم
مما يجيرُ الفرسُ للباذان(١)

فانظره في قوله: «عيني تجود بدمعها الهتان سحا» فقد قالوا:

هتنت السماء: انصبت أو هو فوق المظل أو الضعيف الدائم أو مطر ساعة ثم يفتّر ثم يعود. والسح: الصب والسيلان. فكأن شاعرنا لم يكتف بانصباب الدمع من عينه كالطر الذي كان في كل حالاته إما قوياً في انهاره دفعة واحدة، أو دائماً إذا كان ضعيفاً خفيفاً. أقول: لم يكتف الشاعر بهذا، بل أكد «بالسح».

وانصباب الدمع ذاك، كان بكاء على عامر، الذي يبكيه ويستبكي عليه، «يا عين بكّي» ثم تأتي التمنيات المستحيلة في أن الأب لو استطاع أن يجعل ابنه بين ضلوعه حفاظاً عليه لما بخل بذلك، ولكن هيهات «وكل حي فان».

وظاهرة المدح التي تحدث عنها النقاد القدامى، في باب الرثاء، حيث يبدأ الرائي في تعداد مناقب الميت، نراها تتردد في الأبيات.

فعامر «فارس الفرسان» وهو للخيل إذا أحجمت «عن شدة مرهوبة وطعان» وهو الفارس الذي جعل لنفسه علامة الشجعان في الحرب إذا اشتد وطيسها، وطعنته طعنة الفارس المقدام الذي ضرب المثل بشجاعته فشبّه بجابر بن سنان.

وبمجيء الاسلام هذبت النفوس، وانتفت الروح الجاهلية بقيمها ودوافعها

(١) المعلم: الفارس جعل لنفسه علامة الشجعان في الحرب. والمخدّم: القاطع. ويجير: يرد ويرجع. والباذان: اسم كان يطلق على الذين دخلوا حديثاً في الاسلام.

المادية وحل الإيمان محل الكفر، وبات الإنسان يلجأ لخالفه في الملهمات، وأصبحت مرضاة الله هي المبتغاة، يضحي الفرد بهاله ونفسه في سبيله جل شأنه. ولذلك صار الإنسان يخفف من غلوائه وانفعالاته فيما يتعلق بأمور الحياة الدنيا على وجه الخصوص. إلا أنه في الوقت ذاته إذا أتيح له التحكم في الأمور العقلية، فمن العسير عليه التحكم في عواطفه، ولذلك يمكنني أن أقول إنه هذبه، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالابن وراثته، كما هو الحال مع عقيل بن علفة المري الذي خرج ابنه فاتحاً في سبيل الله، وكان نصيبه الشهادة.

نلاحظ الأب تسيطر عليه الروح الإسلامية، لغة وأسلوباً ومعالجة. فهو يشكل بابنه ويألم لهذا، ولكنه يتجلد ويحافظ على توازنه ويعبر عن هذا الموقف تعبير الحكيم العاقل المثكول في آن!! فالأمر الذي خبر به، على ما فيه من اعتزاز وفخر باستشهاد ابنه في سبيل الله، إلا أنه «ثقيل» على الأب. ولا بد من التجلد الذي أبداه، وظهر للآخرين، الذين رأوا ظاهره عادياً لا تظهر عليه علامات الحزن والألم، وما دروا بما في النفس، وما يفعله ذلك «الأمر الثقيل» في داخل الأب وأعماقه! رأوا حالته تلك فسألوه: ألا يبكي على ولده الذي فقده؟ ولا يجيهم الأب مباشرة، وإنما يرد عليهم رداً فيه دليل على حالته ومعاناته.

فالمنايا عند زهير بن أبي سلمى في الجاهلية، كانت «خبط عشواء من تصب تمته، ومن تخطىء يعمر فيهم»، أي أن الخبط العشوائي هو الذي رآه الشاعر حين قال:
رأيت المنايا خبطَ عشواءٍ من تصبُ
تمتهُ ومن تخطىءُ يعمر فيهم

أما ابن علفة فقد رآها تختار اختياراً الذين تود لهم الموت، ولذلك كان موقفها من ابنه الذي اختطفته، وكأنها لها ثأر عند أبيه. وما دامت قد حققت ما تريد، فإن الموت أصبح مباحاً، بعد ذلك العزيز الذي توفاه الله. أرأت بهاذا أجاب الأب

أولئك الذين سألوهم البكاء على ابنه؟ إنه جواب المفجوع الذي ما كان يود الكلام والإفصاح عما يعاني لولا أنه اضطر لذلك اضطرارا. قال (١):

لعمري لقد جاءت قوافلُ خبرتِ
بأمر من الدنيا علي ثقبيلِ
وقالوا ألا تبكي لمصرع هالكِ
أصاب سبيل الله خير سبيلِ
كان المنايا تبتغي في خيارنا
هاترة أو تهتدي بدليلِ
لتأت المنايا حيث شاءت فإنها
محللة بعد الفتى ابن عقيلِ
فتى كان مولاه يحمل بنجوة
فحل الموالى بعده بمسيل (٢)

وابتلي العتبي بفقد بنيه، فأكثر من بكائه عليهم، وعبر عن حالته بيت شعر كاد يكون مثلا أعلى لرتاء الأبناء، ولتصوير حالة الأب، إذ تجسد فيه أن الحزن الحقيقي لا يكون إلا في حالة فقد الولد:

ما عالج الحزنَ والحِرةَ في الـ
أحشاءٍ من لم يمت له ولد

وإذا ما تتابع فقد أبنائه، يبقى حزنه متجدداً، ولذلك أظهر الأب ضجره وسأمه من نصيبه في الحياة فعبر عن ذلك بقوله:

(١) الكامل ٤ : ٣٠ .

(٢) ترة: ظلم ومكروه. والنجوة: ما ارتفع من الأرض. والمسيل: عكسها.

كَلَّ لِسَانِي مِنْ وَصْفِ مَا أَجْدُ
وَذَقْتُ تُكْلًا مَا ذَاقَهُ أَحَدٌ

فانظره في «كل» دليلاً على التعب والسأم والضجر، ثم انظره في «ذقت ثكلاً ما ذاقه أحد» وما فيه من تصميم في الحكم، إلا أننا نجد ما يغفر للشاعر تعميمه ذلك، لما في نفسه من حرقة أوطنت في أحشائه «ذاب عليها الفؤاد والكبد»:

وأوطنتُ حرقَةً حشاي فقد
ذاب عليها الفؤادُ والكبدُ

ويعيد الشاعر الكرة على أحشائه والحرارة المضطربة داخلها، ويؤكد، أنه لا يشعر بكل ذلك إلا الذي فقد الابن وتكل به، فما بالناس إذا كان صاحبنا قد فقد اثنين «ليس بينهما إلا ليال ليست لها عدد»؟ لا شك أن الحزن سيكون مضاعفاً، ولذلك رأيناه يقول (١):

كَلَّ لِسَانِي مِنْ وَصْفِ مَا أَجْدُ
وَذَقْتُ تُكْلًا مَا ذَاقَهُ أَحَدٌ
وأوطنتُ حرقَةً حشاي فقد
ذاب عليها الفؤادُ والكبدُ
ما عالج الحزن والحرارة في لـ
أحشاء من لم يمت له ولدُ
فجعتُ باثنين ليس بينهما
إلا ليالٍ ليست لها عددُ

(١) المصدر السابق ٤: ٢٥.

فكل حزن يبلى على قدم الدَّ
هـرٍ وحزني يجيده الأبدُ

ونراه يردد في موضع آخر في رثاء واحد من أبنائه (٢):

وقاسمني دهري بني مشاطراً
فلما تقضى شطره عاد في شطري
ألا ليت أمي لم تلدني وليتني
سبقتك إذ كنا إلى غاية نجري
وكنتُ به أكنى فأصبحتُ كلما
كنتُ به فاضت دموعي على نحري
وقد كنتُ ذا ناب وظفر على العدا
فأصبحتُ لا يخشون نابي ولا ظفري .

أرأيت ما الذي يجعل حزن شاعرنا متجدداً، إنه اسم ابنه الذي كني به، وكلما خاطبه شخص بذلك الاسم عادت به الذكرى لولده ففاضت دموعه على نحره. ولم يقف الأمر بالعتي عند هذه الأبيات بل نرى المعنى في بيتين آخرين له فيقول (٢):

بأبي وأمي من عبأتُ حنوطه
بيدي وودعني بهاء شبابه
كيف السلُّ وكيف صبري بعده
وإذا دعيتُ فإنما أكنى به

فالحنوط: ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وعنبر

(١) الحماسة ٣٩١.

(٢) الكامل ٤: ١٩.

وكافور ولا تراهم يفعلون ذلك إلا مع الأعزاء عليهم. ومن شدة حب الشاعر لابنه، عبأ حنوطه بيديه، وقد مات في عنفوان شبابه، الأمر الذي جعل سلوه له مستحيلاً.

وكان الحجاج من الذين ابتلوا بفقد أولادهم، ولم يكن يقول الشعر ولكنه أعجب بشعر الرثاء في الأبناء، وأراد أن يقال في أبنائه من الشعر ما قاله الشعراء في رثائهم لأولادهم، ولكن هيهات له ذلك وقد ظن أن شعر الرثاء كشعر المدح يطلب من الشاعر أن يقول قصيدة في مدحه أو مدح أي رجل آخر، أو قل يطلب منه أن يقول قصيدة في أي غرض من الأغراض، وإذا به يلبي الطلب فيرتجل الشعر ارتجالاً.

أقول: ظن الحجاج الأمر على هذه الصورة في رثاء أبنائه، ونسي أن شعر الرثاء يقولونه وقلوبهم محترقة - على حد تعبير الأعرابي للأصمعي - فما بالنا إذا كان الرثاء في الأبناء، الذين ماتهم صدع في الفؤاد لا يجبر - كما قالوا - أيضاً.

وقف الحجاج هذا الموقف غير مرة مع الشعراء، وكان جوابهم له هو أنهم رأوا في أبنائهم ما لم يروه في أبنائه. قالوا: لما هلك أبان بن الحجاج وقف على قبره وتمثل «بقول زياد الأعجم:

الآن لما كنت أكمل من مشى
وافتر نابك عن شباه القارح
وتكاملت فيك المروءة كلها
وأعنت ذلك بالفعال الصالح

فلما انصرف إلى منزله، قال: أرسلوا خلف بن قيس الأنصاري، فأتاه:

فقال: أنشدني مرثيتك في ابنك الحسن، فأنشده:

قد أكذب الله من نعمى حسنا
ليس لتكذيب موته ثمنُ
أجولُ في الدار لا أراك وفي الدار
رأسٌ جوارهم غبنُ
بدلتهم منك لبيت أنهم
أضحوا وبيني وبينهم عدنُ

فقال له الحجاج: ارث ابني أبان. فقال له: إني لا أجد به ما كنت أجد بحسن.
قال وما كنت تجد به؟ قال: ما رأيته قط فشبت من رؤيته، ولا غاب عني قط،
الا اشتقت إليه، فقال الحجاج: كذلك كنت أجد بأبان(١).

وفي خبر آخر أن الحجاج قال: «صدق والله زهير بن أبي سلمى حيث يقول:
وما العفو إلا لامرئ ذي حفيظة
متى يعف عن ذنب امرئ سوء يلحجُ

فقال له يزيد بن الحكم: أصلح الله الأمير، إني قد رثيتُ بيت إنه لشبيه بهذا.
قال وما هو؟ قال: قلت:

ويأمن ذو حلم العشرة جهله
عليه، ويخشى جهله جهلاؤها

قال: فما منعك أن تقول هذا لمحمد ابني تربيته به؟ فقال:

إن ابني والله كان أحب إلي من ابنك!! وكان ليزيد بن الحكم ابن يقال له
عنبس، فمات فجزع عليه جزعاً شديداً وقال يربيته:

(١) ذيل الامالي ٧.

جزى الله عني عنبساً كل صالح
 إذا كانت الأولادُ شيئاً جزاؤها
 هو ابني وأمي أجره لي وغـرتي
 على نفسه رب إليه ولاؤها
 جهولٌ إذا جهلُ العشيـرة يبتغى
 حليمٌ ويرضى حلمه حلاؤها (١)

ولم يتوقف الأمر عند من لا يقولون الشعر، فيستشهدون به إذا ألت بهم ملمة
 ممثلة في رثاء الأبناء على وجه الخصوص، بل إننا رأينا هذا أيضاً عند الشعراء
 أنفسهم، أو قل: عند فحول الشعراء. إذ رأينا بشار بن برد يردد أبياتاً لجرير عند
 دفنه لأحد أبنائه. ورأيناه يعجب بقصيدة لجرير رثى بها ابنه سواده. «قال ابن
 سلام: . . . فقلت لبشار وأي شيء لجرير في المراثي إلا التي رثى بها امرأته.
 فأنشدني لجرير يرثي ابنه سواده ومات بالشام:

قالوا نصيبك من أجر فقلتُ لهم
 كيف العزاءُ وقد فارقتُ أشبالي
 فارقتني حين كف الدهرُ عن بصري
 وحين صرتُ كعظم الرمة البالي
 أمسى سوادهُ يجلو مقلتي لحم
 باز يصرصرُ فوق المربأ العالي
 قد كنتُ أعرفه مني إذا غلقتُ
 رهنُ الجياد ومد الغاية الغالي

(١) الاغاني (الثقافة) ١٢ : ٢٩٢.

إن الشوي بذى الزيتون فاحتسبي
قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي
إلا تكن لك بالديرين معولة
فرب باكية بالرممل معوال
كأم بو عجول عند معهده
حنت إلى جلد منه وأوصال
حتى إذا عرفت أن لا حياة به
ردت همهم حرى الجوف مثكال
زادت على وجدها وجرماً وإن رجعت
في الصدر منها خطوبٌ ذات بلبال (١)

ولله جرير هو يشبه أم الصبي في بكائها بالناقة التي مات حوارها فيحشى جلده
تبنا ويقرب منها لتشمه وتحن عليه وتدر اللبن :

حتى إذا عرفت أن لا حياة به
ردت همهم حرى الجوف مثكال
زادت على وجدها وجرماً وإن رجعت
في الصدر منها خطوبٌ ذات بلبال

وانظره في قوله «ردت همهم حرى الجوف»! وما تشي به هذه العبارة من معاناة
داخلية لا يطفو على السطح منها إلا القليل. ولا أجد «الهمهم» هذه وهي الكلام
غير المفهوم يردده الإنسان من «الهم»، أقول: لا أجدها تقتصر على الناقة، وإنما

(١) طبقات الشعراء ٤٥٧. والمصدر السابق ٨ : ٩. والديوان (دار المعارف) ٥٨٤. وقوله يجلو مقلتي
لحم: شبه مقلتيه بمقلتي البازي. ويصرصر: يصوت. واللبال: شدة الهم.

تنعكس على الإنسان، وما أكثر ما همهم الإنسان المأ وحسرة، وكأنه عجز عن الكلام ولم يقو لسانه على النطق به، ومن ماذا؟ إنه مرة أخرى من شدة الهموم التي تكمن في الصدر، مما ضاعف حزنها وألمها، وهكذا كان حال زوجته أم ابنه التي بكت إنها «بالرمل» وأكثرت عليه البكاء والعيول، في الوقت الذي مات ابنها غريباً بالديرين ولم يجد من يبكي عليه هناك.

ويعود جرير لرتاء ابنه، ولكن بأسلوب آخر هذه المرة، بأسلوب المدح لابنه - وجرير من كبار شعراء المدح - فهو يرثيه هو ومرار بن عفاف بن حليس وقد قتلا سوياً، ولذلك رأيناها يصفهما بالفروسية والنجدة إذا حمي وطيس المعركة انظره يقول (١):

لله در عصابة نجديّة
تركوا سوادة خلفهم ومرارا
انعمي أخاك وفارساً ذا نجدة
حمساً إذا امتلأ الفجأ غباراً (٢)

ويفجع الفرزدق بفقد ولدين له، ويرثيها بقصيدة عبر فيها عن حزنه عليهما، إلا أنه لم يرد أن يتحدث الحديث المباشر، وإنما رأيناها يستعين بزوجه نوار - أم ابنه - ويتخذها وسيلة فنية لتصوير ذلك الحزن، لأنها تشاركه فيه من جهة، ولأنه يخفف عما في نفسه من جهة ثانية، دون أن يظهر ضعفه، وتجلده.

ويبدأ الفرزدق قصيدته بدعائه على الشامتين الذين شمتوا به بعد أن «شلت يده» حين فقد ابنه، ويبدو أن الشامتين كانوا كثيرين في القديم حين يشكل الأب أبناءه، لأننا رأينا ذلك يتكرر عند الشعراء في رثاء أبنائهم.

(١) ديوان جرير: ٤٣٠.

(٢) حمساً: شديداً.

وقد شبه الشاعر نفسه بالأسد وأبناءه بالأشبال حوله، وبينما هم كذلك فإنه مهاب الجانب قويه، لا يستطيع أحد الاقتراب منه، وهو يشي بهذا التشبيه إلى الوضع الذي آل إليه بعد أن ذهبت هذه الأشبال من حوله، حين جاءت منيتهم، التي لا يوجد مهرب منها ولا دافع لها إذا ما أقبلت. وحديث المنية هو هو، واستسلام الشعراء لها هو هو أيضاً عند أبي ذؤيب، وعند ابن علفة، وعند الفرزدق، ولذلك رأيناه يقول:

أرى كل حي لا يزال طبيعةً

عليه المنايا، من فروج المخارم

وما أحدٌ كان المنايا وراءه

ولو عاش أياماً طوالاً، بسالم

أدرك الشعراء هذه الحقيقة، وأثبتوها في أشعارهم، وأقروا بها، ولكن هل يكفي هذا؟ وهل إذا أقر الانسان بأمر يعني ذلك انه يستسلم له؟ في الأمور العقلية يحدث هذا، أما فيما يتعلق بالعاطفة فلا أظنه يحدث. وقد جاء الفرزدق ليؤكد هذا الظن. فهو على الرغم من قوله، بأن الانسان مهما طال أجله، فإن المنايا تلاحقه، ولا يمكن أن يكون له منها فكاك، يعود فيقول: إنه لو رأى زوجته شقت صدرها حزناً على ولديها ما لامها على ذلك! وأحال الفرزدق يعبر بهذا عن نفسه، لا عن زوجته، لأنه ينسى ويعود بالضمير على نفسه، بعد أن كان يتكلم ويسند الضمير إلى زوجته، انظره وهو يقول:

يذكرني ابني السما كان موهنا

إذا ارتفعما بين النجوم التوائم.

لم نقل من قبل، إن الشاعر استعان بزوجه وسيلة فنية لتصوير حالته، والتعبير عنها؟ ثم يتحدث الشاعر عن الأعلام الذين سادوا في أوقامهم وكان لهم شأن كبير

ثم جاءت مناياهم وانتهى أجلهم . قال (١):

بفي الشامتين الصخرُ إن كان مسني
رزية شبلي غُدر في الضراغمِ
هزبرٌ، إذا أشباله سرنَ حوله،
تشظت سباعُ الأرض من ذي النحائم
أرى كل حي لا يزال طليعة
عليه المنايا، من فروج المخارم
وما أحد كان المنايا وراءه
ولو عاش أياماً حيازيم نفسها
فلستُ ولو شقتُ حيازيم نفسها
من الوجد بعد ابني نوار، بلائم
على حزن بعد اللذين تتابعا
لها، والمنايا قاطعات التائم
يذكرني ابني السما كان موهنا،
إذا ارتفعا بين النجوم التوائم
فقد رزىء الأقبامُ قبلي بابنهم
وإخوانهم فاقني حياء الكرائم (٢)

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن رثاء الآباء لأبنائهم، هذا الخبر الذي نقله صاحب الأغاني عن أرتأة بن زفر بن سهية، إذ كان له ابن يقال له عمرو، فمات،

(١) ديوان الفرزدق (صادر) ٢: ٢٠٦.

(٢) مخدر: من اخدر الاسد في عرينه: لزمه. وتشظت: تفرقت. والنحائم: الواحدة نحيمة، من نعم الفهد: صوت صوتاً شديداً. وفروج الطرق: متنها. والمخارم: الطرق في الجبال. والحيازيم: الواحد حيزوم: وسط الصدر. والسماكان: كوكبان نيران يقال لاحدهما السماك الرامح لان امامه كوكبا صغيرا يقال له راية السماك ورمحه، وللآخر السماك الاعزل لأنه ليس امامه شيء.

فجزع عليه حتى كاد عقله يذهب، فأقام على قبره، وضرب بيته عنده لا يفارقه
 حولاً. ثم إن الحبي أراد الرحيل بعد حوله لنجعة بغوها، فغدا على قبره، فجلس
 عنده، حتى إذا حان الرواح ناداه: رح يا ابن سلمى معنا! فقال له قومه: ننشدك
 الله في نفسك وعقلك ودينك، كيف يروح معك من مات منذ حول (فقال:
 أنظروني الليلة إلى الغد. فأقاموا عليه. فلما أصبح ناداه: أغد يا ابن سلمى معنا،
 فلم يزل الناس يذكرونه الله ويناشدونه، فانتضى سيفه، وعقر راحلته على قبره،
 وقال: والله لا أتبعكم، فامضوا كيف شئتم أو أقيموا. فرقوا له ورحموه، فأقاموا
 عامهم ذلك، وصبروا على منزلهم. وقال أرطاة يومئذ في ابنه عمرو يرثيه:

وقفتُ على قبر ابن سلمى فلم يكن
 وقوفي عليه غير مبكى ومجزع
 هل أنت ابن سلمى إن نظرتك رائحٌ
 مع الركب أو غاد غداة غد معي
 أنسى ابن سلمى وهو لم يأت دونه
 من الدهر إلا بعض صيف ومربيع
 وقفتُ على جثمان عمرو فلم أجد
 سوى جدث عاف ببيداء بلقع
 ضربتُ عمودي بانه سموا معاً
 فخرت ولم أتبع قلوصي بدعدع
 ولو أنها حادت عن الرسم نلتها
 ببادرة من سيف أشهب موقع
 تركتك إن تحتي تكوسي وان تنؤ
 على الجهد تخذها توال فتصرع

فدع ذكرَ من قد حالت الأرضُ دونهُ
وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع
وكائن ترى من ذات بث وعولة
بكت شجوها بعد الحنين المرجع
فكانت كذات البولما تعطفت
على قطع من شلوه المتمزع
متى لا تجدهُ تنصرف لطياتها
ممن الأرض أو تعمدُ لإلف فترجع
عن الدهر فاصفح إنه غير معتب
وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع (١)

وحالة ابن سهية هي حالة جرير، ووسيلته التعبيرية هي هي، البو أمام أمه،
ويأسها منه، وألمها عليه. وعندما لا تجد حياة فيه تردد همهم اليائس المستسلم
للقدر.

وبعد، فهذه سيرة الآباء مع أبنائهم في رثائهم لهم: ألم وحزن، وتصوير لهما
بمختلف الطرق الفنية والوسائل التعبيرية. والتقاء في النهاية عند النقطة المركزية
التي كانوا يدورون حولها ويودون الوصول إليها، وهي الكشف عما في دخائل
نفوسهم من حرارة، ورغبة في التخفيف من وهجها واشتعالها بالأشعار الرقيقة
الجميلة المؤثرة في آن. فكيف كان حال الأمهات وموقفهن تجاه أبنائهن؟ هذا ما
سنحاول معالجته والإجابة عنه في الفصل التالي.

(١) الاغاني: ١٢: ٢٩٢. ودعدع: كلمة يدعى بها للعائر في معنى قم وانتعش واسلم. والاشهب:
النصل يرد بردا خفيفا فلم يذهب سواده كله. والموقع: هنا، الوقيع من السيوف، ما شحذ
بالحجر. وتكوس: تمشي على ثلاث قوائم. وطياتها: جمع طية، وهي هنا، الوجه الذي يراد
ويقصد.

الفصل الثاني

عند الأمهات

قلنا في مفتح حديثنا إن المرأة في شعرها اشتهرت بغرضين هما شعر الحنين إلى الوطن والأهل، وشعر الرثاء. وربما يكون لها العذر في اختيارها لهذين الغرضين لأنها الصق بعاطفتها، وأكثر تعبيراً عن حالاتها التي تنسجم وشخصيتها. وفي شعر الرثاء ربما يكون رثاء الابن من أبرز الجوانب معالجة منها.

وقد وصلتنا أشعار في رثاء الأبناء للمرأة العربية غير قليلة إذا ما قيست بالشعر الذي وصلنا للنساء. وعبرت المرأة عن لوعتها التي تنسجم وأنوثتها وضعفها، والتي صورت فداحة المواقف التي تعرضت لها بفقدانها للولد الذي كثيرا ما منت النفس في أن يكون سندا وحصنا لها في النوائب والشدائد.

وتكاد تكون الصفات التي أضيفت عند الأب هي التي أضيفت عليه عند الأم، اللهم بعض الجوانب التي نمت على شفافية المرأة ورهافة حسها وضعفها الأنثوي، يضاف إلى ذلك الأمور المتعلقة بالرجل والتي كانت تعد عيبا فيه، ولا يمكنه الإفصاح عنها، أو التصريح بها، فجاءت المرأة لتكشف عنها، كقبوله الدية في ابنه ممن قتلوه.

وهذا يقودنا إلى القول، أن لغة الشعر واحدة في الغرض الواحد، فلشعر المدح لغته ولشعر الرثاء لغته، ولشعر الهجاء لغته. التي يستخدمها الشعراء أو قل يكثير الشعراء من استخدامها. الأمر الذي لا يجعلنا نعجب إن كانت صفات المرثي

واحدة عند الرجل والمرأة. أليس كل منهما يعبر عن حسرة ومعاناة تجاه فقيد عزيز عليه، إن لم يكن أعز الناس عنده؟

ومن أقدم ما وصلنا من شعر النساء في رثاء ابنائهن ما قالته تماضر بنت الشريد السلمية التي قتل ابنها مالك بن زهير، حذيفة، غيلة في حرب داحس والغبراء، وإذا بها تعبر عن حزنها، وتضفي على ابنها صفات تجعله متميزاً بين فتيان قبيلته، بل جعلته «زين الناس طراً»! وترى أن من حق قبيلته أن تحزن عليه، لأنها فقدت بفقده المدافع عن القبيلة والحمى. وتجد أن قرى الأضياف انتهى، وتلفتت إلى قبيلته فتؤنبها على تركها لفتاها وهو الذي كان يخوض غمار المعارك ويفرق الأعداء ويشتت شملهم. ثم تعود لنفسها وما أصابها من الفجيعة التي جعلت بكاءها متصلاً ودمعها منهماً كأنهار المطر من السماء. ولا تنسى أن تدعو على حذيفة القاتل الذي فجعها بفتاها الكريم: انظرها تقول(١):

كأن العين خالطها قذاها
لحزن واقع أفنى كراهها
على ولد وزين الناس طراً
إذا ما ما النار لم ترمن صلاها
لئن حزنت بنو عبس عليه
لقد فقدت بنو عبس فتاهها
فمن للضيف إن هبت شمالاً
مزعزعة يجاوبها صداها
أسيدكم وحاميكم تركتم
على الغبراء منهدم رحاهها

(١) رياض الادب في مراتي شواعر العرب ٤٣.

ترى الشم الجحاجح من بغيض
 تبدد جمعهم في مصطلامها
 فيتركها إذا اضطرت بطعن
 وينهبها إذا اشتجرت قنابها
 حذيفة لا سقيت من الفوادى
 ولا روتك هاطلة نداها
 كما أفجعتني بفتى كريم
 إذا وزنت بنو عبس علامها
 فدمعي بعده أبداً هطولاً
 ولا يرقأ من عيني بكاهها

فخصائص المرأة انعكست على الآيات، إحساسها بالجمال، وتمكنه من نفسها،
 لذلك رأيناها تسقطه على ابنها «زين الناس طراً». وضعفها واستنجاها بالآخرين،
 وتوجيه الخطاب الذي فيه تأنيب وتقريع لهم «أسيدكم وحاميكم تركتم»؟.
 وشعورها بأن ابنها هو المؤهل لحماية الحي والدفاع عنه، وهو الكريم مقصد
 الأضياف، «فمن للضيف» بعده. «وإن «وزنت بنو عبس علامها». وإذا وجدت الا
 حيلة لها في أخذ ثأره، فإن دمعها «أبداً هطول ولا يرقأ من» عينها البكاء والعويل.

وأم قبيس الضبية لا تخرج عما رآته بنت الشريد في ابنها. إذ ترى أنه إذا اشتجر
 القوم وكانت الحاجة ماسة لمقارعة الأعداء، «هز ابن سعد قناة صلبة العود». أما
 الآن وقد واراها الثرى، فلا أحد يستطيع الوقوف في وجوه الأعداء. وإذا كانت بنت
 الشريد تساءلت بعد فقدها لابنها «من للضيف» فإن أم قبيس تساءلت «من للضمير
 القود». وإذا كان ابن بنت الشريد فتى عبس، فإن ابن أم قبيس لسانه «غير ملتبس»
 وقلبه «غير مزوود».

قالت (١):

ما للخصوم إذا جد الضجاجُ بهم
بعد ابن سعد، ومن للضمير القود
ومشهد قد كفيتُ الغائبين به
في مجمع من نواصي الناس مشهود
فرجته بلسان غير ملتبس
عند الحفاظ وقلب غير مزوود
إذا قناة امرئ أزرى بها خورُ
هز ابن سعد قناة صلبة العود

وشعور المرأة الأنثوي المنسجم مع طبيعتها وخصائصها من ضعف وعاطفة مشبوبة يتجسد في العجز عن مواجهة الأحداث فتسلمها إلى البكاء الذي تجد فيه مخرجاً لكل ما تعانیه. كل هذا نلحظه يسير سيرته عند النساء الشواعر في رثائهن لأبنائهن. ولذلك نرى الحسن هو هو عند السليلة أم السليك وهي تربيته ففتاها جمع عناصر الحسن كلها في شخصه:

أي شيء ————— سن
للفتى لم يكُ لك

وابنها فارس مقدم يهابه الأعداء ويخشون مقابلته مما دعاهم إلى أن يقتلوه غيلة وغدراً:

أمريضٌ لم تعمذُ
أم عمدوُ ختلكُ

(١) المصدر السابق ١١٣.

وهذا يذكرنا بموقف زهير بن جزيمة مع ابنه الذي رأى فيه هذا ورأى أنه لولا
غرة الليل لما غلب:

لقد كان مأتاهُ الرداهُ لحتفه
وما كان لولا غرة الليل يغلبُ

وضعف المرأة واستسلامها يوصلها إلى البكاء وتمني الموت بدلا منه لو كان في
استطاعتها ذلك:

ليست نفسي قدمت
للمنايا بدلك

وهنا نلاحظ عند المرأة أمراً مغايراً لما عهدناه عند الرجل. فالأم هنا تتمنى أن لو
ماتت بدلا من ابنها، أما الرجل فكثيرا ما كان يتحدث عما كان يمني النفس بأن
يموت قبل ابنه كي يحمله ابنه:

وكنتُ أرجي من حكيم قيامه
علي إذا ما النعشُ زال ارتدانيا

ووصف الابن بالشجاعة والبطولة سار على وتيرته:

طال ما قد نلت في
غيرك أملك

انظرها تقول في رثاء ولدها وهي تصور كل الذي ذكرناه (١):

طاف يبغي نجوة
من هلاكٍ فهلك

(١) الحجاسة ٣٣١.

لبيت شعري ضلّة
 أي شيء قتلتك
 أمريض لم تمد
 أم عدو خنتك
 أم تولى بك منا
 غال في الدهر السلك
 والنايبا رصداً
 للفتى حيث سلك
 أي شيء حسن
 لفتى لم يك لك
 كل شيء قاتل
 حين تلقى أجلك
 طال ما قد نلت في
 غير كمد أم لك
 إن أمراً فادحاً
 عن جوابي شغلك
 ساعزى النفس إذ
 لم تجب من سالك
 لبيت نفسي قدمت
 للمنايا بدلك

وفي قصيدة من رثاء النساء تتكشف لنا ظاهرة قلما عالجها الشعراء لأنها تمثل طعنا
 فيهم، ومساسا بكرامتهم، وهي الحديث عن قبول الدية، وهذا ما كان يعير به

الرجل إذا قبل دية في ابنه . وأمرأ آخر كشفت عنه القصيدة، هو خروج الأم عن طورها، وفقدانها لعوامل الاتزان والتروي أمام هذا الموقف المحزن، مما جعلها تخاطب زوجها بما لم يكن من طباع المرأة العربية، إذ شأنها أن تحترمه وتقدره، وتخطبه بحذر وأدب ووقار، هذا ما عهدناه بالمرأة العربية . أما أن تقول لزوجها «لا سلمت من الأعادي ولا وقيت شر النائبات» . و «قلبه قلب البنات» . و«بعل جبان حياته أردا الحياة» . أن تقول المرأة مثل هذا لزوجها، فما مرده إلا الحزن الشديد على الابن الفقيد، الذي جعل الأب يتغاضى عن هذا الطعن الذي وجه إليه، بل لقد كان في هذا ما استثار همة الأب، وجعله يهب لأخذ ثأر ابنه . لقد تجسد هذا في قصيدة أم قرفة في رثاء ابنها، وتجسد فيه أيضاً، منهج النساء في رثاء أبنائهن، من وصفهم بالفروسية والرجولة والأنفة . وصورت إحساسها وما تلاقيه من معاناة، حتى أنها تستعين «بظير الأراك»، و «الحمام» وتتساءل، أينوح مثلها - وهو الذي أثر عنه البكاء والنواح - ولله أبو كبير الهذلي، وهو يصور بكاءه ونواحه:

ألا يا حمام الأيك فرحك حاضرٌ
وغصنك مبادٌ ففيم تنوحُ

أقول: تساءلت أم قرفة عن هذا، وهو الذي اشتهر به، وكأنها تريد أن تشعرنا، بأن بكاءها فاق ما تخصص في البكاء، وضرب به المثل فيه . قالت(١):

حذيفةُ لا سلمت من الأعادي
ولا وقيت شر النائبات
أبقتلُ قرفة قيس وترضى
بأنعام ونوق سارحات

(١) رياض الادب ٣٩ .

أما تخشى إذا قال الأعادي
حذيفة قلبه قلب البنات
فخذ ثأراً بأطراف المعوالي
وبالبيض الحداد المرهفات
وإلا خلني أبكي نهاري
وليلي بالدموع الجاريات
لعمل منيتي تأتي سريعاً
وترميني سهام الحاديات
فذاك أحب من بعمل جبان
تكون حياته أردا الحياة
فيا أسفي على المقتول ظلماً
وقد أمسى قتيلاً في الفلاة
ترى طير الأراك ينوح مثلي
على أعلى الفصون المائلات
وهل تجمد الحمام مثل وجدي
إذا رميت بسهم من شتات
فيا يوم الرهان فجمت فيه
بشخص جاز عن حد الصفات
وزال على الصبح عليك ليلاً
ووجه البدر مسود الجهات
ويا خيل السباق سقيت سماً
مذابا في المياه الجاريات
لأن سباقك ألقى علينا
هموماً لا تزال إلى المسامات

وفقد الابن يؤجج النار في الصدر، ولا يجد الإنسان ما يخفف به، ويحمد
 اللهب إلا البكاء. وبعد موقعة بدر «ناحت قریش على قتلها، ثم قالت: لا
 تفعلوا فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في فداء أسراكم، حتى
 تأسوا منهم، لا يتأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء، وكان الأسود بن المطلب
 قد أصيب له ثلاثة من ولده، زمعة وعقيل والحارث بنو الأسود، وكان يجب أن
 يبكي على بنيه، فبينما هو كذلك، إذ سمع نائحة في الليل، فقال لغلامه - وقد ذهب
 بصره - انظر هل أحل النحيب، وهل بكت قریش على قتلها؟ لعل أبكي على أبي
 حكيمة، يعني زمعة - فإن جوفي قد احترق. فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هي
 امرأة تبكي على بعير لها أضلته!! فذلك حين يقول الأسود:

أتبكي أن أضل لها بعيرٌ
 ويمنعها البكاء من الهجود
 ولا تبكي على بكر ولكن
 على بدر تقاصرت الجودود
 على بدر سراة بني هصيص
 ومخزوم ورهط أبي الوليد
 وبكي إن بكيت على عقيل
 وبكي حارثاً أسد الأسود
 وبكيتهم ولا تسمي جميعاً
 فما لأبي حكيمة من نديد
 ألا قد ساد بعدهم رجالٌ
 ولولا يوم بدر لم يسودوا(١)

(١) الاغاني ٤: ٢١١. ويريد بيكر: الفتى من الابل. ويبرد: اي يوم بدر.

يا من أحس بنبيّ اللذين هما
سمعي وطرفي فطري في اليوم مختطف
يا من أحس بنبي اللذين هما
مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
نبئتُ بسراً وما صدقتُ ما زعموا
من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحى على ودجي طفلي مرهفة
مشحوذة، وعظيمُ الإفك يقترف
من دل والهة حرى مفجعة
على صبيين غابا إذ مضى السلف (١)

إن التكرار في صدر البيت ثلاث مرات، يذكرنا بالتكرار الذي لحظناه في قصيدة أبي ذؤيب الهذلي، والذي أرجعناه إلى شدة المعاناة، ودعوة المتلقي للشعور بفداحة الموقف، وللمشاركة في الإحساس والشعور.

وإن الصفات التي أضفتها الأم على الطفلين هي مما يتلاءم مع طبيعة الموقف. فهما طفلان صغيران كالدريتين. وهما في محبتها بالنسبة للأم كالسمع الذي تسمع به، والبصر الذي ترى به، والعقل الذي تعقل به! وهي في حالة من الوله والتهيه والفجعية مما أصابها بفقدتهما، وإذا بها تسأل عنمن يدها عليهما وهي تعلم علم اليقين، أنها غابا إلى الأبد. ولكن هيهات تقنع بهذا!!

وامرأة أخرى كان فقدها لابنها آمنها كل فقد سواه، إذ هانت عليها الدنيا وما

(١) الكامل ٤: ٢٦، والمصدر السابق ١٦: ١٩٩. وتشظى العود: تطاير شظايا. ومزدهف: من ازدهف: انحرف، واستخف. والودج: عرق في العنق.

فيها بعده. انظرها وهي تقول: «إن فقدي أياه آممني كل فقد سواه، وإن مصيبي
به هونت علي المصائب بعده.

ثم أنشأت تقول:

كنت السواد لقلتي
فعمي عليك الناظرُ
من شاء بمعدك فليمتُ
فعليك كنتُ أحاذرُ
ليت المنازلَ والديا
رَ حَفائرُ ومقابر
إني وغـــــــــــــــــــــــــي لا يحا
للة حيثُ صرتُ لصائر(١)

وقال الأصمعي: «حجت أعرابية ومعها ابن لها، فأصيبت به، فلما دفن قامت
على قبره، وهي موجهة فقالت: والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً، وفقدتك سريعاً،
وكانه لم يكن بين الحالين مدة التذ بعيشك فيها، فأصبحت بعد النضارة والغضارة
ورونق الحياة والتنسم في طيب روائحها، تحت أطباق الثرى جسداً هامداً، ورفاتا
سحيقاً، وصعيداً جروزاً. أي بني، لقد سحبت عليك الدنيا أذيال الفنا، وأسكنتك
دار البلى، ورمتني بعدك نكبة الردى. أي بني، لقد أسفر لي وجه الدنيا عن صباح
داج ظلامه.

ثم قالت: أي رب ومنك العدل، ومن خلقك الجور، وهبته لي قررة عين فلم
تمتعني به كثيراً، بل سلبتني وشيكا. ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر،

(١) نهاية الارب ٥: ١٦٣.

فصدقت وعدك ورضيت قضاءك، فرحم الله من ترحم على من استودعته الردم،
ووسدته الثرى. اللهم ارحم غربته، وأنس وحشته، واستر عورته يوم تكشف
الهنات والسوءات.

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت: إني قد تزودت لسفري،
فليت شعري ما زادك لبعد طريقك، ويوم معادك.

اللهم إني أسألك له الرضا برضائي عنه. ثم قالت: استودعتك من استودعنيك
في أحشائي جنيئا. واثكل الوالدات ما أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن،
وأطول ليلهن، وأقصر نهارهن، وأقل أنسهن، وأشد وحشتهن، وأبعدهن من
السرور، وأقربهن من الأحزان، فلم تزل تقول هذا ونحوه حتى أبكت كل من
سمعها. وحمدت الله عز وجل، واسترجعت وصلت ركعات عند قبره
وانطلقت (١)

وتطالعنا أم بقصيدة طويلة ترثي فيها ابنها، وهي من القصائد التي اتسمت
بالأسلوب القصصي إذ روت فيها الأم، قصة تعلقها بابنها، وشغفها به، وحبها
له، وآمالها التي علقتها عليه، وعلقها عليه أقاربه حيث شب واستوى عوده،
وأصبح يثب على الخيل وثبا، وتوفرت فيه خصال حميدة كانت بشير خير وبركة.
روت الأم هذا عن ابنها، وكأنها اتخذته وسيلة فنية وتمهيدا لما سيأتي من حادث
جلل، يجعل القارئ مشدوداً متفاعلاً مع الأحداث.

فقد كانت الخصال الحميدة التي تمتع بها نتيجة تربية حميدة، وحرص شديد من
قبل الأم على ابنها، إذ لقتته كل ذلك منذ نعومة أظفاره:

(١) زهر الاداب ٢: ٤٥٩. وصعيد جروز: أرض لا تنبت.

رَبِيْتَهُ دَهْرًا أَفْتَقَهُ
فِي السَّيْرِ أَغْذَوْهُ فِي السَّمْرِ
وَجَعَلْتُ مِنْ شَنْفِي أَنْقَلَهُ
فِي الْأَرْضِ بَيْنَ تَنْائِفِ غَيْرِ

ويكاد يكون ذلك الحرص الشديد سببا في وفاة ابنها وفقدها له. أو قل: لم يجدى الحرص الشديد إذا جاءت منية ابنها. فبينما هي كذلك إذ وجدت ابنها يصارع الموت فجأة، ويستنجد بها ولا تستطع نجدته، وهي التي كانت حاضرة له في كل الظروف والأحوال تلبي ما يطلبه:

فَدَعَا لِأَنْصَرِهِ وَكُنْتُ لَهُ
مَنْ قَبْلَ ذَلِكَ حَاضِرَ النَّصْرِ
فَعَجَزْتُ عَنْهُ وَهِيَ زَاهِقَةٌ
بَيْنَ الْوَرِيدِ وَمَدْفَعِ السَّحْرِ

ويبقى تمنى الأم الذي ذكرناه من قبل، وكانت تختلف فيه عن الأب، وهو تمنىها الموت بدلا من ابنها:

لَوْ قِيلَ تَفْدِيهِ بِذَلَّتْ لَهُ
مَالِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ وَفَرِ
أَوْ كُنْتُ مَقْتَدِرًا عَلَى عَمْرِي
أَثَرْتَهُ بِالشَّطْرِ مِنْ عَمْرِي

ولكن ما حيلتها، وقد جاء أجل ابنها، وهذه «سبيل الناس كلهم»، إذا ما جاء أجلهم.

هي قصيدة، وإن كانت مؤثرة من الناحية العاطفية، إلا أنها افتقرت إلى البناء

الفني المتين إذ غلبت عليها المباشرة والخلو من التصوير والخيال . قالت (١):

يا عمرو مالي عنك من صبر
يا عمرو يا أسفي على عمرو
لله يا عمرو، وأي فتى
كفنت يوم وضعت في القبر
أحشو التراب على مفارقه
وعلى غضارة وجهه النضر
حين استوى وعلا الشباب به
وبدا منير الوجه كالبدر
ورجا أقاربه منافعه
ورأوا شمائل سيد غمر
وأهمه همي فساوره
وغدا مع الغادين في السفر
تغدو به شقراء سامية
مرطى الجراء شديدة الأسر
ثبت الجنان به، ويقدمها
فلجُّ يقلبُ مقلتي صقر
ربيته دهرأ أفترقه
في السير أغذوه وفي العسر
حتى إذا التأميلُ أمكنني
فيه قبيل تلاحق الثغر

(١) المصدر السابق ٢: ٤٦٠ .

وجعلتُ من شغفي أنقله
في الأرض بين تنائف عُبر
أدعُ المزارع والحصونَ به
وأحله في المهمة القفر
ما زلت أصعده وأحدره
من قتر موماة إلى قتر
هرباً به والموت يُطلبه
حيث انتويتُ به ولا أدري
حتى دفعتُ به لمصرعه
سوق المعيز تساقُ للعتز
ما كان إلا أن هجعتُ له
ورمى فأغفى مطلع الفجر
ورمى الكرى رأسي ومال به
رمسٌ يساورُ منه كالسكر
إذ راعني صوتٌ هببتُ به
وذعرت منه أيما ذعر
وإذا منيته تساوره
قد كدحت في الوجه والنحر
وإذا له علقٌ وحرجةٌ
مما يجيش به من الصدر
والموت يُقبضه ويبسطه
كالثوب عند الطي والنشر

فدعنا لأنصره وكننتُ له
 من قبل ذلك حاضر النصر
 فمجزتُ عنه وهي زاهقة
 بين الوريد ومدفع السحر
 فمضى وأي فتى فجعتُ به
 جللت مصيبتته عن القدر
 لو قيل تفديده بذلتُ له
 مالي وما جمعتُ من وفر
 أو كنت مقتدرأ على عمري
 آثرته بالشطر من عمري
 قد كنتُ ذا فقر له، فعدا
 ورمى علي وقد رأى فقري
 لو شاء ربي كان متعني
 بابني وشهد بأزره أزي
 بنيتُ عليك بني، أحوج ما
 كنا إليك، صفائح الصخر
 لا يبعثك الله يا عمري
 أما مضيت فنحن بالأثر.
 هذي سبيلُ الناس كلهم
 لا بد سالكها على سفر
 أولا تراهم في ديارهم
 يتوقعون وهم على دعر

والموتُ يسوردهم مواردهم
قسراً، فقد ذلوا على القسر(١).

إنها من القصائد القليلة الطويلة التي وصلتنا من شعر النساء، تحدثت فيها الأم بألم وحرقة عن لحظة الوفاة، وكيف لم يكن بيدها حيلة لانقاذ ابنها الذي كانت حشرجات الموت تنتابه أمام ناظرها وتزهق روحه. وتنتقل إلى التأسّي والتمني الذي لا يتحقق، لو كان يفدى بالمال، أو بشرط من عمرها، ولكن هيهات، وقد فارق الحياة، عليه رحمة الله.

(١) المفارق: مواضع فرق الشعر من الرأس. غمر: جزيل العطاء. مرطى: سريعة. الأسر: القوة. فلج: حليف النصر. التناثف: جمع تنوفة، وهي الصحراء. الغبر: جمع غبراء وأراد الظلمة. الفتر، بالضم: الجانب. العتر: اسم نبات أو شجر صغير. وهو ههنا الذبيح.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية

رَفَعُ

عبد الرحمن بن عبد المجيد
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كانت دراستنا تتناول رثاء الأبناء من الناحيتين الموضوعية والفنية، وقد شمل تحليلنا للنصوص هاتين الناحيتين، وما أفرادنا للحديث في هذا الفصل عن الناحية الفنية إلا من باب التركيز والكشف وتجميع تلك القضايا الفنية التي انبثت في الدراسة، كي تتضح أكثر، وكي نظهر من خلالها المميزات التي تميز هذا الفن الشعري عن إطاره العام في الرثاء، وفي بقية الفنون الشعرية الأخرى.

١ - ولعل أول ما يلفت النظر في هذا الشعر، أنه اقتصر الحديث فيه على الولد ولم يتعرض للبنت في الرثاء، وكان هذا عند الأب والأم على حد سواء - فيما وقع بين أيدينا من نصوص على الأقل - والأمر ليس غريباً، إذ إن العرب في قديمهم فضلوا الولد على البنت، واحتفلوا بقدوم الولد، وضاقوا بقدوم البنت. وقد بين الله سبحانه وتعالى هذا في القرآن الكريم، بين كيف كانوا يحفلون بالولد ويسعدون به، وكيف كانوا يضيعون بالبنت. وانطلاقاً من هذا فقد كانوا يتمنون موت البنت لا حياتها، ولذلك رأينا شاعرهم يقول عن ابنته:

إني وإن سبقت إلى المهـر
ألف، وعبدان، وذود عشر
أحب أصهـاري إلى القـبر (١)

(١) طبقات الشعر ٥٦١.

وإن موقفاً كهذا من أب تجاه بنته، يجعل من الصعب عليه رثاؤها إن توفيت .

ولكن هل الأم كذلك، وهي أكثر التصاقاً بالبنت من الأب، وأكثر حبا لها؟ ما من شك في أن موقفها كان مغايراً لموقف الأب، وأعتقد أن ما منعها من رثاء ابنتها إلا مجاراتها لما هو شائع في المجتمع، وأما ألمها وحسرتها فقد كانت في النفس .

٢ - ومن خصائص هذا الشعر الوحدة الموضوعية فيه، في الوقت الذي كان أبرز خصائص الشعر العربي، في تلك الحقب، تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة .

وقد تميز شعر رثاء الأبناء عن بقية شعر الرثاء في أنه خلا خلوا تاماً - فيما تعرضنا له من نصوص - من المقدمة الطليئة التي كانت تقليداً متبعاً في الشعر عامة، واتبعتها الشعراء في شعر الرثاء . أما شعر رثاء الأبناء فلم نعثر على قصيدة واحدة كان فيها ذكر لغير الرثاء، أو ذكر للأطلال .

٣ - لقد انفرد الآباء في رثائهم لابنائهم بالفن الذي انبث في مقطوعاتهم وقصائدهم، وعبروا عن قدرة الرجال على التصرف في المواقف مهما كانت عصيبة، بحيث يبقى الرجل قادراً على أن يعمل فكره، في كل الظروف، ولذلك جاء شعره أكثر قوة، وأجود فناً من شعر المرأة، التي غلب على شعرها المباشرة والبكاء والحويل، دون الالتفات إلى التصوير الفني في الأبيات . ومن بعيد التفت بشار بن برد إلى هذا، أعني ضعف المرأة حين قال: «لم تقل امرأة شعراً قط إلا تبين الضعف فيه»(١) .

٤ - ظاهرة التكرار في اللفظ والعبارة: لقد شاعت هذه الظاهرة عند الرجل والمرأة على حد سواء، وما كان التكرار في رثاء الأبناء إلا من شدة الألم والتفجع،

(١) الكامل ٢: ٣٢٧ .

وقد التفت ابن رشيقي القيرواني إلى هذا حين قال «وأولى ما تكرر في الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيجة، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع» (١). وهذه الفجيجة وشدة القرحة التي تحدث عنها ابن رشيقي برثاء الابناء الصق، ولذلك نجدنا لا نميل إلى ما ذهبت إليه الاستاذة بشرى الخطيب من «أن التكرار اللفظي الواسع يتضح في المعاني الحماسية في الرثاء، والتي تدخل في موضوع الشجاعة والحرب والثأر عند المرثي أولاً والرثائي الموتور ثانياً أكثر من غيره، وهي في هذا الباب أشد وقعا وتأثيراً من غيره من أبواب الشعر الرثائي كالحزن مثلاً لأن الحزين جداً يكون قليل الكلام كثير البكاء واللوعة، ينتظر المواساة والتعزية ويتجمل بالصبر، ويسكت طاوياً قلبه على ما أصابه» (٢). وليس أدل على كثرة التكرار عند الحزين الملتاع من أبيات الحارثية في رثاء أبنائها:

يا من أحس بنبي اللذين هما
كالدرتين تشظى عنهما الصدفُ
يا من أحس بنبي اللذين هما
سمعي وطرفي فطرفي اليوم مختطفُ
يا من أحس بنبي اللذين هما
مخ العظام فمخي اليوم مزدهفُ

فشدة الحزن هي التي انطقت الأم وجعلتها تأتي بهذا التكرار في صدر الأبيات .

وشدة الحزن هي التي جعلت أبا ذؤيب يأتينا بالتكرار في قوله:
والدهسر لا يبقي على حدثانه
شيب أفزته الكلاب مروع

(١) العمدة ٢: ٧٦.

(٢) الرثاء في الشعر الجاهلي و صدر الام ٢٣٨.

وثانية :

والدمر لا يبقى على حدثانه
مستشعر حلق الحديد مقنع

ونراه أشد لوعة وهو يكرر عبارته، وكأنه يريد أن يصرخ لسمع الآخرين،
وليشعروا بمأساته، فتكون مشاركتهم له، انظره وهو يقول:

فأجبتها أن ما الجسمي إنه
أودى بني من البلاد فودعوا
أودى بني وأعقبوني غصنة
بعد الرقباد وعبرة لا تقلع

وشدة الحزن هي التي جعلت الأب يكرر لفظ «سبعة» أربع مرات في بيت واحد
حين قال :

أسبعة أطواد، أسبعة أبحر
أسبعة آساد، أسبعة أنجم

٥ - الحوار: والحوار في رثاء الأبناء أضفى على الشعر مسحة فنية زادته جمالا
وتأثيرا في النفس، حينما كان يشرك الشعراء معهم امرأة أو حمامة أو زوجاً.
وأسلوب الحوار نماذجه قليلة في الشعر الجاهلي، حتى إذا عثرنا عليه في رثاء الأبناء
يتكرر، فإن هذا يزيد من قيمة هذا الشعر.

لمسنا الحوار عند أبي ذؤيب في حوار هو وأميمة في قوله:

قالت أميمة: ما لجسمك شاحباً
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا
إلا أفض عليك ذاك المضجع
فأجبتها؛ أن ما لجسمي أنه
أودى بني من البلاد فودعوا

والحوار مع الطير، تجسد عند صخر الغي مع الحمامة التي ناحت فرخها «ساق
حر» بينما كان هو ينوح ابنه «تليدا» فقال:

وما أن صوت نائحة بليل
بسبلل لا تنام مع الهجود
تجهنا غاديين فساءلتنني
بواحدتها وأسأل عن تليدي
فقلت لها: فأماساق حر
فبان مع الأوائل من ثمود
وقالت: لن ترى أبداً تليداً
بعينك آخر العمر الجديد
كلانارد صاحبه بيأس
وتأنيب ووجدان بعيد

٦ - وتميز هذا الشعر عند الرجل والمرأة - بالإضافة إلى حديثه عن الصفات
المتجسدة في الشجاعة، والفروسية، والدفاع عن القبيلة، وإغاثة الملهوف، والكرم -
التي تنسجم مع شعر الرثاء بصفة عامة - تميز هذا الشعر بإضفاء صفة الجمال
والحسن على الابن، وهي الصفة التي لم نعهد الشعراء يتحدثون بها عن الرجل،
وإنما يتحدثون بها عن المرأة، إلا أننا رأينا الأب والأم يتحدثان بها، في معرض
رثائهما، وتوجعهما على الابن الذي اكتملت فيه الصفات، حتى صفة الجمال،

قيا يوم الرهان فجعت فيه
بشخص جاز عن حد الصفات

والابن كالدرة تشظى عنها الصدف على حد تعبير الحارثية:
يا من أحسن بنيي اللذين هما
كالدرتين تشظى عنهما الصدف
وهو منير الوجه كالبدر:

أحشو التراب على مفارقه
وعلى غضارة وجهه النضر
حين استوى وعلا الشباب به
وبدا منير الوجه كالبدر

٧ - وكشف لنا شعر النساء خاصة، قضية أحجم الرجل عن ذكرها لأنها تشكل
طعنا فيه وتقا عسا منه عن أخذ الثأر لابنه، تلك القضية هي قبول الأب الدية في
ابنه طمعاً في المال والأنعام التي تقدم له، أو جنباً منه عن منازلة أعدائه، وانتقامه
منهم. ولذلك رأينا الأم تعير زوجها بهذا، وترى فيه خوراً، الأمر الذي جعلها
تتطاول عليه في الحديث والتعير، فلا سلم من الأعادي، ولا وقى شر النائبات،
وقلبه قلب البنات، وهو بعل جبان، وحياته أردأ الحياة!! وما كان هذا لو لم يقبل
الدية، انظرها تقول:

حذيفة لا سلمت من الأعادي
ولا وقيت شر النائبات
أبقتل قرفة قيساً وترضى
بأنعام ونوق سارحات

أما تخشى إذا قال الأعادي
حذيفة قلبه قلب البنات
فخذ ثأرا بأطراف العوالي
وبالبيض الحداد المرهفات
ولا خلني أبكي هماري
وليلي بالدموع الجاريات
لعمل منيتي تأتي سريعاً
وتبرميني سهام الحاديات
فذاك أحب من بعمل جبان
تكون حياته أردا الحياة

٨ - ولعل شدة الحزن هي التي جعلت الشعراء يستعينون بعناصر أخرى من الطبيعة كان لها ميزة في ذهن الانسان، فاتخذها الشعراء وسيلة للتعبير عن معاناتهم. من ذلك استعانتهم بالناقة التي فقدت ابنها، فبكت عليه بكاء مرا، وقد ضرب المثل بالناقة وشدة حنينها، لذلك استعان بها جرير وهو يصف زوجته في بكائها على ابنها فقال:

إلا تكن لك بالديرين معولة
فرب باكية بالرممل معوال
كأم بو عجول عند معهده
حنت إلى جلد منه وأوصال

ومثله كان اربطاة بن زفر بن سهية حين قال:

وكائن ترى من ذات بث وعولة
بكت شجوها بعد الحنين المرجع

فكانت كذات البو لما تعظفت

على قطع من شلوه المتمزع

ومن وسائلهم الفنية في التعبير عن حزنهم حمام الأيك الذي لا يقل ذكره عن ذكر الناقة وحينها، ولذلك لحظنا الحمامة هي التي هاجت الذكرى عند صخر الغي فقال:

وذكرني بكاي عل تليد
حمامة مر جاوبت الحماما
ترجع منطقا عجبنا وأوفت
كنائحة أنت نوحا قياما
تنادي ساق حر وظلت أدعو
تليدا لا تبين به الكلاما

ومرة أخرى يلتقي الحمامة وهي نائحة بالليل:

وما إن صوت نائحة بليل
بسبلل لا تنام مع الهجود
تجهنا غادين فساءلتني
بواحدهما وأسأل عن تليدي

ومنه ما ذكرته أم حذيفة وهي ترثي ابنها، وإذا بها تتساءل:

تري طير الأراك ينوح مثلي
على أعلى الفصون المائلات
وهل تجد الحمام مثل وجدي
إذا رميت بسهم من شتات

ومما استعانوا به في تصوير حرقتهم، واشتعال الحرارة في نفوسهم وعيونهم النباتات الصحراوية التي كانت تؤذي العين إذا أصابتها، أو جاء ماؤها فيها. ومن هذه النباتات «الصاب» الذي كانت مياهه مشهورة بإيذائها للعين إذا ما تعرضت لها، فتلتهب العين، وتبقى دموعها منهمة، ولذلك رأيناهم يشبهون حالتهم وهم سيكون بكاء مرا مستمرا، كأن عيونهم أصابها الصاب، وانظرهم يقولون:

ما بال عينك تبكي دمعها خضل
كما وهي سرب الأخسرات منبزل
لا تفتأ الدهر في سح بأربعة
كأن انسانها بالصاب مكتحل

أو أن تسمل حذاق العين بالشوك، فهي - عندئذ - عور تدمع، وهكذا كان حال أبي ذؤيب في بكائه على أبنائه:

فالعين بعدهم كأن حذاقها
سملت بشوك فهي عور تدمع

وثالثة يشبهون دمعهم بالسحابة التي ينزل مطرها بشدة وهكذا كان حال غيلان

ابن سلمة:

عيني تجود بدمعها الهتان
سحا وتبكي فارس الفرسان

٩ - وإذا كان أثر عن العربي رباطة جأشه، وقوة تحمله للمصاعب والمشاق، فانه في حالة فقدته للابن، يفلت الزمام من يده، ولذلك رأينا «متجلدا»، ولكن هيهات، وهو يذرف الدمع ويظهر اللوعة والحزن، الأمر الذي جعل ظاهرة قوة التحمل يكاد يفقدها الأب في هذا الجانب بالذات.

وقد اقترنت قضية التجلد بشماتة الأعداء، وكأن الأب كان يشعر بالضعف،
لكنه إذا ما تذكر أعداءه والشامتين به، يصحو من غفلته، ويعلن تجلده وصره،
وأنه ما زال بخير، قويا، شجاعا، قال أبوذؤيب:

وتجلدي للشامتين أريهم

أني لريب الدهر لا أتضعضع

١٠ - وحاول الأب والأم أن يبحثا عن وسيلة يتسليان بها، ليخفف كل منهما
عن نفسه، وكان أقوى الوسائل، ذكرهم للمنية، وأن الإنسان إذا جاءت منيته،
فلا مفر له منها، ومهما طال عمره، فلا بد أن يلقي أجله، ولذلك قال أبوذؤيب:

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم

فإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفع

وصخر الغي يقول:

لعمرك والمنايا غالبات

وما تغني التميمات الحماما

والفرزدق قال:

أرى كل حي لا يزال طلبعة

عليه المنايا، من فروج المخارم

وما أحد كان المنايا وراءه

ولو عاش أياما طوالا، بسالم

والسلكة أم السليك قالت:

والمننايا رُصد

للفتي حيث سلك

١١ - ولغة الشعر في رثاء الأبناء كانت منسجمة مع الموقف الذي عاجله الشعراء، فقد دارت هذه اللغة حول ألفاظ وتعابير ووسائل تمثلت في: البكاء، الثكل، فقد الفارس، والجواد، والكريم، والمدافع عن القبيلة والحمى والعرض، وإغاثة الملهوف والتمتع بالقيم والمثل الرفيعة وتمني الأب والأم في أن يدفنها الابن وليس العكس. وقد كانت هذه الألفاظ هي التي يتطلبها المقام.

المصادر والمراجع

- (١) الأغاني - أبو الفرج الاصفهاني - دار الثقافة . بيروت . ١٩٥٥ - ١٩٦٤ م .
- (٢) الأمالي - أبو علي القالي - طبعة الكتب المصرية .
- (٣) دراسات في الشعر الجاهلي . د . نوري حمودي القيسي . بغداد ١٩٧٢ م .
- (٤) ديوان جرير . تحقيق د . نعمان أمين طه . دار المعارف بمصر .
- (٥) ديوان الحماسة - أبو تمام الطائي - مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤ م .
- (٦) ديوان الفرزدق . دار صادر بيروت .
- (٧) ديوان المهذلين - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .
- (٨) ذيل الأمالي والنوادر - أبو علي القالي - طبعة دار الكتب المصرية .
- (٩) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام . بشرى الخطيب - مطبعة الادارة المحلية ، بغداد . ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- (١٠) رياض الأدب في مرثي شواعر العرب - الأب لويس شيخو - المطبعة اليسوعية - بيروت .
- (١١) السيرة النبوية - ابن هشام . دار الفكر - القاهرة .
- (١٢) طبقات فحول الشعراء . محمد بن سلام الجمحي . شرحه محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة ١٩٧٤ م .

- (١٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٤. دار الجيل. بيروت.
- (١٤) عيون الاخبار. عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م.
- (١٥) الكامل في الادب واللغة. محمد بن يزيد المبرد. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مكتبة نهضة مصر. د. ت.
- (١٦) مقامات السيوطي. جلال الدين عبدالرحمن السيوطي. مطبعة الجوائب - القسطنطينية ١٢٩٨ هـ -.
- (١٧) نزهة المتيقن شرح رياض الصالحين. محي الدين النووي ط ٢ مؤسسة الرسالة بيروت.
- (١٨) نقد الشعر. قدامة بن جعفر. تحقيق كمال مصطفى ط ٣ مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- (١٩) نهاية الارب في فنون الادب. شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

فهرس الاعلام

(١)

٢٤٧	أبان بن الحجاج
٦١	إبراهيم الكيلاني
١٦١	إبراهيم بن هبيرة
٨٠	أبرويز
٦٢	الابشيهي
٦٥,٦١	إحسان عباس
١٧٦,٧٦,٦٥,٦٢,٦١	أحمد أمين
٦١	أحمد الزين
١٧٥,٧٤	أحمد أبو سعد
٦١	أحمد الضبيبي
١٧٥,٦٤,٢١	أحمد فؤاد الأهواني
١٧٦	أحمد محمد الحوفي
١١٣	الأحنف بن قيس
١٧٦,٨٧,٨٦	إدمون جوس
٩٠,٧٨	أرسطو
٢٨٦,٢٥٥,٢٥٣	أرطاة بن زفر بن سهية
١٦٧	أسماء بن خارجة
١٦٣,١١٥,٤٧	أبو الأسود الدؤلي
٢٦٧	الأسود بن المطلب
١٥٦,٤٤	أسيد
١٦٠	الأشعث بن قيس
٢٧٠,٢١٧,٢٠٢,٢٠٠	الأصمعي
١٠٦	الأقرع بن حابس
١٦١	أكثم بن صيفي
١١٠	أمية بن الأسكر
٣٧,٣٥,٣٣,٣٢	أمية بن أبي الصلت
١٧٥	انطوان الخوري
٦٤	ايزابيل جان

(ب)

٢٦٨	بسر بن أزرطة
٢٩١	بشري الخطيب
٦١	ابن بطوطة
٨٦	بوغون
٦٤	بهجت الحديثي
٦١	البيروني
١٧٦	البيهقي

(ت)

٢٢٤	تليد
٢٨٤, ٢٦٠	تماضر بنت الشريد
٢٩١	أبو تمام
١٣٨	ابن التوأم

(ث)

٦٤, ٦١	الثعالبي
--------	----------

(ج)

٤, ٦٢, ٦١ و ٢٩, ٢٨, ٢٧, ٢١, ١٩	الجاحظ
. ١٧٥, ٦٥, ٦	
. ٧٥, ٨٥, ٨٤, ٨٣	جان جاك روسو
. ٢٥٥, ٢٥١, ٢٥٠, ٢٤٩	جرير بن عطية
٢١	ابن جماعة
. ٦٥, ٦٤, ٦٢	ابن الجوزي
٨٦	جون ايموس كومينوس

(ح)

. ١٦٤, ٤٩
. ٢٤٨, ٢٤٧, ١٦٦, ١٣٧, ٢٠
٢٦٠
١١٢
١٢٨
٢٥
. ١٦٢, ١٠٨, ١٠٧, ٤٧
١٦
٢٣٧
٦٥, ٣٠
٩٧
٦١

حاتم الطائي
الحجاج بن يوسف
حذيفة بن بدر
الحسن البصري
الحسن بن علي
الحسين بن علي
الحطيئة
حكيم
أبو حكيم المري
حمزة الأصفهاني
حمل بن بدر
أبو حيان التوحيدي

(خ)

١٢٨, ١٢٧
١٦٢
١٦٤, ٤٨
٢٤٧
٢٤٠, ١٧٠, ١٦٩
٧٦
٧٦

أبو خالد
خالد بن صفوان
ابن خذاق العبدي
خلف بن قيس
الخنساء
خيبي الثالث
خيبي الرابع

(د)

٢٠١
٦١

دريد بن الصمة
الدميري

(ذ)

. ٢١٩, ٢١٧, ٢١٤, ٢١٠, ٢٠٧
. ٢٨٢, ٢٢٢, ٢٢
. ١٥٥, ٤٤, ٤٢

أبو ذؤيب الهذلي
ذو الاصبع العدواني

(و)

٨٣,٨٢
١٧٦,٩٦,٦٥
١٤٦,١٤٣
٢٩٢,٢٨١,٢٠١,١٩٩

رابلية
الراغب الأصبهاني
ربيعة
ابن رشيق القيرواني

(ز)

١١٢,٢٥
١١٧
١٦٧
١٩٣,١٧٦,٧٦
١٩٣,١٨٢,٦٢,٦١
٢٤٢
١١٥
٢٤٧
٢٣٩
١٢١

الزبير بن العوام
زحنة
زرارة بن عدس
زكي نجيب محمود
الزمخشري
زهير بن أبي سلمى
زياد بن أبيه
زياد الأعجم
زيد بن حارثة
زيد بن عمرو بن نفيل

(س)

٨١
٢٣٠
١١٢
٢١
٣٩
٢٨٤
٦١
٥٦
١٣٩
٢٤٩
٢١
٢٩٢,٢٠٢

سابور
ساعدة بن جؤية
سالم بن عبدالله
ابن سحنون
أبو سعيد السيرافي
السليك بن السليكة
سليم النعيمي
أبو سليمان
سليمان الكعبي
سواده بن جرير
ابن سينا
السيوطي

(ش)

٢٣٥	شأس
١٤٢	شريح
٥٦,٥٥	الشعبي
٣٧	أبو الشمقمق
٨٠	شرويه

(ص)

٢٤٠	صخر بن عمرو
٢٨٢,٢٢٦,٢٢٥,٢٢٤,٢٢٢,٢٢١,٢٢٠	صخر الغي
.١٢٢,١٢١	صعصة بن ناجية

(ط)

١٩٣,١٨٦	طه حسين
---------	---------

(ع)

٦٢	عائشة عبد الرحمن
١٧٥,٨٤	عادل زعير
١٧٦,٩١,٩٠	عباس محمود العقاد
١٩	عبد الحميد الكاتب
١٧٦,٨٠,٦٥,٦٢	ابن عبد ربه
١٩٣,١٧٥,٦٥,٦٤,٦١	عبد السلام هارون
١٧٥,٨٩	عبد العزيز محمد
١٦١	عبد العزيز بن مروان
٦٢	عبد العليم الطحاوي
٦٤	عبد الفتاح الحلو
١٦٨	عبدالله بن جعفر
١٩٣,١٧٥,٧٤	عبدالله عبد الدايم
١٦٢,٤٦	عبدالله بن شداد
١١٢	عبدالله بن عمر
٦٢,٣١,٣٠	عبدالله بن المقفع
٦١	عبد المجيد قطامش
١٥٩,١١٦,١١٤	عبد الملك بن مروان
٢٦٨	عبيد الله بن عباس
٧٥	عثمان بن عطاء
١٢٩	العجير السلولي
٩٩	عرار
٢٥	عروة بن الزبير
١٩	عطاء بن أبي رباح
٦١	أبو العلاء المعري
١٧٢	علي بن أبي طالب
١٥٩	علي بن الحسين
١٩	علي بن حمزة الكسائي
٢٩١,١٧٥,١١٧,٩٩	أبو علي القالي
١٧٢,١٣٧,١١١,١١٠,١٠٩,١٠٨,١٠٧,٢٠	عمر بن الخطاب
١٧٤,١٧٣,١٤٠,١١٤	عمر بن عبد العزيز
١٨٣	عمر فروخ
١٤٦,١٤٥,١٤٤,١٤٣	عمرو
٩٨	عمرو بن شاس
١٢٦	عمرو بن العاص
١٥٠,١٤١	عمرو بن عتبة
١٥٦,١٥٤,٤٥,٤١	عمرو بن كلثوم
٤١	عمرو بن هند
١٦٠	عمير بن حبيب

(غ)

٢١
٢٤١

الغزالي
غيلان بن سلمة

(ف)

١٧٦,٨٧
١٩٣
٩٨,٩٧
٢٥
٧٥
.٢٩١,١٧٥,٦٤
.٢٥٢,٢٥١,١٢١
١٠٥
٧٩
٢٣٢
٦٢
١٧٥,٨٩,٨٨

فؤاد اندراوس
فؤاد زكريا
فاطمة بنت الخشرب
فاطمة الزهراء
فتاح حوثيب
أبو الفرج الأصفهاني
الفرزدق
فرعون
فلوطا رخس
الفندين شيبان
فوزي عطوى
الفونس اسكيروس

(ق)

٢٢,٢١
٢٦١
١٧٥,٩٧,٦٢
٢٩٢,١٩٩
١٠٧,١٠٦
٢٦٥
٦٢
١٥٨
١٩
١٢٧
١٦٣,٤٨
١٩

القابسي
أم قبيس الضبية
ابن قتيبة
قدامة بن جعفر
قرة بن حنظلة
أم قرفة
القزويني
قس بن ساعدة
قطرب
قطري بن الفجاءة
قيس بن الخطيم
قيس بن سعد

	(ك)	
٢٦٥		أبو كبير الهذلي
٢٠١		ابن الكلبي
٢٩٢		كمال مصطفى
٢٢,١٩		الكميت بن زيد
	(ل)	
١٥١,١٥٠,١٣٥,١٣٤		لقمان
٢٩١		لويس شيخو
	(م)	
٦١		مؤرج بن عمر السدوسي
١٢٩		المأمون
٦٤		ماري سابا
٢٦٠		مالك بن زهير
١٨٥		مالك بن نبي
.٢٩١,١٧٦,١٢٧		المبرد
٢٢٧		المتنخل
١٨٢		محمد الادريسي
١٩٣		محمد خالد الطحان
٢٩١,١٧٦,١٢١		محمد بن سلام الجمحي
١٧٦,٨٤		محمد عطية الابراشي
.٦٥,٦٤,٣٠		محمد غنيمي هلال
.٢٩٢,٦٢		محمد محي الدين عبد الحميد
٢٩٢,١٧٦		محمد أبو الفضل ابراهيم
١٩		محمد بن المستنير
١٨٢		محمد يوسف نجم
١٧٥,٩٥		محمود شكري الالوسي
٢٩١		محمود محمد شاكر
١٦١		مروان بن الحكم
٦٢		المسعودي
١٧٥,٧٦		مصطفى أمين
٥٦		المعافي بن زكريا
.٢٦٨,١٥٩,١٢٦,١٢١,١١٢		معاوية بن أبي سفيان
١٢٢		معن بن أوس
٦٢		المفضل بن سلمة
٦١		المفضل الضبي
١٦٥,٤٩		المقنع الكندي
١٨٢		ابن منظور
٦٢		الميداني

	(ن)	
٢٩١		نعمان أمين طه
٢٩١,٢٠٨		نوري القيسي
٢٩٢		النوي
٢٩٢,١٧٦,٨٢		النويري

	(هـ)	
٦٤,٢٦		هادي نعمة الهيتي
١٦٥		هدبة بن الخشرم
٢٩١		ابن هشام
١٦١,١٤٠,١٣٩		هشام بن عبد الملك
٢١		هشام نشابة
٧٧		هو ميروس
٢١		الهيثمي
٨٠		هيروdot

	(و)	
٦٣		الوشاء

	(ي)	
٣٩		يحيى بن أكرم
٢٤٨		يزيد بن الحكم
١٢٩		يزيد بن زبيبة
١١٣		يزيد بن معاوية

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٠٥	الأهداء
٠٧	تقديم
٦٢ - ٩	الطفل والتراث
١٧٦ - ٦٧	تربية الأبناء في الأدب العربي
١٩٢ - ١٧٧	الرؤية الثقافية للطفل العربي
٢٩٢ - ١٩٥	رثاء الأبناء في الشعر العربي
٣٠١ - ٢٩٢	فهرس الأعلام

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com



بعد التراث الثقافي، أحد العوامل المهمة في تطور المجتمعات البشرية، لأنه يمثل النماذج الثقافية التي تتلقاها الأجيال عبر مسيرتها الحضارية.

وفي عصر انفجار المعرفة، المواكبة للتقدم التكنولوجي، واختزال الزمان بتقريب المكان، وسرعة وصول المعلومة دون رقي، ظهرت الرغبة في التحديث.

أدت هذه الرغبة إلى أن يوضع التراث الثقافي - تعسفاً - في مواجهة الحداثة والتقدم، وأدرك عدد من المفكرين العرب هذه المشكلة، وتصدوا لها، فوجدوا أنها لا تكمن في التراث نفسه، وإنما في طبيعة علاقتنا به، وطالبوا برؤية عصرية للتراث بحيث تجعله جزءاً منا.

وهذا الكتاب، وأحد من الدراسات التي ترجمت هذه الدعوة، حين أنفتحت مؤلفه إلى الماضي المشرق، المرتبط بالحاضر المعاش، ينسجم معه، ويرفده بتجاربه وخبراته.

إن الحياة ديمومة مستمرة، تحمل في أحشائها الماضي، وتغذيه بما استجد فيها من غذاء، وهذا الكتاب يؤكد هذه الحقيقة فيما يتصل بأدب الطفل عند العرب، فكان لهم اهتمام به، وأنهم أصحاب رؤى تربوية ثابتة تتصل بالطفل وثقافته.

لقد جمع المؤلف بين المادة النظرية لأدب الطفل في التراث: منهجاً، وتربية، وتنشئة، وبين الجانب التطبيقي، بما اشتمل عليه من نصوص شعرية ونثرية دالة على سداد هذه المناهج وأهميتها، لا في عصرها الذي شاعت فيه وحده، وإنما في العصور التالية كذلك.

دائرة الثقافة والاعلام